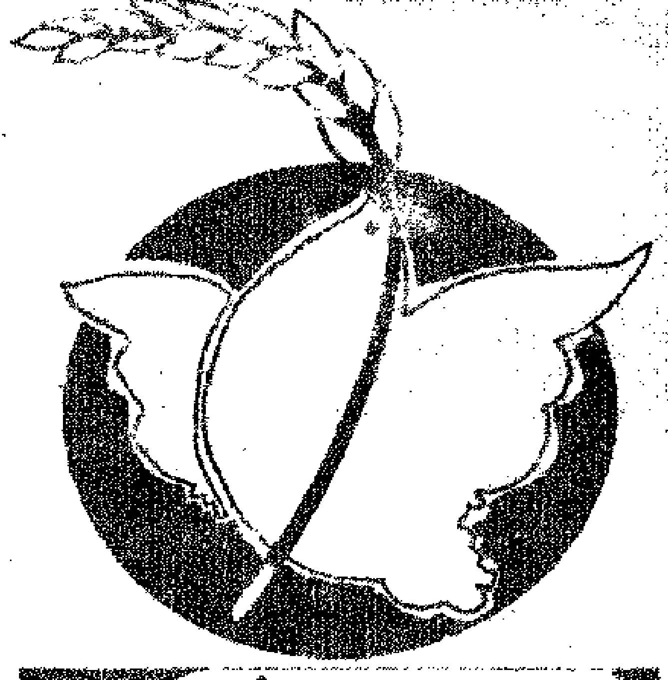


تاريخ الحضارة في القرن العشرين



دكتور محمود متولي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ - آداب المنيا

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

التاريخ الحضاري للقرن العشرين

تأليف

كينيث ايوارت بولدنج

KENNETH EWART BOULDING

تعريب

الدكتور محمود متولي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة المنيا

الناشر

مكتبة نهضة الشرق

جامعة القاهرة

١٩٨٥

اهـــــداء

« الى من اعطتنى حق الحيـــــاة وارضعتنى معنى المبادىء ... الى امى التى قادتنى من الظلمات الى النـــور ولقنتنى الدرس الأول فى الوجـــود وهو ان من يفـــرط فى واجباته يخون ربه وضميره ويفقـــد ثقـــة المجتمع فيـــه ... وان من يفـــرط فى حقوقه لا يستحق الحياة »

م . م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الدراســـــة العالمية فى الواقع من اكثر الدراسات المشـــوقة والمثيرة والمعقــدة فى ذات الوقت . وقد استحقت ثناء الكثير من المعلقين الســـــياسيين والمحللين والمراقبين الى درجة أن اعتبرت اخطر ما كتب عن القرن العشرين .

وعنوان الدراســــــة الرئيسى هــو « مغــزى القـــرن العشرين Th Meaniusy of thc20 th centmy أو التحول العظيم The Great Transition من تاليف الكاتب الامريكى المعروف Kenneth Ewart Boulding — كينيث ايوارت بولدنج وقد طبع سنة ١٩٦٤ لاول مرة أى انه قد مر على صـــدوره أكثر من عشرين عاما ورغم ذلك فان الكثير من التنبؤات التى وردت فى الكتـــاب صـــحيحة ، كما أن الافكار والآراء التى جاءت من خلال سطوره تعتبر حقيقـــة رائعة . ولكل ذلك رأيت أن انقـــله الى قراء العربية آملا أن تستفيد منه شريحة المثقفين فى العالم العـــربى بوجه عام وفى بلدى مصر بوجه خاص وكلى ثقــــة أن ما جاء فى هـــذا الكتاب سوف يزيد من حرارة النقاش لمـــا احتـــواه من آراء جيـــــدة وجريئة فى نفس الوقت .

وفى الواقع لا يسعنى الا أن اشـــكر كل من قدم لى يد المســـاعدة حتى ظهور هذا الكتاب الى النـــور ، كما انه يســـعدنى أن يكون ذلك مقـــدمة مجموعة من الدراسات العالمية انوى تقـــديمها لقارئى العــزيز وطلابى النجباء فى الجامعات .

واود من البداية أن اقول أن الكثير مما جاء فى الكتـــاب قد لا يتفق مع المناخ الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لمجتمعنا العربى ولكن بلا شك انه يمكن الاســـتفادة بكل ما جاء فى الكتاب من آراء وافكار ، وفى الوقت

ذاته — من خـــلال هـــذا المنطلق — فاننى لا اتفق مع بعض النتـــائج التى توصـــل لها الكاتب حيث يتضح من البداية ان هذه النتـــائج بنيت على أسس تحليلية للمجتمع الامريكى بصـــفة خاصـــة ولكن بوجه عام فان ما يجب قوله هـــو أن الاختلاف فى الراى لا يعنى أن نغفـــل للكاتب جهـــده وأن يكون تقييمنا لهذا العمل فى الحساب الختامى لصالحه .

ولعل التســـاؤل قد يدور لـــماذا غيرت العنـــوان ، والحق يقال أن السبب فى ذلك يعـــود الى أن كل ما جاء فى الكتاب يمت بصـــلة الى الحضـــارة والتاريخ الحضـــارى فهو من نوع الدراسات الخاصـــة بفرع التاريخ الاقتصادى والاجتماعى .

والحضارة لا تعنى مجرد التطور المـــادى للبشرية فحسب ، بل هى الى جانب ذلك تعنى العـــلاقات بين الفـــرد والمجتمع وسلوك الانسان خلال اتصـــالاته الشخصية وتطلعاته الطبقية وتحركه من أجـــل تحقيق ذاته فى ظل القيم التى يؤمن بها . وكثير من المجتمعات الآن قد قطعت شوطا بعيـــدا فى التطور المـــادى ولكنهـــا للأسف الشـــديد لا زالت تعـــامل مواطنيها معـــاملة مشوهة ، ومن ثم فهى مجتمعات غير حضارية وقد يصل الانسان الى أعلى مرتبـــة التعليم ولكن سلوكه قد يكون غير حضـــــارى .

والحضـــارة تتضمن ثقافة الشـــعب أولا ثم مثاليته فى الحياة ثانيا ثم تطوره المـــادى ثالثـــا ثم علاقات السلطة بالافـــراد داخله رابعـــا ثم أخيرا الحضارة تعنى التحضر دون الانحـــلال والتحرر دون فقـــدان الأصالة والتطور دون التقليد أو المحاكاة .

والقرن العشرين بحق هو قرن التفـــاعل البشرى كله ، القرن الذى أصبحت فيه حرية الانسان لا قيمة لها الا فى ظل حرية المجتمع الذى يعيش فيه، و القـــرن العشرين هـــو أخطر قرن من قرون التـــاريخ البشرى

ليس فقط لمـــا حمله من ابداع فى العـــلم والفكر والنظريات لاتى تحكم بل وتتحكم فى حياة الانســـان ، بل لانه قرن الثورة العالمية سواء ضـــد التخلف العلمى أو المـــادى ســـواء ضد الاستعمار او الاســـتغلال ســـواء ضـــد الجمود أو الخمول ، ولا مكان لشعب لا يستثمر شخصية ليبنى نفســـه فى ظل تعقدات هذا القرن .

فنحن نعيش فى عصر الذرة ، ونحيـــا فى ظل هيمنة الكتلتين ولا يمكن أن نتحـــرك دون مراعاة لكل من القطبين الثنـــائيين اللذان يتحكمـــان فى العـــالم .وفى ذات الوقت نجد هذه القـــرن الذى اصبحت فيه الحرب الشاملة مستحيلة لمـــا يسمى بعصر التوازن النووى ، نجـــد انه لا تكاد تخلو قارة من القارات من حرب محلية صغيرة ، فى آسيا وحـــدها اكثر من حرب مستعرة الأوار مثل حروب جنوب شرق آسيا فى لاوس وكمبوديا وفيتنـــام والصين وكشمير ومثل الشرق الاوسط وابرز حروبه فى لبنـــان وبين العـــراق وأيران واذا ما اضـــفنا مأساة الشـــعوب المحتلة مثل افغانستان لقلنا بلا مبالغة أن آسيا قارة تعيش على برميـــل من البارود فوق قضبان ساخنة .

ثم نأتى الى افريقيـــا وحروبها أكثر فى تشـــاد ، فى اثيوبيـــا ، فى الصومال ، فوق أرض ارتريا وفوق ذلك جنـــوب افريقيا وسيطرتها على ناميبيـــا ، الى جانب ما يعـــانيه الشـــعب الافريقى من الانقلابات العسكرية المتعددة والحروب الاهلية التى لا حصر لها .

اما أمريكا اللاتينية فحدث ولا حرج ، تلك القـــارة التى لا تكاد تمر ثانيـــة واحـــدة دون أن نسمع صـــوت اطلاق رصـــاصة ولا تمر سنة واحـــدة دون أن نقـــرأ عن انقلاب فى احدى دولها ولا يأت قادم من هناك الا وهو مليء بالاسى لمـــا تعانيه شعوبها من فقـــر مدقع وطبقـــة غنية لا تجد مكانا تنفق فيه اموالها .

وحتى أوربا رغم خفوت حدة الصراع الا ان ؤلمــانيا ق ايطــاليا والباسك فى اســبانيا والعنف فى فرنسا كلها صــور مقنعــة لحــروب مستترة ويكفى الكلام عن الجيش الايرلندى وما تعانى منه انجلترا منـذ سنوات طوال .

وق أوربا الشرقية نجـد مأســاة المجـر سنة ١٩٥٦ ثم فاجعــة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ ثم ما تعيشــه بولندا الآن من حالة الرعب لانقسام المجتمع البولندى مما يهـدد بقيسام حرب أهلية وتدخل الجيوش السوفيتية ، بل ان الاتحاد السوفيتى نفسه يعــانى من حركة المنشقين داخله ، ناهيك عن وضع رومانيا والبانيا .

واذا كان الانسـان فى المجتمعات المتقدمة قد خرج من دائرة الفقـر والتخلف وقطع شوطا كبيرا فى التعليم الا ان هذا الانســان فقد ايمـانه الروحى وبالتــالى تعثر وتخبط واصبحنا نسمع عن الكثير من حالات الانتحار داخل هذه المجتمعات وبدا هذا المجتمع يعلن افلاسه مما جعـل الكثير من مفكريه عن اقتنــاع يهربون من كافة المذاهب الوضــعية التى صاغتها براعة العقــول البشرية وبدأوا يعــودون الى التقــويم الالهى وبحثوا فى الأديان فوجدوا فى الدين الاسلامى المنقذ لهم من الضلالة والتيه لأن الاســلام هو المستقبل وهو الخلاص الحقيقى للبشرية لتعرف طريقها الى الســلام الروحى .

ومشكلة الحضــارة الانسانية الآن هى كيفيــــة القضاء على ذلك التناقض بين مصلحة الفــرد ، ومصلحة المجتمع وكيفية القضــاء على انتهــازية أساليب الحكم وكيفية مواجهة نظم القهــر والقوانين المقيــدة للحــريات والتفاعل مع الديموقراطية الصحيحة والتعــامل مع مختلف الثقــافات ومواجهة الكم الهائل من المعــرفة حتى يدرك الانسان انه مثقفا .

وحضارة القـــرن العشرين الآن ليست على وتيرة واحـــدة فهناك الصراع بين الأصـــالة والتجديد وهناك النزاع بين القـــديم والجـــديد وهنـــــاك نظريات التفـــوق الجنسى التى تنادى بها بعض الأيديولوجيات ولكن أكثر من ذلك هناك الحرب المذهبيـــــة بين الفكرة الراسمالية والفكرة الاشتراكية ورغم محاولة كل منهما استعارة بعض أسس الاخرى الا ان أمل كل فكرة هو القضاء على الاخرى .

ومن وجهة نظرنا ان تعثر فكرة الحكومة العالمية والانفجار السكانى والحروب المحلية والتكتل الدولى وتواجد القوتان الاعظم منفردتين على مقدرات العالم وتواجد حكومة غير مسئولة وسلبيات المواطنين وجهـــل المتعلمين كلها اعداء للتقـــدم البشرى وكلها مسئولة عن تدهور حضــــارة القرن العشرين بحيث يمكن أن يقـــال فى النهاية ان هذا القرن تميز بتطور هائل فى الكم المـــادى لاحتياجات الانســـان لكن ايضا تميز بتأخر كامل فى سلوك الانسان واخلاقياته وقيمه ومعنوياته ، وهكذا يدق ناقوس الخطر معلنا ان مظاهر التقدم الحضارى جـــــوفاء ما لم يصحبها تطور حقيقى فى أفكار الانسان ومبادئه وفى علاقاته مع ذاته ومع الآخرين .

ولكى ندلل على ما نقول من حيث خطر الأحلاف على التقدم البشرى وعلى حضاره القرن العشرين ، نزيد ايضـــاحا ان التنافس العســـكرى بين مجموعتين متصارعتين وشيوع القطبيـــة الثنائيـــة Bipoiavization فى البنيان السياسى الدولى لا يفشل فى تحقيق مزيد من الامل فحســـب ، بل يساهم بالمراد فى زيادة التوتر وجعل الخلاف أكثر حدوثا . ان الاحلاف لا تفشـــل فقط فى تحـــرير أعضائها من الانفـــاق الزائد على التسلح ، بل انها تخلق تنافســـا بين كتل من الدول مما يحتم مزيداً من الانفاق .

ولعل أخطر مظاهر حضارة القـــرن العشرين أن عالم اليوم كعالم الامس لا محل فيه للضعفاء مع انه كان من المفروض فى ظل التطور التقنى

وتضخم القــوى ونمو الحضــــارة المــادى ان يصبح الحق فوق القــوة وأن تصبح الاخلاق طريقا للعلاقات وأن يصــــان العــدل الدولى وأن تصان حقوق الشعوب ولكن للأسف أن القرن العشرين هو عالم ملىء باصطراع القــوى ومن لا يملك القــوة منه لا يملك الحق ومن هنــا لكى نتــوقع لأنفسنا مكانة لابد وان نكون اقوياء ولكى نحظى من البشر على الاحترام لابد ان نملك القدر الكافى من القــوى لحماية أنفسنا ومبادئنا التى ندافع عنهــا والا فلن يكون لنا مكان فوق سطح الارض وان لم نفعــــل ذلك سنجد من يقــول لنــا انتم أغبيـــــاء لانكم سرتم وراء عالم الأخلاقيات والعواطف وتركتم عالم السياسة والواقع . فنحن من خلال قوتنا يمكننا ان نحمى مثلنا وقيمنا وعن طريق قدراتنا المادية نصــون مثلنا ومبادئنا الاجتماعية .

ومن الجــدير بالذكر أننــــا لا نستطيع أن نتناسى ان حضـــــارة القرن العشرين قد ولدت من العــدم أو انها خرجت من فراغ بل لقــد كانت نتاج صراع طويل من الكفاح لاجل التوصل الى ما وصلت اليــه المخترعات والابتكارات وان هذه الحضارة ليست ملكا لشعب بعينــه ، بل أن كل شعوب المجتمع الدولى قدمت للحضــــارة ما لديها من امكانيات وتطورت هذه الامكانيات حتى وصلت الى ما وصلت اليـــه ، وكل شعوب العـــالم ساهمت بقدر قليل أو كثير حتى وصلت حضارة القرن العشرين الى ما هى عليه الآن .

واذا ما كان لنــا أن نفخــر نحن العرب — الذين نكون جــوهر الحضــــارة الاسلامية أطول حضارات البشرية عمــرا واكثرها ايجابية وتأثيرا فى حقل التقــدم البشرى — فان لنا من رصيدنا الحضارى ما يجعلنا نقــول اننا أكثر شعوب العالم تأثيرا فى تطور المدنية الحديثة ولقد اتسمت هذه الحضارة بسمة متجانسة عرفت بها ، فهى حضارة لم ينفرد بتكوينها أهل بقعة بعينهــا من بلاد العــرب وانما اشترك فى تكوينها المجمــوعة

العربية التى انصبت فى قالب واحـــد وجمعتهم مشاعر واحدة ولغة واحدة وآمال واحـــدة ، ظلت طوال العصـــور سواء اعاش العرب دولة موحدة ام دولا فرقتها احـــداث التاريخ ، النبراس الذى يستضىء به العـــرب وهى القبلة التى يقتبلونها والمنهـــل الذى ينهلون منه جميعا . ولقد عمـــد العـــرب الى نشر رسالة الحضارة والاخاء وتطوير العلوم والمعـــارف جميعا خدمة الانسانية ،وكانت هذه السياســة السمحة الكريمة هى الاساس الذى قامت عليه حضـــارة العـــرب ، وهذا مثال فى التاريخ لم تســبق به اية حضارة اخرى حضارة العرب .

ورغم أن المغرضين من الكتاب الأجانب يقولون أن الحضارة العربية ، ما هى الا حضـــارة ناقلة لم تفعـــل اكثر من نقـــل علوم اليونان ، وهذا فى الواقع ابعـــد ما يكون عن حقيقـــة الحضارة العـــربية التى شغفت كثيرين من ابناء اوربا وامريكا بدراستها .

الا ان التاريخ يؤكد ان الاضافات التى اضافها العـــرب الى علوم اليونان وغيرهم والتحسينات التى ادخلوها عليها بالاضافة الى الاختراعات التى ابتكروها مع حفظهم لروح البحث العلمى حيـــة متحفزة لاستكشافات المستقبل فى عصر عرفته اوربا بعصر الظـــلام ، انما كل ذلك يضفى على الحضارة العـــربية صفة الأصالة والخلق والابداع .

ولكن رغم كل ذلك فان حضـــارة الدنيا الجـــديدة لم تلبث أن تفوقت بعد أن اصيب المسلمون بسبات عميق وفقـــدوا الكثير من مقومات وجودهم لابتعادهم عن جوهر عقيدتهم الاسلامية اى انه يجب أن نخـــرج بنتيجـــة هامة فى ختام مقدمتنا هذه وهى أن الحضارة البشرية ليست ملكا لشعب من الشعوب لان كل شعـــوب العـــالم ساهمت فى صنعها وكانت بطلة فى احـــدى فصولها حتى شعوب افريقيـــا المتهمة بانها فى أدنى الســـلم الحضـــارى ثبت حديثا انه كان لها فى وقت من الاوقات حضارات ضخمة

وانها سبقت الكثير من دول أوربا فى هذا المضمار فى حقبة التاريخ القديمة بصفة خاصة .

والكتاب الذى بين أيدينا صورة لحضارة القرن العشرين والتحول الذى حدث فيه وهو فى حقيقته تحذير للبشرية من كثير من مشكلاتها التى قد تعانيها وقد نجح المؤلف فى عرض جذور كل مشكلة تم التنبيه على الخطر منها راسما كيفية معالجتها .

وهو يحتوى على تسعة فصول ، الفصل الاول يتكلم فيه المؤلف عن التحول العظيم ، الثانى يتحدث فيه عن العلم كأساس لهذا التحول العظيم الذى حدث فى القرن العشرين ، أما الفصل الثالث فانه يحكى عن أهمية العلوم الاجتماعية ، الفصل الرابع يتحدث عن الحروب وكيف انها مصيدة للتطور البشرى ومعوقة للبناء الحضارى ، اما فى الفصل الخامس فهو يتحدث عن التنمية الاقتصادية وكيف انها اختيار صعب للانطلاق ، وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن الانفجار السكانى كمشكلة تعوق الرفاهية وتزيد من حدة الفقر ولا تجعل للتطور معنى ، وفى الفصل السابع يتكلم عن الطاقة الكامنة لدى البشرية وامكانيات عبقريتها وكيف يمكن استثمارها . أما فى الفصل الثامن فهو يتحدث عن دور الايديولوجية فى التحول العظيم ثم يختم كلامه فى الفصل التاسع بالكلام عن الاستراتيجية اللازمة للتحول .

واننى آمل أن أكون قد وفقت فى الاختيار أولا لهذا الكتاب ، كذلك أرجو أن يكون العرض والتحليل والتعليق — فيما يعرف باسم التعريب — قد جاء أمينا مع ما قصد اليه مؤلفه ومتفقا مع ما نؤ من به ومتقابلا مع ما نحس به من أخطار حولنا .

ان هذا الكتاب حقا جدير بالقراءة لانه لا يحمل فقط آلام الماضى

لكل البشرية ، بل ايضـــــا يعطى آمال المستقبل لها فى حيـــاة افضـــل شريطة أن نفهم أن القرن العشرين يحمل للبشرية كل امكانيات التقـــــدم المــــادى وبالتالى فهو فرصة للبناء الافضل لمواطن القرن العشرين .

والله اسأله التوفيق وعليه قصد السبيل .

مصر الجديدة ـــ القاهرة

١٥ مارس ١٩٨٥

محمـــــود متـــولى

الفصل الأول

التحــــول العظيـــم

يعد القرن العشرين بمثابة الفترة الوسطى لتحول عظيـم فى حالة الجنس البشرى . ويمكن أن يسمى — على وجه الدقة — بالتحول الثانى العظيم فى تاريخ البشرية .

فالتحول الاول كان بمثابة الانتقـــال من مجتمع ما قبل التحضر الى المجتمع المتحضر وهو أمر حدث منذ حوالى خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف سنة (*) . وهذا التحول الاول مازال يشق طريقه فى بعض أجزاء من العالم رغم أنه يمكن النظر اليه على انه قد استكمل تقريبا . فمجتمع ما قبل التحضر يمكن العثور عليه الآن فى جيوب صغيرة آخذة فى الاندثار السريع بأماكن نائية ومن المشكوك فيه أن يكون عدد السكان الذين يعيشون حاليا فى مجتمع ما قبل التحضر يزيد على نسبة ٥ ٪ من تعداد السكان فوق الكرة الارضية .

ورغم أن التحول العظيم الاول مازال يقترب من مراحل الاستكمال التام الا أننا نجد أن التحول العظيم الثانى قد خطى فى أعقابه . ويمكن لنا أن نطلق عليه أسم التحول من المجتمع المتحضر الى مجتمع ما بعــد التحضر Post-civilized . ونحن معتادون على اعطاء كلمة حضارة معنى اضافيا مواتيا حتى أن كلمة ما بعد التحضر Post-civilized أو كلمة ما بعد الحضارة Post-civilization قد تبدو متضمنة شيئا ما غير ملائم . لذلك

(*) ينقسم التحول الاول الى قسمين : التحول من العصر الحجرى القـــديم الى العصر الحجرى الحديث عقب ابتكار الزراعة ثم التحول من قرية العصر الحجرى الحديث الى حضارة المدن . وانا افضل الاشارة الى هذين القسمين على أنهما عمليـــة واحدة الا ان بعض البـــاحثين يفضلون الاشارة اليهما على أنهما تحولين منفصلين وفى هذه الحالة يعتبر التحول الحديث هو التحول « الثالث » . انظر الى الصفحات الاولى من الفصـــل الثانى فى هذا الكتاب .

اذا كان هناك تفضيل لاستخدام كلمة مجتمع تكنولوجى او استخدام كلمة مجتمع متطور فليس لدى اعتراض على ذلك . الا ان كلمة ما بعد التحضر تقدم لنا حقيقة هامة وهى أن الحضارة تعتبر بمثابة الحالة الوسطى للانسان الذى يفصل ما بين المليون سنة او نحو ذلك التى عاشها مجتمع ما قبل التحضر عن فترة مماثلة او اطول يتوقع ان تمتد فى اغوار ما بعد التحضر فى المستقبل . وعلاوة على ذلك فهى حالة غير مستحبة بعض الشىء بالنسبة لمعظم الناس الذين يعيشون فيها واختفاؤها يقتضى سكب القليل من الدموع .

ولقد ضاعت أصول التحول العظيم الاول من مجتمع ما قبل التحضر فى غياهب وضباب ما قبل التاريخ اللهم باستثناء تلك التى يمكن التوصل اليها ومعرفتها بمساعدة علم الآثار القديمة . وكلما عرفنا اكثر كلما ازداد تراجع هذه الاصول فى اعماق الزمن على ما يبدو ، ويبدو لنا الآن أن بداية الزراعة واستئناس الحيوانات يمكن اقتفاء اثرها فى مراحل موغلة فى القدم تصل الى ١٠ آلاف سنة على الاقل . والزراعة هى الحالة السابقة على تنمية الحضارة لانه ما أن يبدأ الانسان فى الاستقرار وزراعة المحاصيل واستئناس المواشى والانعام حتى يكون قادرا على انتاج فائض من الطعام يزيد على احتياجات أسرته من الطعام اللازم لبقائها على قيد الحياة . وبالنسبة لمجتمعات الرعى والصيد والقنص وصيد الاسماك فانه يبدو انه كان من الصعب على منتج الطعام أن ينتج اكثر من احتياجاته الشخصية واحتياجات اسرته المطلوبة بصفة مباشرة وعاجلة . ومن الواضح انه فى مثل هذه الظروف لا يمكن ان تنشأ ثقافة حضرية . واذا كان الامر يقتضى اطعام الاشخاص الذين لا ينتجون طعاما فلابد أن يكون هناك فائض طعام يوفره منتج الطعام . ويبدو أن بعض مجتمعات ما قبل التحضر قد شهدت مثل هذا الفائض من الطعام الا ان هذا الفائض دائما ما كان مؤقتا وغير ثابت . ولكى تنشأ الحضارة فانا لامر كان يقتضى ضرورة توفر فائض من

الطعام مستمر وثابت الى حد ما وهو فائض يزيد على احتيـاجات المنتج للطعـام .

ولكن مجرد تواجد فائض من الطعام وهو الشرط الاساسى لوجود الحضارة لا يؤدى بالضرورة الى ظهور الحضارة لأن الفائض من الطعـام قد « يتبدد سدى » فى اوقات الفراغ أو فى الانشطة غير المنتجة . فلكى تنشأ المدن الصغيرة والكبيرة لابد أن يكون هناك جهاز تنظيمى من نوع ما يتم بمقتضاه الحصول على الفائض من الطعام من منتج الطعام وتجميـع هذا الفائض من الطعـام فى مكان واحد لكى يتعيش عليه الملوك والقساوسة والجنود والبناءون والحرفيون والصناع فى المجتمع الحضارى . وهنا أؤكد أن ابرز المعالم الرئيسية للحضارة هى المدينة الكبيرة : City . وهذا ما يوحى به اشتقاق كلمة حضارة Civilization من كلمة مدينة City ويبدو أن المدينة فى اقدم اشكالها كانت نتاجا لنظام ما من انظمة القهر الاجبارى . فالزراعة تقدم الفرصة ولكن يبدو أنها فى المراحل الاولى على الاقل تتخـذ شكلا ما من أشكال القهر لاغتنام الفرصـة . وربما كانت الاشكال الاولى للقهر ذات طابع روحانى لأن هناك بعض الشواهد التى تدل على أن اقدم المدن كانت تدار بمعـرفة حكومات دينيـة . اذ تنشـأ الكهنوتية التى تطالب بفرض الاحتكار على القوى الطبيعية الهائلة التى يفترض فيها انها تتحكم فى شئون الانسـان وفى خصـوبة المحاصيل والماشية والانعـام . فالقسيس عندئذ يكون قادرا على انتزاع الطعام من منتج الطعام وذلك عن طريق التهديد بحرمانه من مساعدة هذه القوى الطبيعية الهائلة . الا أن الاسلوب القهرى الذى يمارسه القسيس يرتكز الى حد بعيد على الخداع لأن القسيس لا يسيطر بالفعل على القوى التى تجعـل المحاصيل تنمو . وعنـدما يتوقف القسيس عن الحث على الاعتقـاد بقـواه وسلطانه الوهميـة فان النظـام القهـرى الروحى يحل محله على ما يبدو نظام قهرى مادى اشد وطأة متمثل فى شكل ملك وجيش . وفى العزلة يكون هذا

النظام راسخا الى حد ما لانه عندما يكون لدى الملك وسائل عنف كافيــة فانه يستطيع تهديد منتج الطعام وارغامه على التخلى عن الفــائض من الطعام . وبهذا الفائض من الطعام يستطيع الملك اطعــام جيشه وبذلك يتمكن من تدعيم التهديد اذا لزم الامر . وما تبقى من طعام عقب اطعــام الجيش يقدمه الملك لاطعام المهندسين المعماريين والبنائين والقســاوسة والفلاسفة وغير ذلك من الزخارف الاخرى للحضارة . وفى هذه المرحلة كثيرا ما يكون تحالف بين الملك والقسيس وتدعم التهديدات المادية والروحيــة بعضها البعض . الا أن الاساس الاقتصادى الذى ينبت عليه الحضــارة التقليدية القديمة كان ضئيلا فى جميع الاحوال والامكنة . فجميع المجتمعات الحضارية التى نشأت سواء فى سوميريا Sumeria أو مصر او اليونان أو روما أو الصين أو الانكا Incas أو المايان Mayans كانت قائمة على على فائض الطعام الناجم عن منتج الطعــام والذى نادرا ما كان يزيد على ٢٠٪ أو ٢٥٪ من مجموع الانتاج الكلى . وفى هذه الظروف لابد أن يكون عدد السكان المنتظمين فى مجال الزراعة يتراوح ما بين ثلاثة أرباع الى أربع أخماس من العدد الاجمالى للسكان، وكان هؤلاء الزراع ينتجون قدرا من الطعام يكاد يكفى الربع الباقى أو الخمس الباقى من السكان المقيمين فى المدن وفى الجيش . فجميع المدن تقريبا ذات الحضارة التقليدية الكلاسيكية قد تعرضت فى أى وقت من الاوقات لمواجهة الموت جوعا خلال اسابيع قليلة ، وكان اى تدهور قليل نسبيا فى الاوضاع العامة أو فى وسائل النقل او فى أوضــاع السلام والحرب يكفى لتقويض الاوضاع المستقرة للحياة المتحضرة . وانا لم اتوصل على الاطلاق الى معرفة أى شكل من اشكال التوقعات للحياة فى المدينة فى حد ذاتها تحت ظروف الحضارة الكلاسيكية الا اننى سأندهش اذا اتضح أن هذا يزيد على ٣٠٠ سنة .

وربما لا تكون اصول التحول العظيم الثانى فى مثل غموض اصــول التحول العظيم الاول الا أن هناك العديد من المسائل المحيرة التى تكتنف تلك

الاصول والتى لم يبت فيها برأى . فعبر تاريخ الحضـــارة يستطيع المرء اكتشاف تيار من المعرفة والتنظيم آخذ فى التصاعد ببطء وله نوعية مختلفة عن تلك الخاصة بالمجتمع المحتضر حوله . فعلوم الفلك فى بابل وعلم الهندسة لدى الاغريق والجبر عند العرب تمثل على ما هى عليه مقدما فيضان المعرفة الهائل والتغير التكنولوجى العظيم الذى جاء بعد ذلك . ويبدو ان بعض الامبراطوريات القديمة بل والامبراطورية الرومانية ذاتها كانت راكدة من الناحية التكنولوجية ومتخلفة علميا . واذا ما اراد المرء البحث عن بداية الاعمال المتواصلة لتنمية العلمية والتكنولوجية فانه يمكنه الرجوع الى حركة الرهبنة فى الغرب فى القرن السادس بعد الميلاد وخاصة اتباع القديس بنيديكت Beneditines . فهنا ولأول مرة تقريبا فى التاريخ يكون هناك مثقفون In tellecuals يعملون بأيديهم وينتمون لدين يعتبر العالم المادى مقدسا وقادرا على الاحتفاظ بالخير . لذلك فان بدء الاهتمام بتدبير العمالة وبتوسيع قواها الانتاجية فى الأديرة يعتبر امرا لا يدعو للدهشة وان كان ذلك الاهتمام كان يسير بخطوات بطيئة . ويمكن لنا أن نلحظ اعتبارا من القرن السادس تصاعدا توسعات بطيئة فى التكنولوجيا . فالدولاب المائى (الساقية) ظهر فى القرن السادس والمضخة اليدوية الصغيرة Stirrup ظهرت فى القرن الثامن والطوق الخاص بعنق الحصان والدفة ظهرت فى القرن التاسع والطاحونة الهوائية ظهرت فى القرن الثانى عشر وهكذا . وبالنسبة لأوربا كان اختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر بمثابة انطلاقة لا رجوع فيها . لأنه ابتداء من هذه النقطة تصاعدا ازداد انتشار المعلومات بسرعة هائلة . وشهد القرن السابع عشر بداية العلم . وشـــهد القرن الثامن عشر اسراعا هائلا فى التحول التكنولوجى لدرجة أنه سمى بالثورة الصناعية وان كانت هذه التسمية تنطوى على قدر من التضليل الى حد ما . وشهد القرن التاسع عشر تطوير العلم كتنظيم اجتماعى مستمر . أما القرن العشرين فانه يشهد نهضة كبرى فى البحوث والتنميات مصحوبة بزيادة هائلة فى معدل التغير لكل من المعلومات والتكنولوجيا . وينبغى أن نؤكد على

أن معدل التغير مازال آخذا فى التزايد السريع على ما يبدو . وربما لا نكون قد وصلنا الى منتصف العملية التى نمر بها ، ولا توجد هناك بالتأكيد اية دلائل تشير الى أن معدل التغير قد اخذ فى التباطؤ . ومن الواضح على ما يبدو أننا نقترب على سبيل المثال من بداية ثورة بيولوجية قد تحـدث تأثيرات على الجنس البشرى لا تقل دراميا عن نتائج الثورة النووية التى حدثت منذ جيل مضى .

وسوف تشير دلائل قليلة على مدى اهمية التغير الذى نمر به الآن . فكر مليا — على سبيل المثال — فى أوضاع الزراعة فى أعظم المجتمعـات تطورا فى هذه الايام فنحن قد رأينا أن ٧٥٪ على الاقل من عدد السكان فى كافة مجتمعات الحضارة الكلاسيكية بل ونسبة اعلى من ذلك فى كثير من الاحيان كانوا منخرطين فى الاعمال الزراعية ومع ذلك كانوا ينتجون كميات لاتكاد تكفى احتياجاتهم واحتياجات نسبة الـ ٢٥٪ الباقية التى تعيش فى المدن . وحتى فى الولايات المتحدة الامريكية أثناء الثورة الامريكيـة (١) أشـارت التقـديرات الى أن حوالى ٩٠٪ من السكان كانوا منتظمين فى الزراعة أما اليوم فاننا نجد أن ١٠٪ فقط من مجمـوع السكان بالولايات المتحدة يشتغلون بالزراعة واذا استمرت الاتجاهات الحالية فانه لن ينقضى وقت طويل قبل ان تتمكن من انتاج كافة الطعام الذى تحتاجه باشتغال ٥٪ من السكان أو حتى نسبة اقل من ذلك فى مجال الزراعة . والسبب فى ذلك أن المزارع الواحد واسرته باستطاعته بواسطة الوسائل الفنية الحديثة أن ينتج طعاما يكفى لاطعام عشرة عائلات او عشرين عائلة بل وثلاثين عائلة . وهذا يتيح المجال أمام أكثر من ٩٠ ٪ من عدد السكان للعمل فى مجـالات اخرى وانتاج السيارات والمنازل والملابس وكافة وسائل الراحة الضرورية ووسائل الترف بالاضافة الى انتاج القذائف والاسلحة النووية .

وهناك دليل آخر يدل على ضخامة التحول الحالى وهو أن الوقت الذى يقسم تاريخ البشرية الى جزءين متساويين يقع فى داخل الذاكرة الحية

تماما وذلك فيما يتعلق بالمجموعات الاحصـائية العديدة الخاصة بانشطة الجنس البشرى . فبالنسبة لحجم وعدد المطبوعات الكيمائية فان هذا الوقت هو عام ١٩٥٠ تقريبا . وبالنسبة للمجموعات الاحصائية المعددة عن كميات المعدن أو المواد الاخرى المستخرجة فان هذا الوقت هو عام ١٩١٠ تقريبا . بمعنى أن الانسان استخرج من المناجم قبـل عام ١٩١٠ كميـات مماثلة لما استخرجه عقب عام ١٩١٠ . وهناك حقيقة مذهلة اخرى . هو أن ٢٥٪ تقريبا من الآدميين الذين عاشوا فى أى وقت هم الآن احيـاء بل ومما يثير الدهشة اكثر أن حوالى ٩٠٪ من مجموع العلماء الذين عاشوا فى أى وقت هم الآن احيـاء . ومذ أيام سـألنى ابنى البـالغ من العمر ثمـانى سنوات « يا والدى . هل انت قد ولدت فى الازمنة القديمة ؟ » . ومثل هذا التساؤل يجعل الأب يشعر فجأة انه فى المرحلة الوسطى من العمر . وربما ينطوى تعليقه على حقائق تفوق ادراكه . فالتغييرات فى حالة الجنس البشرى منذ يوم مولدى تعتبر اضخم بكثير من جميع التغييرات التى حدثت خلال الآلاف العديدة من السنين قبل هذا التاريخ .

وهناك دليل آخر يدل على ضخامة التحول : وهو المقدرة الفـائقة الحديثة على استعادة أوضاعها الطبيعية عقب الكوارث . ففى عام ١٩٤٥ على سبيل المثال تعرضت العديد من المدن الكبرى فى المانيا واليابان للدمار الشامل ولكنه من الصعب الآن القول بأن هذه المدن قد تعرضت للدمار فى أى وقت من الاوقات ، حيث اعيد بناؤها وتعميرها فى فترة زمنيـة محددة تقل عن عشرين عاما . ولقد استعادت أوربا الغربية أوضاعها بعد ٣٠٠ عام عقب سقوط الامبراطورية الرومانية (٢) ، واستعادت المانيا اوضاعها بعد عشرات من السنين عقب حرب الثلاثين عاما (٣) (١٦١٨ — ١٦٤٨) . فمن مميزات الزمن الحالى التى تدعو للتفاؤل انه رغم قوى التدمير الهائلة تزايدت قوى البناء والاصلاح بشكل هائل .

والتحول العظيـم ليس فقط مجـرد شىء يحـدث فى مجـال العلم

والتكنولوجيا والجهــاز التنظيمى الفيزيقى للمجتمــع واستخدام الطــاقة التكنولوجيا تؤدى الى تغييرات فى المؤسسـات الاجتماعية . ففى هذا العالم الطبيعية . ولكنه أيضا تحول فى المؤســسات الاجتمــاعية . فالتغييرات فى البالغ التعقيد ذات المؤثرات الاجتماعية المتبادلة لا يمكننا القول ببســاطة ان تغييرا ما يؤدى الى ظهور تغيير آخر ولكننا يمكن أن نقول أن التغييرين يحدثان تأثيرات متبادلة هائلة وكلا المظهرين من مظــاهر الحياة البشرية يتغيران سويا . مثال ذلك انه سبق أن قيل أن اختراع الدفة وتحســين فنون الملاحة وبناء السفن الذى حدث فى أوربا فى القرن الخامس عشر قد ادى حتما الى اكتشاف أمريكا بمعرفة الاوربيين (٤) . وكما قال احد تلاميذ المدارس « كيف لم يفطن كولومبوس (٥) الى هذا ؟ » . فما أن أصبح بالامكان الابحار غربا لمسافة ٣٠٠٠ ميل فى خط مستقيم حتى صار اكتشاف أمريــكا بمعرفة الاوربيين امرا حتميا بالفعل ، وهذا الاكتشاف بالطبع قد زاد من آفاق وفرص هذه المجتمعات الاوربية زيادة هائلة .

ومن ناحية أخرى نجد أن المجتمعات التى كان لها قصب السبق فى اكتشاف أمريكا لم تربح الكثير فى النهاية من وراء هذا الاكتشــاف . فأسبانيا والبرتغال حصلتا على امبراطورية عظمى وتضخم مالى كبير نوعا ما ولكنها اصيبتا بالركود نتيجــة لذلك لان مؤسســاتها الاجتماعية فشلت فى التكيف والتوافق (٦) .

كذلك ذهب آخرون فى مجادلاتهم الى ان اكتشــاف طوق الحصان قد ادى فى النهاية الى الغاء العبودية ، على الاقل فى صورها المتطرفة ، لأن الحصان أصبح — عقب استخدام طوق الحصان — مصدرا للقوة الحيوانية اكثر كفاءة من القوة البشرية والعبد من حيث هو مصــدر بسيط للقوة لم يستطيع المنافسة مع الحصان (٧) . وقد يبدو أن طوق الحصــان اختراع واضح للغاية حتى ان المرء لا يكاد يصدق أن البشرية ظلت تفكر فيه حتى

حلول القرن التاسع . بل ومن الواضح أن الرومان لم يستخدموا طوق الحصان وان الحصان الروماني كان يوضع حول عنقه حبل يشبه الى حد ما الانشوطة مما كان يقلل من كفاءته الى حد كبير . ولقد ادى الربط بين طوق الحصان وبين تطوير نظام الثلاثة حقول Three fields system الى تحسين كبير فى وسائل الزراعة فى أوربا فى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر فكان هذا بمثابة الاساس الذى بنيت عليه الانجازات الثقافية والمعمارية فى العصور الوسطى المتأخرة ولكن هنا مرة أخرى نجد أن المؤسسات الاجتماعية فى المجتمعات الاقطاعية والاستبدادية قد ادت الى تجميد الوضع التكنولوجى حتى أن المزيد من التقدم فى مجال الزراعة لم يحدث الا بعد أن تفككت المؤسسات فى العصور الوسطى أو على الاقل بعد أن أصابها الضعف والوهن بسبب التضخم المالى الذى جاء فى أعقاب تدفق الذهب الاسبانى الوارد من العالم الجديد . وقد ادى تصاعد المذهب البروتستنتى وانهيار المجتمع الانتقالى القديم الى ظهور موقف فى هولندا وفى انجلترا يبشر بظهور الابتكارات مرة أخرى ، ونبعت الثورة الزراعية فى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر عن تطوير الخضروات التى تؤكل جذورها وعن استخدام المحاصيل الى تزرع بين صفوف محصول معين على أرض متروكة بدون زراعة لاراحتها ، وعن بذر بذور الاخشاب الصناعية . وهذا التحسن فى الزراعة ، على الاقل فى انجلترا والاراضى المنخفضة فى أوائل القرن الثامن عشر قد أرسى الاساس لتزايد الفائض من الاطعمة اللازمة للمدن الصناعية التى ظهرت فيما بعد .

ان الابتكار الاجتماعى للديموقراطية البرلمانية قد سمح للمجتمعات بالتطور فى مزيد من التنوع وتوزيع السلطة عما كان عليه الحال فى الملكيات المطلقة المبكرة ، ونهضة العلم الحديث مرتبطة ارتباطا وثيقا بتنمية المؤسسات الديموقراطية والتعددية التى من هذا القبيل . اذ لم يكن بالمستطاع أن تنشأ — على سبيل المثال — فى الصين الامبراطورية أو اليابان

الاقطاعية . وليس من قبيل المصادفات أن تزداد سرعة نمو وتطور العلم فى أوربا الغربية عقب الثورة الفرنسية (١٠) . ومن الواضح انه يجب علينا أن ننظر بعين الاعتبار الى العلم الخالص والتغير التكنولوجى والابتكار الاجتماعى على أساس أنها أجزاء لنموذج واحد للتنمية يساند كل عنصر فيها العنصر الآخر . وقد يقول البعض أن المؤسسات الاجتماعية فى الحقيقة تلعب دورا يتسم بالسلبية أكثر مما هو يتسم بالايجابية وذلك لأنها بمقدورها أن تعوق التغير العلمى والتكنولوجى ولكنها لا تستطيع ابتكاره . الا ان هذا الافتراض يجب الآن الارتياب فيه . فالبحث العلمى المنظم والتنمية هما أساسا ابتكار اجتماعى أسفر عن زيادة هائلة فى خطوات التغير التكنولوجى .

ومن حيث العلاقات المتبادلة بين التغير الفنى والتغير السياسى فانه يمكن القول — على سبيل المثال — ان التقدم فى التكنولوجيا فى ظل البحوث والتطوير المنظم هو الذى أدى الى الغاء الاستعمار بطريقة فعالة وناجحة . فالحضارة القديمة — كما رأينا — كانت ترتكز بشدة على أسس القهر والاكراه . اذ كان الامر يقتضى ارغام منتج الطعام على تسليم الفائض من الطعام الى الملك أو القسيس لأن كلاهما لم يكن ينتج شيئا ما بحيث يمكن تبادله مع الفائض من الطعام . والمدينة القديمة هى الى حد كبير أداة للاستغلال وينبغى أن ينظر اليها على أنها متطفلة على منتج الطعام . ولكن الامور فى العالم الحديث مختلفة . فمنذ ان ظهر التطور فى المجتمع الصناعى ، نجد ان التبادل حل محل القهر كوسيلة رئيسية للتنظيم الاجتماعى رغم أن القهر والتهديد باستخدام العنف مازالت له اهمية كبرى فى العلاقات بين الدول القومية . ولكن مع مجيىء العلم والتكنولوجيا فانه من الانصاف أن نقول أنه باستطاعتنا أن نحصل على عشرة دولار من الطبيعة فى مقابل كل دولار واحد يمكن استخراجه من الانسان . وتحت هذه الظروف تكون المغامرة الامبراطورية أو القهر السياسى هى بكل بساطة استثمار ذو عائد منخفض كثيرا عن الفائض الناجم عن الاستثمار تحت ظل العلم التطبيقى والتقدم التكنولوجى فى داخل الوطن . وتبدو لنا هذه الحقيقة بوضوح شديد فى حالة البرتغال على سبيل المثال . فالبرتغال الحديث كان

لديها اكبر امبراطورية بالنسبة لعدد سكانها (١١) وفى نفس الوقت لديها اقل دخل فى اوربا حسب عدد الافراد بها . وعلى العكس من ذلك نجد ان الدول الاسكندنافية وسويسرا التى قد احجمت عن المغـامرات الاستعمارية قد احرزت تقدما اقتصـاديا يفوق التقـدم الذى احرزته الدول الامبراطورية الاستعمارية . فالالغـاء المتزايد للامبراطورية من جانب البريطـانيين والفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين لا يعكس تغيرا فى النفوذ فى داخل هذه الدول بقدر ما يعكس اعترافها بأن الامبراطورية لا تفيد فى نهاية الامر فى ضوء قيم المجتمع الحديث .

وغالبا ما تحدث الابتكارات الاجتماعية فى هدوء وسلاسة شديدة وبطريقة طفيفة لا يدركها المرء الا فيما ندر ولذلك فان تاريخ الابتكار الاجتماعى مازال حتى الآن بحاجة لان يدون ويكتب (١٢) . فعلى سبيل المثال : من الذى اخترع فكرة المصافحة باليد hand shake ؟ وكيف اننا انتقلنا من مجتمع كان كل فرد فيه ينتقل من مكان لآخر وهو مدجج بالسلاح الى مجتمع حققنا فيه تقريبا نزع كامل لسلاح الافراد ... مجتمع تكون فيه العلاقات الانسانية محكومة بواسطة الادب والاصول المرعية المتعارف عليها ، وبواسطة تلطيف وسائل الاتصال والى حد كبـير عن طريق وسائل الصراع الخـالية من العنف ؟ والاهم من ذلك كله . كيف تحدث التغييرات فى تربية الاطفال ؟ فهذه ربما تعتبر اهم الابتكارات الاجتماعية واكثرها اصالة وجوهرية .

وكجزء من العملية المستمرة للابتكار الاجتماعى فان التحول الكبـير ينطوى على تغييرات فى مظاهر الحياة الاخلاقية والدينية والجمالية بقدر ما هو ينطوى على تغييرات فى معلوماتنا واستخدام العالم الطبيعى . فهو على سبيل المثال يتضمن تغييرا فى طبيعة الاسرة وفى انماط تربية الطفل . فالمجتمع المتحضر بوجه عام يتميز بالعائلة الموسعة extended family وبالولاء الشديد للاقارب kinfok وبطرائق تربية الطفل التى تنطوى بوجه عام على انتقـام غير متكامل من طفـولة خاليـة من القيـود وخاضعة للاجراءات الوقائيـة الى طفولة يسودها التفويض ونظم الحكم غير المتعة . ولدى انتقالنا الى مجتمع ما بعد التحضر فاننا نجد ان الولاء

يمتد من مجموعة الاقارب الى مساحات ارحب مثل الدولة القومية أو حتى الولاء للعالم بصفة عامة . فبنيان الاسرة والتنظيم الحى يميل الى الانتقال من جماعة الاسرة الموسعة والعائلة الكبيرة الى الاسرة النواة المكونة من الابوين والاطفال . ونجد ان ممارسات تربية الطفل التى قد تكون متوائمة مع مجتمع تكون فيه أعراض التهديد عامة ويكون فيه العدوان من الامور التى تنتج ربحا قد أصبحت متوائمة تواؤما مع مجتمع تحـل فيه فنـون المناورات الشخصية محل أشكال العدوان الاشد عنفا . لذلك فاننا نجـد تحولا فى طرائق تربية الطفـل من تلك التى تنتج الشخصيات الاستبدادية التى تعتبر من المعالم المميزة للمجتمعات المتحضرة الى تلك التى تنتج اشخاصا اكثر مرونة وتوافقا واكثر دهاء ومهارة .

وتجرى أيضـا تغييرات جذرية فى طبيعة الاسرة وسلوكها بواسطة الثورة الصحية التى تعتبر هى أيضا جانبا من التحول . ففى المجتمع المتحضر تكون الوفيات مرتفعة ولذلك تكون هناك حاجة لمعدل مواليد مرتفع . ويمكن للمجتمع المتحضر ان يكون فى حالة توازن مع معدلات المواليد والوفيات بين ثلاثين واربعين لكل الف وتوقع مماثل للحيـاة بين ثلاثة وثلاثين وخمسة وعشرين . وانها لمسألة حسابات مبسطة من حيث ان السكان المتوازنين الذين تكون لديهم معدلات الوفيات ومعدلات الميلاد متساوية . يكون مستوى معدلات الميلاد والوفيات هو التبادل البسيط لمتوسط العمر لدى الوفاة . وفى المجتمع المتقدم فى هذه الايام يكون متوسط العمر لدى الوفاة هو حوالى سبعين ،ولكى يكون مثل هؤلاء السكان فى توازن فان معـدل الوفيات والمواليد ينبغى أن يكون حوالى اربعة عشرة . ولكى نوضح الامر بأسلوب مختلف بعض الشىء نقول :لو أن جميع الاطفال عاشوا فى بلوغ سن الرشد ولو أن جميع السكان تزوجوا وعندئذ فان متوسط عدد الاطفال فى الاسرة الواحدة لا يمكن أن يزيد على اثنين اذا كنا نريد أن يكون عدد السكان ثابتا . وهذا أيضا يعنى ضمنا أن متوسط المواليد لدى كل أسرة لا يزيد على اثنين . وهذا ينطوى على تغير كبير فى الاتجاه نحو الاطفال بل وربما نحو الجنس . الا أن هذا يعتبر جزءا اساسيا من التحول . فاذا لم يتم هذا الجـزء من التحول فان الباقى لا يمكن أن يتم اللهم الا اذا تم كوضع مؤقت وغير ثابت .

ويتضمن التحول العظيم ايضا تغييرات عميقة فى طبيعة الدين والايديولوجية . . ففى المجتمع الذى يكون فيه الدين مرتبط بالاعتقاد بأن الروح هى المبدأ الحيوى المنظم للكون بالاضافة الى الاعتقاد فى السحر ، نجد أن تغييرات السلوك اللازمة للتحول العظيم لا يمكنها أن تحدث الا فيما ندر . فاذا اعتقد الانسان أن الاشياء الطبيعية مثل الحجارة والرياح والامطار والمحاصيل تحركها ارادات استبدادية فانه اما أن ييأس من تطويع الطبيعة لصالح منافعه الخاصة به واما أنه سيحاول أن يفعل هذا بنفس الاسلوب الذى يحاول به تطويع زميله الانسان — أى عن طريق محاولات تهدف الى الاتصال الفعلى أو الرمزى ، فى شكل الرقى والتعاويذ والطقوس . فالاتجاه العلمى والتكنولوجى نحو العالم المادى يصبح ممكنا اذا حل محل المذهب الروحانى اتجاه يعتبر الارادة هى الشىء الجوهرى الوحيد الذى تمتلكه عقول ونفوس الرجال وليس الاشياء الطبيعية التى لا حياة فيها . لذلك فانه ليس من قبيل المصادفات أن التحول العلمى بدأ فى أوربا الغربية(١٢) حيث كان الدين السائد هو التوحيد الاخلاقى الذى كان يميل الى تركيز الاعمال الروحية باكملها فى عمل كنسى واحد للجماهير كما هو الحال فى المسيحية الكاثوليكية ، أو التوحيد الاخلاقى الذى انكر حتى هذا الجزء المتبقى الظاهرى من المذهب الروحانى عن طريق التركيز على أن تنفيذ ارادة الله تحدث اساسا فى نفوس الناس كما هو الحال فى المسيحية البروتستانتية (١٣) .

بل اننا قد لا نرجع نجاح الشيوعية الالحادية فى تدعيم التنمية الاقتصادية وتقوية الاتجاه نحو مجتمع ما بعد التحضر الى عقائدها المحددة بقدر ما نرجعه الى الحقيقة التى مفادها ان الشيوعية الالحادية هى أداة لتقويض مذهب الروحانية البدائى وأداة لاستبدال الايمان بالطبيعة الاستبدادية العنيدة للعالم المادى بالايمان برسوخه واستقراره ونظامه المنسق (١٤) . وسواء أكان هذا الرأى بمقدوره فى نهاية الامر تلبية الاحتياجات الروحية للانسان أم لا فهذه مسألة اخرى تماما . ومن الواضح أن التحول العلمى والتكنولوجى متوافق مع العديد من مختلف الآراء عن الطبيعة النهائية للكون ، اذا كانت كلها تتضمن ايمانا بالنسق والنظام السائد فى العالم الطبيعى وايمانا

بمقدرة الانسان على ادراك هذا النسق وتسخيره لمصلحته الخاصـــة به وايمانا بعمليات التعلم التى تحتوى على التجربة المباشرة ولا تحتوى على مجرد تقبل التقليد المتناقل عن الآباء والاجداد .

ورغم أن الحضارات المختلفة (١٥) التى نجمت عن التحول العظيم الاول كان لديها الكثير من الامور المتشابهة الا أنها أظهرت تباينات عظمى . يكفى للمرء أن ينعم النظر فى مصر القديمة وبابل وبلاد الاغريق وروما واوربا فى العصور الوسطى medieval والصين . ويبدو ايضا ان التحول العظيم الثانى لن يؤدى فى القريب العاجل على الاقل الى ثقافة عالميـــة موحدة وانما سيؤدى الى مجموعة متباينة من الانماط الثقافية ولكن كل ثقافة منها تعرض تكنولوجيات ومستويات لادخل متشابهة للغـــاية . الا انه من المحتمل أن يكون مجتمع ما بعد التحضر اكثر اتساقا مما كانت عليه المجتمعات المتحضرة نظرا لأن طرائق ووسائل مجتمـــع ما بعد التحضر اقل ارتبـــاطا بالجغرافيا واقل ارتباطا بالثقافة الماضية . فنحن نلحظ هذا — على سبيل المثال — فى المطارات الجوية بالعالم . فالسفر بالطائرة هو أحد العلامات التى يتميز بها مجتمع ما بعد التحضر والمطارات متشابهة الى حد بعيـــد سواء أكانت هذه المطارات موجودة فى بانجكوك او فى شيكاغو . كذلك نجد أن مصـــانع الصلب متشـــابهة للغـــاية ســـواء اكانت فى فولتـــا ردوندا Volta Redonda بالبرازيل أو فى برمنجهام أو فى الاباما أو فى الهند . وبقدر ما كانت الحضارة قائمة على الزراعة فان الاساس الطبيعى ادى الى فوارق شاسعة . فالزراعة فى دلتا النيل مختلفة للغاية عن زراعة حقول القمـــح فى الاستبس والبرارى وهذه الاخيرة مختلفة عن زراعة الارز فى آسيا . لذلك كان علينا أن نتوقع أن الحضارات القائمة على الزراعة ستقدم لنـــا اشكالا ثقافية وتكنولوجية مختلفة تماما . ولقد اشار البرفسور ويتفوجيل Witt foget * الى ان المؤسسات السياسية والاجتماعية فى المجتمع المتحضر

---

* Karl A. with fogel, Oriental Despotism, New Haven conny yale University Press 1957.

مرتبطة ارتباطا وثيقـا بنموذج الزراعة الذى تستمد منه فائض الطعام ، لاسيما وان الزراعة التى تتطلب اشكالا عامة على نطاق واسع ووسـائل للرى مثل الزراعة فى مصر القديمة والصين من المتوقع لها أن تطور وتنمى مجتمعات خاضعة للسلطان والنفوذ على نحو يفوق السلطان فى المجتمعات القائمة على الزراعة التى تعتمد على ملكيات الفلاحين الصغيرة فى الاراضى الرطبة التى لا تحتاج لاشغال عامة كبيرة لزوم انتاج الطعام . بل وحتى فى مجتمعات ما بعد التحضر نجد أن مزارع مختلفة عن حقول القمح وتنتج نوعا مختلفا من الثقافة . ولكن الجرار هو نفس الجرار تقريبا فى كل مكان تماما مثلما أن السيارات والمصانع هى نفس السيارات والمصانع فى كل مكان ، وهذا من شأنه أن يفرض — على الاقل — اتساقا على الثقافة التكنولوجية للعالم وهو أمر لم يشهده العالم من قبل .

هذا بالاضافة الى ان وسائل النقل السريعة السهلة السائدة فيما بعد التحضر يزيد من صعوبة الابقاء على سمات الثقـافة فى عزلة . لقد كان بمقدور الحضارات ان تزدهر فى نفس الوقت على الارض التى كانت لهـا علاقات قليلة او منعدمة العلاقات مع بعضها البعض . فمن المؤكد أن حضارة المايان Mayan لم يكن لها أى اتصال مع روما ، وروما كانت لها علاقات ضئيلة للغاية مع الصين . فالانتقال الحضارة ربما كان يتحقق فى ثلاثة مواقع على الاقل قائمة بذاتها او ربما فى اكثر من ثلاثة مواقع منفصلة عن بعضها رغم أن هذه الاصول تعتبر غامضة للغاية لدرجة اننا لا نستطيع ان نتـأكد من هذا . الا انه اصبح الآن من السهل قطع المسافات حول منتصف العالم بنفس سهولة الذهاب الى مدينة صغيرة مجاورة ، وتحت هذه الظروف نجد ان عملية هائلة من الخلط الثقافى تتم وهى عملية من الصعب ان تنتج فمن المشكوك فيه أن تظهر لغة عالمية واحدة فى المستقبل القريب ولكن من المؤكد أنه أصبح من الصعب بالنسبة لازياء الملابس والمسكن ووسائل الترفيه

الجماهيرية ووسائل النقل والمواصلات أن نميز منطقة عن منطقة أخرى في العـالم .

وهناك فارق هام من المحتمل أن يظل قائما لفترة طويلة . وهو الفارق بين المجتمعات التى تحدث التحول تحت ظل المؤسسات الديموقراطية والرأسمالية وتلك المجتمعات التى تحدث التحول في ظل مؤسسات الاشتراكية الشمولية . ومن المؤكد انه يبدو انه بالامكان تنفيذ التحول التكنولوجي تحت ظل المجموعتين من المؤسسات . وهذا يثير على المدى القصير العديد من المشاكل ويزيد بدون شك من مخاطر الحرب واحتمالات عدم حدوث التحول . الا أن هذا — من المنظور الطويل للتاريخ — قد يتضح انه كان حادثة سعيدة اذا كان هذا في الواقع بمثابة حادثة . وقد يتضح أن من اكبر مشكلات مجتمع ما بعد التحضر هو كيفية الحفاظ على قدر كاف من المميزات والفوارق الانسانية وكيفية منع الانتشار العام للاتساق الممل الرتيب . ان التغير الثقافي والتنمية الثقافية في جميع الازمنة قد حدث في معظم الاحوال كنتيجة للتفاعل بين الثقافات التى سبق أن تطورت في معزل عن بعضها البعض . وهذه ظاهرة تعتبر مماثلة الى حد ما لتنمية تنوعات الهجين في النباتات والحيوانات . ولكن اذا كان علينا أن نحصل على حيوانات مهجنة فانه ينبغى أن تكون هناك سلالات نقية محتفظ بها لكى يتم التهجين بينهما . فقوة البغل وخصوبة القمح المهجن كان سيتعذر تحقيقهما لو أن السلالات الاصلية التى اشتق منها هذا الهجين لم يحتفظ بهما في عناية . ونفس الشىء ينطبق على الثقافات : فاذا كان علينا أن نحصل على ثقافات مهجنة ، فانه يجب الحفاظ على الثقافات النقية التى تشتق منها الثقافات المهجنة وقد يكون من الصعب الحفاظ على الثقافات النقية الخالصة في عالم تتوفر به سبل المواصلات السريعة السهلة . لذلك فان الامور التى قد نعتبرها الآن كمصادر للصراع والتفرقة قد تصبح في النهاية من قبيل « رب ضارة نافعة فاذا استطاعت الثقافة الاشتراكية وثقافة السوق الحرة (١٦) السير في طريق التطور جنبا الى جنب بدون صراع حتى حتمى ،

فان تفاعلهما المستمر قد يكون مفيدا لكلا الجانبين . بل ان تنمية العقائد الدينية والثقافات الفرعية المعزولة عن العالم بسبب ايديولوجية قد تبدو غير مقبولة عقلا يمكن أن تصبح فى النهاية وسائل مفيدة للغاية فى الحفاظ على تنوع اشكال الجنس البشرى .

وقد تكون أصعب المشكلات الخاصة بالتنوع والاتساق هى مشكلة مستقبل الاجناس المختلفة . فالاجناس البشرية المختلفة تنجذب جنسيا نحو بعضها البعض بالقدر الكافى لدرجة أنه فى حالة عدم وجود اية عوائق جغرافية أو ثقافية أمام الخلط الوراثى فانه من المحتمل جدا أن يصبح الجنس البشرى خلال بضعة آلاف قليلة من السنين متسقا عنصريا ، حيث ستتلاشى الى حد بعيد الفوارق الموجودة بين الاجناس البشرية . وقد يكون هذا أمرا مرغوبا فيه للغاية وذلك من وجهة نظر بعض الآراء . فمن المؤكد أن هذا سيقضى على بعد المشكلات الخاصة بالصراع بين الاجناس البشرية وهى مشكلات معظمها ثقافية وليست بيولوجية . ولكننا نعرف القليل للغاية عن علم الوراثة البشرى وخاصة فيما يتعلق بالجانب الايجابى للقوى التى تؤدى الى الجودة والتفوق الوراثى ولذلك فانه من المستحيل الآن أن نتنبأ بما قد ينظر اليه على انه يتعلق بتحسين النسل فى المستقبل . وكانت حركة تحسين النسل فى القرن التاسع عشر قائمة على معلومات غير كافية عن علم الوراثة البشرية ولذلك لم تتقدم هذه الحركة ولم تحرز نجاحا ملحوظا . ونحن اذا تمكنا من التوصل الى معلومات اكثر دقة من العوامل الوراثية التى تؤدى الى التفوق والتجويد البشرى للعقل والجسم فان النتائج قد تكون هائلة بالنسبة للمبادىء الاخلاقية ولجميع العلاقات الاجتماعية تقريبا وللسلوك السياسى . الا أن هذا نسق لم نصل اليه بعد وربما يحسن تأجيل القلق بشأنه الى أن نصل اليه . وفى تلك الاثناء فان معرفة علم الوراثة البشرية — بخلاف عوامل قليلة تؤدى الى نقائص معينة — تكون غير متطورة بالقدر الذى يمكننا من أن نبرر النقاء العنصرى او المزج العنصرى . من خلال

هذه المعرفة . وقد ننتهى فى الواقع الى تصنيف الجنس البشرى وراثيا عبر خطوط مختلفة تماما عن الطريقة التى تصنف بها حاليا الاجناس بواسطة المميزات السطحية . وعندئذ قد نكون قادرين على التحذير من المزج الخطير الوراثى مثلما نتخلى حاليا عن العامل الرئيسى فى الدم Rh factor ، بل وربما نشجع الخلط المرغوب فيه . الا ان الكثير من هذا يكون فى المستقبل ولكن قد لا يكون فى المستقبل البعيد للغاية وذلك بسبب معدلات التنمية والتطور السريع الذى تسير بها العلوم البيولوجية الآن .

هل الانتقال من الحضارة الى ما بعد الحضارة يعتبر تغيرا « حسنا » ؟ لا يمكننا الاجابة على هذا السؤال الهام اجابة تامة الى أن نعرف طبيعـــة ونوعية مجتمعات ما بعد التحضر المختلفة . ربما قد نبرهن فى سهولة لدى التأمل فى التحول العظيم الاول من مجتمعات ما قبل التحضر الى المجتمعات المتحضرة على أن هذا التحول فى كثير من الحـــالات كان تحولا من حالة افضل للانسان الى حالة اسوأ . فنحن اذا تأملنا فى الحروب التى لا حصر لها التى شهدتها المجتمعات المتحضرة (١٧) . واذا تأملنا فى دين التضحية الانسانية البشع واذا نظرنا الى الظهور الدامية للعبيد الذين لا حصر لهم والذين شيدوا الآثار المثلية للحضارة فانه من الصعب احيانا الاحجام عن الحنين الرومانتيكى نحو « البدائى النبيل Noble Savage » . ولقـــد اندمج فلاسفة القرن الثامن عشر بالفعل فى هذا الشعور الى حد بعيـــد ويدد علماء الانثروبولجيا الى حد ما وجهة النظر الرومانتيكية عن مجتمـــع ما قبل التحضر الذى كان فى كثير من الحالات فقيرا وقاسيا وبغيضا على نحو يفوق التطرف الذى شهدته الحضارة . الا انه لن يكون من الصعب عقد مقارنة بين أحسن مجتمعات ما قبل التحضر وبين اسوأ المجتمعات المتحضرة والخروج بنتيجة فى صالح مجتمع ما قبل التحضر . كذلك فانه بالامكان تحقيق نوع من مجتمع ما بعد التحضر على النحو الوارد — على سبيل المثال — فى المضادات اليوتوبية لكل من جورج أورويل Orwell والدوس هكسلى

فى منتصف القرن العشرين والتى تبدو فيها نوعية الحياة البشرية وكرامة الانسان ورفعته اقل كثيرا من تلك الموجودة فى افضل المجتمعات المتحضرة .

ومن الواضح انه توجد هنا مشكلة تتطلب الحل . فنحن لا نجعل الناس طيبين وفاضلين تلقائيا وذلك بأن نجعلهم أغنيـاء وأقوياء ، فالحقيقة فى الواقع كثيرا ما تبدو عكس ذلك . الا انه يجب علينا ألا نقع فى الفخ الآخـر الذى يساوى ويعادل ما بين البراءه والجهل او الذى يجعلنا نظن أن العجـز هو أمر مسـاوى للفضيلة . فأى زيادة فى القوة من شـأنه ان يزيد الطاقة الكامنة لكل من الخـير والشر على حد سـواء . فمجتمع ما بعـد التحضر الذى يسوده طغيان راسخ ويقوم على كافة المعلومات والمعرفة التى سنكتسبها فى العـلوم الاجتماعية كما يقوم على فسـاد لا حـد له مرتكز على سلطان الانسان الهائل على الطبيعة وخاصـة الطبيعة البيولوجية لهو مجتمع لا يمكن أن يتصوره العقل بأى حال من الاحوال . ومن ناحية اخرى تقـدم لنا ايضـا طرائق ما بعـد التحضر امكانية تيسام مجتمع تكون فيه المصادر الرئيسـية للبؤس البشرى قد استؤصلت ... مجتمع لا تكون به حرب أو فقـر أو مرض .. مجتمع ستكون به الغالبية العظمى من الآدميين قادرة على أن تعيش حيـاتها فى حرية نسبية بعيـدا عن معظم الشرور التى تجثم الآن على صـدور الغالبية العظمى من البشرية . وهذه مكافأة ممتازة تستحق الاندفاع حتى ولو كان تجاه الطغيـان والفساد . لا توجد فضيلة حقيقيـة فى العجز ، والفضيلة التى ينبغى الكفاح للتوصـل اليها هى بالتأكيد الربط ما بين القوة والخير .

على اية حال من المحتمل الا يكون هناك سبيل للعـودة للوراء . فنمـو المعـرفة هو احـدى القـوى المعـروفة للجنس البشرى والتى لا نقض فيها ولا ابرام . وتخفيض المخزون الكلى للمعـرفة الموجـودة فى حوزة الانسان يستلزم حـدوث كارثة ذات ابعاد كبيرة للغـاية . ومما يدعو للدهشة انه حتى فى حالة قيام وسقوط الحضـارات العظمى

لم يتم فقدان سوى القليل بصفة دائمة ، والكثير مما ضاع لفترة قصيرة تم استرجاعه بسهولة . ومن ثم فلا أمل فى العودة الى الجهل أو الى مباديء أخلاقية قائمة عليه . فما أن ذقنا ثمار شجرة المعرفة على النحو الذى تصوره لنا جيدا القصة الواردة فى الكتاب المقدس حتى أصبحت أبواب عدن موصدة أمامنا . فنحن لا نستطيع العودة الى طفولة جنسنا البشرى بدون التعرض لكارثة . فنحن قد فقدنا عدن للأبد ويقف على بواباتها ملاك بيده سيف ملتهب من أجل الحراسة . لذلك علينا اما أن نتجول فى يأس وقنوط فى العالم واما أن نواصل السعى الى كنيسة الله . يجب علينا ان نتعلم أن نقهر انفسنا أثناء تعلمنا كيفية السيطرة على الطبيعة (١٨) . فليس هناك فى طبيعة الاشياء مبرر يقول أن التنمية الاخلاقية من الامور المستحيلة (١٩) ويمكن للمرء فى حقيقة الامر ان يتوقع أن تسير عملية التنمية سواء أكانت تنمية اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية جنبا الى جنب مع عملية مماثلة للتنمية الاخلاقية التى ستمكننا من استخدام القوى التى اكتسبناها فى حكمة وتعقل . وهذه التنمية الاخلاقية قد تتخذ أشكالا وقوالب ربما ستبدو غير مألوفة لنا الآن ، ولكن مثلما انه باستطاعتنا أن نتعقب التنمية فى القيم والمستويات الاخلاقية للبشرية لدى تزايد قوى الانسان الاقتصادية والطبيعية لدى انتقال من مجتمع ما قبل التحضر ، لذلك فانه من المعقول أن المستويات الاخلاقية الجديدة سوف ترتفع لتتلاءم مع التكنولوجيا الجديدة لمرحلة ما بعد التحضر .

ويجب علينا ان نؤكد على أنه لا توجد هناك حتمية ولا جبرية فى صناعة هذا التحول العظيم . فكما سنرى فى الفصول التالية بهذا الكتاب ، يوجد هناك عدد من المصايد المعوقة Trap التى تقع على طول الطريق والتى قد تمنع الانسان وكوكبه الارضى من احداث التحول أو قد تؤخر حدوث التحول لاجيال عديدة أو حتى لآلاف من السنين . واهم المصايد من حيث الوضوح والحدوث بطريقة مباشرة هى مصيدة الحرب War Trap . اذ أصبح من الممكن الآن للانسان من الناحية النظرية ان يبتكر اختراعا يقضى على كافة أشكال الحياة

على وجه الارض . وحتى لو كان هذا الحدث المميت بعيد الاحتمال للغاية الا أن الكوارث الاقل افنساء للحياة تقع على الاقل فى نطاق احتمالات الحدوث مما يجعلها مسألة ذات خطورة كبيرة . فنشوب حرب نووية عظمى سيؤدى بلا شك الى تأخير التحول الى عالم ما بعد التحضر لعدة اجيال عديدة بل وقد يؤدى فى الواقع الى القضاء على امكانية حدوث هذا التحول بوجه عام . وتأثير مثل هذه الحرب على النظام الايكولوجى بأسره للكوكب لهو أمر لا يمكن التنبؤ به على الاطلاق ، ولذلك لا نستطيع أن نحدد مدى عمق الكارثة التى ستصيب الكرة الارضية وان كنا ندرك من الآن أنها ستكون كارثة كبيرة للغاية . ومن المحتمل أن تكون مثل هذه الكارثة من النوع الذى لا يمكن اصلاحه . ومن الممكن ايضا انه حتى لو واجهنا كارثة قابلة للاصلاح فاننا قد لا نتعلم منها بالقدر الكافى وعلى نحو يسمح لنا بتصحيح أخطائنا . ومن الواضح أننا فى مسيس الحاجة فى الوقت الحالى لان نخفض احتمالات حدوث مثل هذه الكارثة الى درجة التلاشى .

وهناك مصيدة اخرى يمكنها ان تعوق التوصل الى التحول لفترة طويلة ألا وهى مصيدة السكان . وربما أن هذا هو السبب الرئيسى فى الاعتقاد بأن تأثير عدد قليل من طرائق ما بعد التحضر على مجتمعات التحضر الموجودة بالفعل قد يكون له وقع الكارثة بسهولة خلال المائة سنة القادمة أو نحو ذلك . فمن أهم الآثار المترتبة على المعلومات الطبية ودواء ماء ما بعد التحضر على المجتمع المتحضر هو التخفيض الكبير والمباشر فى معدل الوفيات وخاصة تخفيض وفيات الاطفال . ونادرا ما يصاحب هذا انخفاض مماثل فى معدل المواليد . ومن ثم فان أول تأثير ناجم عن طرائق ما بعد التحضر على المجتمع المتحضر الثابت العدد هو احداث انتفاضة هائلة فى معدل الزيادة فى السكان . وقد تكون هذه الزيادة كبيرة للغاية بحيث لا يستطيع المجتمع أن يوائم نفسه معها وبحيث لا يستطيع بصفة خاصة أن يخصص موارد كافية لمواجهة تعليم الفيالق الكبيرة للغاية من الشباب وصغار السن . لذلك فاننا لدينا الموقف التراجيدى وهو أن تقليل الكثير من البؤس والمعاناة

الانسانية على المدى القصير قد يؤدى الى مشاكل هائلة غير قابلة للحل خلال فترة أطول .

والمصيدة الثالثة المتوقعة هى المصيدة التكنولوجية فى حد ذاتها : اى اننا قد لا نكون قادرين على تطوير تكنولوجيا راسخة على مستوى رفيع لا تعتمد على الموارد القابلة للاستهلاك والاستنفاذ . فالتكنولوجيا فى الوقت الحاضر — بل وحتى أعلى أنواع التكنولوجيا تعتمد الى حد كبير بالنسبة لموارد الطاقة والمواد الخام اللازمة لهما على تراكمات فى الارض تعود الى ماضيها الجيولوجى . ومن المحتمل أن تنفذ هذه التراكمات بعد قرون قليلة أو بعد عدة آلاف قليلة من السنين على الاكثر وعندئذ سيضطر الانسان الى اللجوء الى تكنولوجيا أكثر بدائية واما انه سيضطر الى السير قدما نحو معرفة تفوق كثيرا المعرفة التى لديه الآن . ومن حسن الحظ ان هناك دلائل تشير الى ان هذا التحول نحو تكنلوجيا راسخة عالية المستوى قد يتم انجازه ، ولكن من الواضح اننا لا نستطيع أن ندعى أن هذا قد تحقق حتى الآن .

وهناك مصيدة رابعة ربما توجد فى طبيعة الانسان . فى حد ذاته . لو أن المخاطر والصعاب التى تكتنف الانسان الآن قضى عليها فى مجتمع ما بعد التحضر واذا لم يعد امامه اى شىء يخشاه باستثناء الموت فى حد ذاته افلا يؤدى ذلك الى تخفيض موهبة الخلق والابداع لديه والى تبديد طاقاته بسبب ارتمائه فى احضان الملل والسأم الشديدين ؟ هذا سؤال لا يمكن الاجابة عليه . الا انه يكمن فى قلق وراء جميع التصريحات المتفائلة عن مستقبل الانسان على المدى البعيد .

وسوف تتم مناقشة جميع هذه المصايد المعوقة فى مزيد من الاسهاب فى الفصول التالية فى هذا الكتاب . ولكننا سنتناول أولا فى مزيد من الامعان ،صادر هذا التحول العظيم فى كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية .

الفصل الثانى

التعلم كأساس للتحول العظيم

ان التحولين العظيمين فى ظروف الجيس البشرى ، وهما التحـول العظيم الاول والتحـول العظيم الثانى قد يتميزان اساسا بالتغيرات فى حالة المعـرفة البشرية بما فى ذلك بالتالى عملية التعـلم . والتعـلم ليس هو المصدر الوحيد للتغـير الاجتماعى . فقد تكون هناك تغييرات عميقـة ـ على سبيل المثال ـ تنشـأ عن أحداث طبيعية خالصـة مثل تقـدم أو تقهقر الثلج أثناء عصر الجليد . والتغييرات فى المنـاخ وأوبئـة المرض والتغييرات فى تعـدد الحيـوانات او فى وفرة امدادت الطعام الاخـرى فى بيئة الانسان ، كل هذه التغييرات قد تحدث تغييرات عميقة فى ثقـافة الانسان . الا أن العملية الطويلة المستمرة التى يستحيل الغـاؤها والتى سميناها بالتحول العظيم تتعلق اسـاسا بالتعـلم الانسانى وبالعمليات التى تكتسب المعرفة بواسطتها . فلا يمكن لأى مجتمع مهما كانت درجة بدائيته ، وسواء أكان هذا المجتمع انسانيا أو حيـوانيا أن يعيش بدون معـرفة من نوع ما ، فالطائر يجب عليه أن يعرف كيفية بنـاء العش . والنمل يجب عليه أن يعرف كيف يتصرف مثل النمـل . وفى حالة المجتمع غير الانسانى تكون معظم المعرفة مكتسبة وراثيا ـ بمعنى انها تكون مبنيـة فى بنيـان الحيوان عن طريق عمليات النمـو التى تنظمها الجينات Genes . أما فى حالة المجتمع البشرى فان نسبة ضئيلة للغاية من المعرفة الضرورية لتسيير عجلة المجتمع تكون مكتسبة وراثيـا . فجميع المعرفة البشرية تقريبا التى تدير عجلة الثقافة ينبغى أن تعـلم منذ الطفولة (٢٠) . لذلك ينبغى أن تكون هناك مصادر من نوع ما مخصصة لزيادة المعـرفة ، رغم أن هذا فى المجتمع البدائى لا يكون أمرا تخصصيا ويمثل الى حد ما تخصيص بعض الوقت من جانب الآباء والأجداد والأقرباء والحكمـاء من رجال القبيلة حيث يقومون بتعـليم الاطفـال والشباب المعـرفة اللازمة للثقـافة . ويلتقط الطفل قدرا كبـيرا من

هذه المعرفة بدون اية عملية تعليمية رسمية — اى بدون تخصيص اى وقت من جانب الاعضاء الآخرين من الجماعة لتحقيق هذا الهدف . وحتى فى المجتمعات المتقدمة فان تعلم اللغة القومية يتم الى حد كبير عن طريق هذه الوسائل غير الرسمية ونفس الشيء ينطبق على تعلم العديد من العادات والامور المتعارف عليها التى يتعلم الناس عن طريقها كيفية اجراء الاتصالات وتبادل الآراء . ولكن فى كافة المجتمعات يجب تخصيص نسبة معينة من النشاط الاجتماعى فى المجتمع لانتاج وتربية وتعليم الاطفال بهدف استمرار المهارات والمعرفة نظرا لفقدانها بصفة مستمرة بسبب الشيخوخة والموت . ومن وجهة نظر المجتمع بوجه عام تعتبر المعرفة قابلة للتناقص بشكل كبير . ففى كل مرة يموت فيها رجل تكون المعرفة المخزونة فى كيانه بمثابة راس مال مفقود من المجتمع . وحتى فى حالة الفرد الواحد تكون هناك عملية مستمرة من النسيان بحيث يتطلب الامر ضرورة تعلم المعرفة القديمة من جديد .

واذا كانت صناعة المعرفة الآن او كافة المصادر المخصصة لزيادة المعرفة فى أحد المجتمعات كافية فقط لاستعاضة المعرفة التى فقدت عن طريق الشيخوخة والموت ، فان المجتمع سيصبح واقفا فى سكون وجمود ، فكل جيل اثناء تطوره سيحل محل آبائه فى الدور التكوينى للمجتمع على وجه الدقة . وفى مجتمعات ما قبل التحضر وخاصة تلك المجتمعات المبكرة مثل مجتمعات العصر الحجرى القديم كانت هذه الحالة الراكدة تبدو طبيعية . وانه لمن الصعب لرجل فى العصر الحديث أن يتخيل وجود مجتمع ينمو فيه الاطفال ليكونوا صورة طبق الاصل من آبائهم جيلا بعد جيل على مدى الآلاف من السنين أو حتى على مدى مئات الآلاف من السنين . فالمجتمع الذى نعيش فيه الآن معتاد للغاية على التغير حتى انه من الصعب علينا أن نتصور أن التغير على مدى الجزء الاكبر من تاريخ البشرية كان أمرا نادرا للغاية وأن الحالة الطبيعية للمجتمع كانت حالة من التعادلية الثابتة على مدى فترات طويلة .

وحتى في ذروة المجتمعات المتقدمة اليوم نجد جيوبا قليلة من الثقافة الدنيا subculture مثل طائفة الاميش A mish بالولايات المتحدة الامريكية الذين يحتفظون بثقافتهم بدون اى تغيير من جيل الى جيل وذلك عن طريق ابقاء اطفالهم بعيدين عن التعرض للعالم الخارجي مع تعرضهم فقط للمعرفة والقيم المميزة فقط لثقافتهم الدنيا الخاصة بهم .

وبالاضافة الى ذلك نجد أن صناعة المعرفة في مجتمع ما قبل التحضر ليست فقط ضئيلة للغاية حتى أنها لا تكاد تكفي لان تحل محل المعرفة التي تفقد بسبب الموت ولكن الابتكار ايضا في حد ذاته يواجه بالاعتراض والعبوس وهو ابتكار منخفض القيمة في البنيان الثقافي . فتأثير الكبار على الصغار كبير للغاية والخروج على طرائق الكبار يعرض الصغير لعقوبات شديدة . وربما السبب في ذلك هو ان هامش الوجود في مثل هذه المجتمعات يعتبر ضئيلا للغاية لدرجة ان أى ابتكار يبدو كأنه يهدده (١) ، وقد يبدو كأنه يحول الانتباه عن الاحتياجات الرئيسية لنقل الثقافة الموجودة على حالتها الاصلية من جيل لآخر . وحيث يكون هامش الحياة مزعزعا للغاية فان أى ابتكار قد يبدو انه يهدد وجود الجماعة حتى وان بدى أنه تحسين للوسائل القائمة .

ونحن لا نعرف على وجه الدقة كيف تعلم الانسان استئناس الماشية والاغنام والمحاصيل وعاش عيشة الاستقرار على الزراعة الثابتة . ولربما قد نخمن مما نعرفه عن اصول الاشكال الاخرى للتنمية ان تقدم الثلج في عصر الجليد الاخير أرغم انسان العصر الحجرى القديم على الخروج بالقوة من الاماكن القديمة التي يأوى اليها ومن طباعه وطرائقه القديمة وربما حشده في شبه جزر المكسيك والبحر المتوسط والشرق الادنى حيث الصحراء تجعل الشريط الساحلي لكل من فلسطين وسوريا والعراق شبه جزر بالفعل . وتحت هذه الظروف ربما اسفرت الحشود المكتظة عن جعل الحياة اكثر صعوبة بعد ان اصبحت حيوانات القنص اكثر ندرة ، مما ادى بالتالي الى تزايد عدم الرضى عن الوسائل

القديمة . وعادة ما يكون هذا بمثابة تدهور معين فى احوال المجتمع عقب مرور اجيـــال عديدة ساءها الاستقرار النسبى مما يدعـــــو لاول مرة للارتيـــاب فى الآلهـــة القديمة والطرائق القديمة بل والارتياب فى حكمة الشيوخ الكبار ،و تحت هذه الظروف تبدو الفرصة سـانحة لظهور المبتكر للبـــدع الجـــديدة innovator واذا كانت البدعة الجديدة مصحوبة بظواهر القيادة الملهمة التى تستحوذ على مشـــاعر النـــاس فانهـــا قد تلقى قبولا منهم. ولكن مهما كانت الاصـــول فاننا نعرف الآن أن بداية الزراعة المستقرة واستئناس المواشى والانعـــام والاغنام كان منذ فترة تتراوح من ٨ آلاف الى ١٠ آلاف سنة ، وذلك فى قرى العصر الحجرى الحـــديث بالريف الجبـــلى على الاماكن المرتفعـــــة فى ميزوبوتاميـــــا (العراق) .

وما أن تنشـــا الزراعة حتى يصبح المجتمع أكثر استقرارا ورسوخا ويميل لأن يكون به فائض من الطعام . وتحت هذه الظروف قد يصـــبح بالامكان تخصيص الفائض من الطعام لصالح التوسع فى صناعة المعـــرفة وتخصيص نسبة أعلى وكمية كبيرة من موارد المجتمع من اجل متابعـــــة المعرفة ونقلها .

وينقسم التحول العظيم الاول الى جزءين متميزين تماما بحيث يمكن أن نتحـــدث عن تحولين بدلا من تحول واحد . والجزء الاول هو الثورة الزراعية والانتقال من ثقافات الصيد والتقاط الطعام food gathering التى تســـود العصرا لحجرى القديم والعصر الحجرى الاوسط الى القرية الزراعية التى يتسم بها العصر الحجرى الحديث . والانسان هنا ما زال لا يمتلك المعادن الا انه لديه الآن قدرا كافيا من الطعام يعينـــه على تطوير الايديولوجيات الاولى والمبشرين الاوائل ، وهذا يتضح لنا من الآثار المغليث megalithic التى تمتـــد من البحـــــر الابيض المتوســـط الى كانك

(*) الحجر الضخم غير المنحوت المستخدم فى كثير من الآثار الراقية فيما قبل التاريخ .

(المعرب)

Carnac في بريتاني والى ستون هنج Stone henge في بريطانيا ، وامتدت الثورة الزراعية من منشئها الاصلي في الشرق غربا الى الطلنطي وشرقا الى الصين بل وربما وصلت شرقا الى أمريكا رغم انه لم يثبت حتى الآن ما اذا كانت الزراعة في العصر الحجري الحديث وحضارات المكسيك وبيرو هي ابتكارات ذاتيــة أو أنها جالات من المحاكاة والتقليد نقلهـــا « مبشرون » أوائل عبر مضيق بيرنج (٢١) Bering . ثم يأتي بعد ذلك — حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميــلاد — الجزء الثاني من التحول العظيم الاول الا وهو الثورة الحضرية Urban ، ففائض الطعام النـــاجم عن الزراعة يتم تجميعـــه الآن في المدن ، ويبـــدا علم المعادن — مثلمـا بدأت الزراعة من قبل — في الجبـــال شمال ميزوبوتاميا (العـــراق) . وتبدأ المدن الاولى في ميزوبوتاميا وتلعب الثورة الصـــناعية القـــائمة على المعادن دورا هاما في هذه التنمية .

الا أن اختراع الكتابة — من وجهة نظر التنميات على المدى البعيد — يعتبر اكثر اهمية من اختراع تنقيـــة المعـــادن بالصهر بل واكثر اهمية من صنع الادوات المعدنية . وعلاوة على ذلك فان الكتابة تصاحب تواجد بعض المدارس التي عثر عليها في اطلال اقدم المدن . وهذا بمثابة وسيلة جديدة للانتقال الثقافي .

ومرة أخرى نقول اننا نعرف القليل للغاية عن نشأة هذا الابتكـــار ومصدره . ولكننا نعرف أنه متعاصر تقريبا مع تنمية المدن الاولى ومعاصر للحضارة ذاتها . ومثلما ان تنمية الزراعة سمحت بتوفير نسبة كبيرة من موارد المجتمع وتخصيصها لصناعة المعرفة كذلك فان الكتابة تمثل تحسنا تكنولوجيا هائلا في صناعة المعرفة . فلأول مرة في تاريخ البشرية لا تعتمد المعرفة في المجتمع على الارسال الشفوي فقط ولا تعتمد فقط على تخزينها في عقول الرجال المسنين . اذ اصبح بالمستطاع كتابة المعرفة حتى يستطيع الماضي أن يتحدث الى الحاضر وحتى يمكن للمعرفة بالمجتمع أن تصان وتحفظ رغم موت وضياع العقول التي كانت تحتوي على المعرفة . فمجتمع ما قبل القراءة والكتابة يكون دائما عرضة لمواجهة خسارة فادحة في المعرفة بسبب

الموت . مثال ذلك انه اذا قتل مرض وبائي الرجال العجائز الواحد تلو الآخر قبل أن يتمكنوا من نقل تقاليد القبيلة الى الشباب عندئذ تضيع المعـــرفة ضياعا نهائيا لا رجعة فيه . ولكن باختراع الكتابة فانه يمكن الحفاظ على المعرفة وذلك بتدوينها على الالواح الحجرية أو على أوراق البردى . وحتى اذا تعرض الكتبة أو الحكماء من الرجال الذين يحتفظون بالمعرفة فى رؤوسهم للموت فان المعرفة يمكن أن يتعلمها الشباب من جديد طالما أنه بالمستطاع قراءة الكتابة المدونة . هذا بالاضافة الى أن الكتابة يمكن عمل نسخ منهــا وهذا يعنى أن الكتب يمكن كتابتها وتدوينها وانتشرت المعرفة بين السكان بكفاءة تفوق تلك الخاصة بالاتصالات المباشرة وجهــا لوجه والتى كانت ضرورية من قبل . ففى مجتمع ما قبل القراءة والكتابة يمكن أن تنتقل المعرفة من استاذ المعرفة الى مجموعة صغيرة للغاية من الناس الذين يجلسون حوله ويستمعون لكلامه وهذه هى الوسيلة الوحيدة اما فى مجتمع القراءة والكتابة فان المعرفة يمكن أن تنتقل الى عدد كبير من الناس فى نفس الوقت عن طريق الكتب حتى ولو كان الامر يقتضى كتابة هذه الكتب بخط اليد وبذل الجهود المضنية فى هذا السبيل . فما أن يتم اخراج كتاب واحد للوجود فانه من الممكن قراءته مـــرات عديدة عن طريق العـــديد من الناس وعلى مدى سنوات عديدة .

وما أن قام المجتمع بكتابة السجلات حتى انخفضت كثيرا أخطار الخوف من ضياع المعرفة بل واصبح من المحتم أن تتجمع المعرفة وتتكدس . فالحاضر يكون دائما قادرا على اضافة معرفة جديدة الى مخزون المعرفة المتحصل من الماضى وذلك رغم ان بعض المعرفة المكتوبة قد فقدت منذ فترات بعيدة فى كوارث مثل سقوط الامبراطورية الكويتية Cretan او مثـــل حريق مكتبة الاسكندرية (١) أو مثل كارثة « حرق الكتب » فى الصين (٢) . فأخطار فقدان المعرفة أصبحت أقل كثيرا مما كان عليه فى مجتمع ما قبل الالمام والكتابة حيث يمكن تخزين كميات كبيرة من المعرفة فى الكتب او فى المكتبة وعلى نحو يفوق كثيرا أمكانية التخزين فى رأس واحد أو حتى فى مجموعة من الرؤوس . لذلك فيمكن لمجتمع متحضر ملم بالقراءة والكتابة ان يكون جامدا مثل مجتمع

ما قبل التحضر . فالكتابة فى حد ذاتها تنع هذا حيث يوجد باستمرار تجميع للمعرفة وحيث تتجمع المعرفة يصبح من المحتم أن يتعرض المجتمع للتغير ، وكانت المجتمعات المتحضرة الاولى صغيرة للغاية وكانت تضم أعدادا قليلة للغاية وكانت تضم اعدادا قليلة للغــاية من الناس على نحو يثير دهشتنا الشديدة . والكثير من هذه المجتمعات قد أطاحت بها الحروب مما أدى الى ضياع المعرفة التى كانت لديها . الا انه خلال فترة الحضارة بأكملها كان هناك على ما يبدو تجميع مستمر للمعرفة وان كان تجميعا بطيئا ، وكان هذا التجميع مستمر للمعرفة وان كان تجميعا بطيئا ، وكان هذا التجميع يزيد دائما فى قيمته عن المعــرفة المفقودة وذلك باستثناء الفترات التى شهدت اقصى درجات العنف والفساد . ومن ناحية أخرى يجب أن نشير الى أن قدرا كبيرا من المعرفة التى تتميز بها المجتمعات المتحضرة هى معــرفة تتعلق بالمراسم الرسمية Ceramonial وهذا النوع من المعرفة لا قيمة له من وجهة نظر التنمية الاقتصادية أو التغير الفنى اللذين كانا يشغلان حيزا ضيقا فى مدركات الناس . وقدر كبير من المعرفة هو معرفة زائفة — بمعنى انها تتكون من افتراضات وقضايا غير صحيحة وربما تكون بالفعل عاملا سلبيا فى الصالح العام الانسانى ، مثال ذلك أن الازاتقة Aztecs يعتقدون أن القمح لا ينمو بدون تقديم قدر كبير من التضحيات البشرية وهذه المعلومة فى حد ذاتها يجب أن ينظر اليها على انها عبء على المجتمع وليست اضافة مفيدة له . وجميع المجتمعات المتحضرة مثقلة تماما بالخرافات وحقيقة الامر أن عدم استقرار جميع المجتمعات المتحضرة — حتى أن كلا منها لم تدم أكثر من عدة اجيال قليلة — لدليل واضح على أن قاعدة المعرفة التى ارتكزت عليها كانت غير كافية بل وكانت ضارة فى كثير من الحالات .

بل ان غالبية المعرفة المكتسبة فى المجتمعات المتحضرة هى من النوع الذى يمكن أن يسمى بالمعرفة المكتسبة من الاقارب Folk Knowledge بمعنى أنها مكتسبة فى محيط الاسرة او فى المواجهة الشخصية فى نطــاق الجماعة وليست مكتسبة من التعليم الرسمى او فى المدارس . فالمجتمعات

المتحضرة تتميز بشكل واضح بأنها تنقسم الى طبقتين انقساما حاسما : طبقة أولئك الذين يمتلكون المعرفة عن طريق المدارس والتى تنقل بواسطة الكتب والمكتبات وبمعرفة مدرسين مهنيين ، وطبقة أولئك الذين يمتلكون المعرفة عن طريق الاقارب . والطبقة الاولى هى بالطبع طبقة علية القوم والحكام . أما الطبقة الاخرى فهى طبقة جماهير الفلاحين والناس العاديين الذين يحكمون . والمعرفة التى تكسبها جماهيرا لناس تتراكم وتتجمع ببطء شديد والسبب الرئيسى فى ذلك هو أنها مرتبطة بعمق شديد بعلاقة الأب بالطفل لدرجة أن أى شكوك فيها تعتبر شكوكا فى سلطة الابوين . ففى ثقافة الجماهير تكون هذه السلطة قوية للغاية حتى أن أى شكوك فيهـا تكون مرتبطة مباشرة بخيانة القيم العميقة للجماعة . لذلك فان الخـرافة الضارة تخلد نفسها جيلا بعد جيل لأن الخرافات من الصعب اختبـارها وفحصها هذا بالاضافة الى أن اختبارها يعتبر من الامور الشنيعة التى تستخف بالمقدسات . والكثير من الصعاب التى تواجه البدء فى احدى عمليات التنمية الاقتصادية فى المجتمعات التقليدية المتحضرة فقط فى هذه الايام هو أن هذه العملية تتضمن دائما تقويضا معينا لسلطة الابوين وخاصة سلطة الأم ولديها قدر معين من التعليم الرسمى خارج نطاق الاسرة . ولكن حتى هنا ومن ثم يمكن أن تؤدى الى متاعب سيكولوجية .

فى جميع المجتمعات المتحضرة نجد أن الطبقة الحاكمة لديها مدارس ولديها قدر معين من التعـليم الرسمى خارج نطاق الاسرة ولكن حتى هنـا

نجد أن التغيير فى كيان المعرفة التى تعلم صعب فى اغلب الاحيان . فالمعرفة كثيرا ما يحتفظ بها فى كتب مقدسة ذات مصادر موثوق بها ولا تحتمل الشك والريبة وهى كتب أصبحت بالفعل نوعا من البديل عن الابوين . فالمدارس تركز تركيزا هائلا على دراسة الكلاسيكيات القديمة سواء الكلاسيكيات الصينية أو الكتـاب المقـدس (العهـد القديم والعهـد الجـديد) أو مؤلفات أرسطو . وتحت هذه الظروف نجد أن مدارس الطبقة الحـاكمة لا تختلف كثيرا من حيث طبيعة نقل معلوماتها عن معلومات الدهماء الخاصة بالفقراء لذلك فانه على الرغم من الميزة الكبيرة التى يعطيها الالمام بالقراءة

والكتابة وظهور الكتب الى تراكم وتجميع المعرفة ، فلا غرابة فى أن تزايد المعرفة فى مجتمع تسوده حضارة كلاسيكية يكون بطيئا للغاية لان المبتكر ينظر اليه فى كثير من الشك والريبة . ولكن مهما كانت القيود التى يضعها المجتمع لعرقلة تجميع المعرفة كبيرة للغاية الا انها لم تكن فى اى وقت من الاوقات قادرة على منع هذا التجميع منعا كاملا . حيث يمكننا تتبع النمو المستمر للمعرفة الحضارية ابتداء من سوميريا Sumeria القديمة الى العصور الوسطى الاوربية الى اليابان فى القرن التاسع عشر والهند والصين فى القرن العشرين .

ومثلما أن الزراعة مهدت الطريق أمام تنمية الكتابة والحضارة فان النمو البطيىء للمعرفة خلال الحضارة يمهد الطريق امام التحول العظيم الثانى ونهضة العلم . واصول هذه الحركة تعتبر اقل غموضا من اصول التحول الاول . الا ان هناك العديد من المشكلات المحيرة التى تظهر لدى تتبعها وذلك رغم الحقيقة التى مفادها انه يمكن تتبع النمو المستمر الرائع للمعرفة والتقدم فى التكنولوجيا خاصة فى أوربا الغربية ابتداء من القرن السادس الميلادى . ومن المعقول أن نفرد مكانا فاصلا وحاسما لاختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر فى أوربا . ومن المسائل الهامة الجديرة بالدراسة هى محاولة التوصل الى معرفة الاسباب التى جعلت اختراع الطباعة فى الصين والذى حدث فى وقت سابق على اختراع الطباعة فى أوربا لا يسفر عن ثورة مماثلة هناك ولكن ربما يكون السبب فى ذلك هو أن طبيعة اللغة الصينية حالت دون أن يكون للطباعة نفس التأثير الذى احدثته فى اوربا واختراع الطباعة — شأنه شأن اختراع الكتابة فى حد ذاتها — يجب النظر اليها على انها تطور تكنولوجى آخر فى صناعة المعرفة وخاصة فى مجال بث المعرفة ونشرها .

وهناك اختراع آخر ظهر فى مرحلة ما قبل العلم وأرسى الاساس لنهضة العلم شأنه فى ذلك شأن الطباعة . وهذا الاختراع هو آلية الساعة Clockwork . اذ شهد القرن الخامس عشر الميلادى فى أوربا بعض

التقدم الملحوظ فى الهندسة الميكانيكية وخاصة فى تنمية ميكانيكيسات آلية الساعة ذات الابداع الكبير والتصميمات المعقدة . ومماشك فيه أن هذه النجاحات قد حولت عقول الناس جيلا بعد جيل نحو التفسيرات الميكانيكية للكون وليس نحو التفسيرات الروحية الحيوية للكون . وفى القرن السادس عشر الميلادى أحدثت حركة الاصلاح الدينى صدمة للنظام العقلانى القائم ورغم أنها من الناحية العقلانية ربما لم تكن بمثابة قطع راديكالى شـــديد الصلة بالماضى عن طريق خلق مثل جديدة وعن طريق تحطيم النظام المنلثى(١) للعصور الوسطى الا انها على الاقل أزالت بعض العقبات أمام تنمية وتطوير الافكار الجديدة . ان قوة أية سلطة تتوقف الى حد بعيد على عدم تحديهـــا على الاطلاق . فما أن تواجه بالتحدى بنجاح فى احدى مجالاتها عنـــدئذ تكون هناك احتمالات كبيرة فى أن تواجه بالتحدى فى مجال آخر . فلو ان لوثر (٢٢) كان بمقدوره أن يتحدى بنجاح السلطة الروحية والدنيوية للبابا عندئذ كان آخرون سيأملون فى أن يكونوا قادرين على تحدى سلطة ارسطو او جالينوس فالطريق المؤدى الى العلم يمكن مقارنته بالمتاهات المحيرة . ففى بعض المجتمعات مثل الصين على سبيل المثال . نجد ان الكثـــير من البدايات المبشرة بالخير قد أدت على ما يبدو الى طريق مسدود . أما فى أوربا فكان هناك دائما شخص ما يتمكن من العثور على طريق مفتوح رغم أن الطريق الذى أدى الى نيوتن وأنشتين (٢٣) كان طريقا ملتويا متعرجا . وقد تم هذا فى أوربا ربما بسبب حسن الحظ اكثر مما هو بسبب حسن التنظيم والادارة وذلك رغم العديد من الطرق المسدودة التى تم استكشافها .

ويمكن أن توصف نهضة العلم بأنها طفرة فجائية فى مجال المعرفة . ونحن قد لاحظنا الاهمية البالغة للكتابة من حيث أنها سمحت بتطوير ثقافة فرعية تتسم بالالمام بالقراءة والكتابة وممتدة عبر الزمن . فثقافات جماهير

---

(١) المنليث هو حجر ضخم أو كتلة صخرية كبيرة ينحت منها عمود أو مسلة .

(المعرب)

الناس تعتبر بوجه عام ثقافات عالم الواقع فى دنيانا . فهى قد تشتمل على ذكريات الابطال وبعض القصص من الماضى ولكنها بوجه عام تهتم بالحاضر اهتماما بالغا . ومع تنمية الكتابة نحصل على الثقافة الفرعية لعالم الواقع حيث تستطيع الكتب التى ألفتها عقول ماتت منذ فترة طويلة ان تحدث تأثيرا لا يقل قوة عن تأثير كلمات الاحياء . فالدارس يعيش ويتحرك فى نطاق شبكة من المواصلات والاتصالات تمتد قرونا عديدة فى اغوار الماضى . وبهذا المعنى يكون العالم دارسا أيضا ولكنه يعتبر ايضا ولكنه يعتبر شخصا اهم من الدارس Scholar . فبينما الدارس يهتم اساسا بالدراسة التفصيلية للنصوص التى تنحدر من الماضى السحيق ويهتم أساسا بالشكل الذى تكون عليه الكلمة المكتوبة نجد ان العالم يكون مهتما بقراءة كتاب الطبيعة بالاضافة الى قراءة المؤلفات والكتب القديمة وهذه الصورة فى الحقيقة كثيرا ما استخدمت فى الايام الاولى للعلم وبالاضافة الى ذلك ، فكما ان الدارس ينكب على دراسة كتب الماضى ويدرسها بالتفصيل كلمة كلمة كذلك نجد العالم ينكب على دراسة كتاب الطبيعة فى دقة وعناية متناهية وبهذه الوسيلة نشأت ببطء طريقة جديدة لتنظيم نمو المعرفة على اسس اكثر سرعة واكثر أمنا مما كان معروفا من قبل . وبدأت المسألة بأفراد يعيشون بمعزل عن بعضهم البعض خلال القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر . وبحلول القرن السابع عشر اصبح العلماء بمثابة جماعة دولية صغيرة يرتبطون مع بعضهم البعض عن طريق المراسلات النشطة واصدار النشرات والكتيبات ، وهم الآن يبدأون فى الانتظام فى شكل هيئات وجمعيات . فتأسيس الجمعية الملكية فى لندن فى النصف الثانى من القرن السابع عشر يعتبر تاريخا فاصلا ، فهنا يبدأ العلم فى الظهور كثقافة فرعية منظمة . فحتى ذلك الحين كان العلم ما زال الى حد كبير عملا يقوم به الهواة غير المحترفين واستمرت فترة الهواة فى مجال العلم حتى اواخر القرن التاسع عشر . ولم يصبح جزءا أساسيا منظما من المجتمع على اسس مهنية بتفرغ كامل الا فى القرن العشرين .

(*) الطبيعية فى حد ذاتها تعتبر كتابا أمام الانسان ، والمؤلف هنا يقصد طبيعة الكون المحيط بالانسان . فالطبيعة تعتبر كتابا كبيرا .

ويجب علينا الآن ان نتفحص طبيعة هذه الثورة فى مجال صناعة المعرفة فى مزيد من التفصيل ان عملية نمو المعرفة تشتمل على ثلاثة مفاهيم : الصورة الذهنية image + الاستنتاج او التوقعات التى تشتق منها + الرسالة التى اما أن تؤكدها او ترفضها . والصورة الذهنية هى المحتوى الفعلى لذهن انسانى معين — بمعنى انها المحتوى الذاتى للمعرفة (+) . وهذا هو ما يعتقده الانسان فى شكل العالم + المجموع الكلى لمعتقداته + انطباعه عن العالم وعن نفسه والمكان والزمان + افكاره عن الصلات السببية وهكذا . ونحن دائما ما نتوصل الى استنتاجات عن المستقبل قائمة على انطباعنا عن العالم — بمعنى اننا نستنتج توقعات عما سيحدث . مثال ذلك اننى أتوقع أن أسافر غدا من منزلى الى مكان معين واننى سأبدا فى القاء محاضرة أمام مجموعة من الطلبة سأجدهم مجتمعين هناك . هذا التوقع نفسه مستقى من تصورى عن المكان والزمان والسببية ومستقى من تصورى عن النظام الاجتماعى الذى وضعت فيه وهكذا .

فالصورة الذهنية التى لدينا تكون خاضعة لتلقى فيض مستمر من الرسائل الواردة من البيئة المباشرة حولنا . وهذه الرسائل اما انها تؤكد توقعاتنا واما انها تحبطها . فأنا قد أذهب الى الفصل الدراسى فى صباح الغد ولا أجد اى شخص فى الغرفة .

فالرسائل الواردة من عينى واذنى والتى توقعتها لا تصل . وتحت ضغوط الاحباط يحدث شىء ما حتما . فأنا فى حقيقة الامر يمكننى أن افعل شيئا من ثلاثة أمور . يمكننى أن انكر حقيقة الرسائل واقول عنها انهما رسائل زائفة او وهم خادع . ويمكننى ان انكر حقيقة الاستدلال الذى ادى الى التوقعات واقول انه ما كان ينبغى أن أتوقع الرسائل التى اخفقت فى الظهور . والاحتمال الثالث هو اننى قد اغير الصورة الذهنية image ذاتها . لذلك اذا ذهبت الى الفصل الدراسى غدا ولم اجد اى شخص هناك

من أجل مزيد من المعلومات حول هذه الحقيقة انظر :

K.E. Boulding, The Image, University of Michigan Press 1956.

قد اقول لنفسى أننى احلم وان الرسالة هى رسالة زائفة ثم أحاول أن أستيقظ . فاذا اقتنعت بأننى مستقيظ وأن حواسى لا تخدعنى وأن الرسائل لا يمكن انكارها ورفضها ، عندئذ فانى قد أرفض واكذب الاستدلال Inference . فقد أقرر أننى اعتقدت أن الموعد هو يوم الخميس بينما هو فى الحقيقة يوم الاربعاء وهو يوم ليس لدى فيه محاضرات ، أو ربما أقرر انه يوم من ايام الاجازات العامة ولم اكن أعلم بذلك . فالصورة الذهنية لدى هنا تبقى كما هى دون تغيير ولكنى قمت باعادة تنظيم الاستدلال الذى استنتجته من هذه الصورة الذهنية . ولكن اذا لم أستطع أن ارفض الرسالة أو الاستدلال فلا سبيل أمامى سوى أن أعيد تنظيم صورتى الذهنية عن العالم . لذلك قد أقرر اننى قد اطلق على الرصاص أو فصلت من العمل أو اننى لست على النحو الذى اعتقدته عن نفسى بأى حال من الاحوال وان النظام الاجتماعى الذى وضعت فيه قد تغير تغيرا جذريا .

والمرضى عقليا وخاصة الذين يعانون من الشيزفرانيا (٢٤) وجنون العظمة يكونون غير قادرين على اعادة تنظيم صورهم الذهنية عن العالم لأن اعادة التنظيم يكون مؤلما للغاية بالنسبة لهم . لذلك فهم اما أن يرفضوا الرسائل أو يرفضوا الاستدلالات بصفة مستمرة فى مواجهة الاحباط الخاص بالتوقيعات . فالمريض بجنون العظمة — على سبيل المثال — قد يكون مقتنعا بأن كل شخص يكرهه وبذلك فهو يفسر كل عمل من جانب الآخرين على أساس انه تاكيد لاعتقاده . ومن ثم فهو يفسر دائما أى حركة أو عمل يتسم بروح الصداقة على ان وراءه دافع اثيم مشئوم . وفى حالات الشيزفرانيا الشديدة يتمكن المريض بالشيزوفرانيا من السيطرة التامة على المعلومات التى تبثها حواسه . ومن ثم فهو يرى ويسمع ويلمس بالفعل الاشياء والامور التى يتخيلها ولا يستطيع أن يصل اليه أى مظهر منمظاهر الحقيقة . فكل شىء يجىء من داخل صوره الذهنية . ولذلك لا يمكن أن يهزها اى شىء .

وفى حين انه من الواضح ان الصرامة الكاملة فى الصورة الذهنية تمنع

نمو المعرفة بوجه عام ، نجد ان الظروف التى تنمو فى ظلها الصورة الذهنية الصادقة بشكل سريع للغاية غير واضحة على الاطلاق . ونحن لدينا هنـــا نظاما به درجات عديدة للغاية من الحرية من أجل الراحة . ورغم أن الصرامة الكاملة فى الصورة الذهنية تحول دون اى زيادة فى المعرفة الا ان المرونة الكاملة قد تكون وخيمة العواقب أيضا . فأحيانا تكون الاستدلالات التى وصلنا اليها خاطئة واحيانا تكون الرسائل التى نتلقاها ناقصة وبها خلل . وتحت هذه الظروف يصبح من المرغوب فيه وجود درجة معينة من الصرامة فى الصورة الذهنية . فنحن لا نعتقد — على سبيل المثال — أن العصاة فان الافتراض بأن ما قرأناه فى الجريدة خاطىء او كتب لتضليلنا عمدا لن نجد ان العالم ينكب على دراسة كتاب الطبيعة فى دقة وعناية متناهيتين . فى الحجم على النحو الذى تبدو عليه لدى اقترابها منا أو ابتعادها عنا . من الصعب للغاية التوصـــل للاستدلالات وكثيرا ما تكون الرسائل مبهمة يكون افتراضا سخيفا على الاقل . وعلاوة على ذلك ففى الانظمة التى تكون فيها الاستدلالات محتملة الحدوث فقط — وكل الانظمة الاجتماعية تقريبـــا لها نفس هذه الطبيعة — فان احباط التوقعات قد يرجع بكل بساطة الى الحظ السيىء وينبغى أن يكون لدينا قدر كبير من الملاحظات قبل أن نتعلم الكثير عن طبيعة الامر المحتمل الحدوث . وبالاضافة الى ذلك فان جميـــع رسائلنا تمر من خلال جهاز ترشيح أو رقيب ، والرسائل التى تساند صورة ذهنية قائمة أمامها فرص للمرور من جهاز الترشيح أكثر من الرســـائل التى تكون متناقضة مع صورتنا الذهنية . وهذا بصفة خاصة ينطبق فى حالة اذا ما كانت طبيعة صورتنا الذهنية عن العالم مرتبطة ارتباطا وثيقا مع شخصيتنا من وجهة نظرنا وفى ضوء القيمة التى نسبغها على شخصنا . مثال ذلك أن الانسان الذى بنى حياته كلها وهويته فى نطاق أيديولوجية معينة سيكون غير راغب فى تغيير الصورة الذهنية بدون الخروج على هويته كشخص . وتحت هذه الظروف يخلق نظـــام قيمة فى حـــد ذاته جهاز ترشيح أو رقيب يقوم بمهمة استبعاد جميع الوسائل التى تكون متناقضة مع صورته الذهنية عن هويته الخاصة به . وبالطبـــع يوجد من وقت لآخر تحولات — بمعنى أن يرفض شخص ما الصورة الذهنية السابقة والهوية التى توافقت معهـــا

وينتظم فى هوية جديدة حول صورة ذهنية جديدة . الا أن مثل هذه التحولات نادرة وخاصة فى الحياة الاخيرة .

ان استمرار الخرافات فى عصر يفترض فيه أن عصر علمى لدليل واضح على قوة الصور الذهنية التقليدية فى المواقف الملتبسة المبهمة . فمن الحقائق الغريبة على سبيل المثال المثال انه حتى فى اكثر المجتمعات تقدما تصدر الجريدة اليومية من وقت لآخر عمودا عن النصائح المتعلقة بالتنجيم رغم أن علم التنجيم قد افتضح أمره منذ فترة طويلة على اساس انه علم زائف وكاذب وغير حقيقى . ومع ذلك فقد استمر هذا العلم الزائف لأن تنبؤاته مبهمة وملتبسة للغاية حتى انه من السهل نسبيا مواءمة الرسائل التى نتلقاها مع التوقعات المرنة التى يخلقها التنجيم ، ومن المحتمل أن تعطى التنبؤات بعض الناس احساسا بالأمن تجاه المستقبل فى عالم يبدو أمامهم مليئا بالاخطار والتقلبات .

فكيف اذن تمكنت الثقافة الفرعية العلمية لدى تطورها اعتبارا من القرن السابع عشر فصاعدا من انتاج صورة ذهنية عن العالم تتسم بالحقائق المتزايدة باستمرار على الاقل من ناحية السيطرة على الطبيعة ؟ ويمكن الاجابة على هذا التساؤل على النحو التالى : أولا كانت الصورة الذهنية العلمية عن العالم مهتمة بوجه عام بمظاهر الحقائق التى لم تتضمن هوية الناس الذين يستوعبونها . وهذا ليس صحيحا تماما . فلعلنا نذكر ان جاليليو (٢٥) كانت تواجهه صعاب كثيرة فى التوفيق بين هويته الخاصة كعالم وبين هويته كرجل كاثوليكى . وحتى فى القرن العشرين نجد ان العلماء فى الاتحاد السوفيتى (٢٦) قد مروا بمتاعب لدى التوفيق بين هويتهم كعلماء وبين هويتهم كاشخاص روس أو شيوعيين وخاصة فى مجال البيولوجيا (علم الاحياء) . ولكن لاسباب لا تعتبر حتى الآن واضحة تماما ابتكر المجتمع العلمى خلال تطوره مبدأ اخلاقيا ينص على أن الحقيقة لها اسبقية على أية هوية فردية مهما كانت درجة الاعتزاز بتلك الهوية الفردية . فطبقا للمبدأ الاخلاقى العلمى فانه من المفروض أن يشعر العالم بالانتهاج لو ثبت خطأ

النظرية العلمية الخاصة وهذا الابتهاج من الناحية العملية يكون ابتهاجا معتدلا فى اغلب الاحيان . فالعلماء بشر وآدميون ، وهوية الانسان مرتبطة بشكل أوثق مما نظن بالنظريات الخاصة التى انشأها أو تبناها . ولقد كانت هناك حالات عديدة فى تاريخ العلم تتسم بالخلافات الشخصية المريرة حيث كان احجام العلماء عن التضحية بالنظريات التى بنوا عليها هويتهم الخاصة بهم بمثـــابة اعاقة حقيقة لتقديم المعـــرفة . الا أن هذه الحالات كانت هى الاستثناء . وليست القاعدة . ويجب أن نرجع قدرا كثيرا من نجاح طائفة العلماء فى مجال تقدم المعـــرفة الى المبـــدأ الذى ينص على أن الاخلاص الموضوعى للحقيقة يعتبر هو اعلى القيم التى ينبغى أن تخضع لها كل من الاعتزاز الشخصى والتباهى القومى .

والسبب الرئيسى الثانى فى نجاح الطائفة العلمية هو أنها قامت بحماية نفسها ضد رفض قبول الاستدلالات الخاصة بها أو رفض قبوله رسائلها أو ملاحظاتها . فاذا فشلت الملاحظات فى تاكيد صورة ذهنيـــة نظـــرية تكون الطائفة العلمية قد حمت نفسها . ضد الوقوع فى استدلال خاطىء وذلك عن طريق التوسع فى استخدام علوم الرياضيات فى نماذجها النظرية وفى التوقعات التى تستنتج منها . وهذا يعنى أنه كانت هنـــاك حاجة للاستدلالات التى لا يمتلكها نظام الاستدلال التجريبى البحت . فاستدلالات العلم لا تستقى من الملاحظة وانما تستقى من النظريات . وهذه نقطة هامة لا تلقى الفهم السليم فى اغلب الاحيان . فنحن قد لاحظنا أن الشمس قد اشرقت مرات عديدة فى الماضى ومن ثم فاننا نستنتج عن طريق اسقاط بسيط للتجـــارب الماضية أن الشمس سوف تشرق غدا . وهذا ليس استدلال علمى وانما هو استدلال تجريبى . وفى الانظمة المعقدة يمكن أن يكون الاستدلال التجريبى خاطئا بكل سهولة . مثال ذلك أن الزوجين اللذين عاشا فى سعادة على ما يبدو على مدى خمسة وعشرين عاما قد يحدث الطلاق بينهما فجأة . والدول التى ظلت معادية لبعضها البعض لعدة قرون قد تتصالح فجأة . والكلب الذى ظل وديعا لعدة سنوات قد يعض سيدة فجأة . اما الاستدلال العلمى فهو على العكس من ذلك لانه يقوم على منطق النظام فى حد ذاته . ومن ثم فان حركة

الكواكب تستنتج من قانون التربيات المعكوسة
بواسطة ضرورة منطقية أو رياضية . ولذلك فان الاستدلال العلمى يأخذ
دائما شكل الاستدلال المشروط . « لو ان أ صحيح عندئذ يكون ب صحيح » .
المثارة عمدا .

بل ان المسألة اوضح بالنسبة للانظمة الاجتماعية . فغالبا ما يكون
حقيقة الامر . وكل ما يفعله هذا الاستدلال هو انه ينشيء علاقة ضرورية
ايضا للوقوع فى خطأ منطقى . الا ان الخطأ المنطقى له خاصية فريدة وهو
انه ما ان يتم اكتشاف هذا الخطأ فانه من الصعب للغاية تكراره مرة أخرى .
بمعنى ان المنطق هو نظام اجتماعى يكون الخطأ فيه له دائما عمر محدد .
كذلك توجد هناك مكافآت مجزية من أجل اكتشاف الخطأ لذلك فانه من النادر
للغاية أن يستمر الخطأ المنطقى بدون اكتشاف لفترة طويلة .

وتعتبر حماية الانسان لنفسه ضد الخطأ فى الرسائل أو الملاحظة اكثر
صعوبة من حمايته لنفسه ضد الخطأ الخطأ فى المنطق . وتقدم العلم فى هذا
الشأن يرجع الى حد كبير الى سلسلة من الابتكارات الرائعة الموجهة نحو
زيادة مدى وحساسية جهاز استقبال الرسائل فى الانسان . وليس من قبيل
المصادفات أن التقدم العظيم للعلم بدأ مع اختراع التلسكوب والميكروسكوب .
فكلاهما يمثلان بالفعل امتدادا للعيون الانسانية : أحدهما فى مجال ادراك
الاشياء الكبيرة البعيدة والآخر فى مجال ادراك الاشياء الصغيرة القريبة .
وتستمر عملية التوسع فى حواس الانسان فى هذه الايام عن طريق استخدام
الميكروسكوب الالكترونى وعلم الفلك الاشعاعى . كما تستمر هذه العملية
فى العلوم الاجتماعية عن طريق تطوير الوسائل الاحصائية اللازمة لفهرسة
ومعالجة كميات كبيرة من المعلومات وايضا عن طريق تطوير اخذ العينات
ودراستها مما يوسع مدى الملاحظة الانسانية من مجرد البيئة الاجتماعية
المحيطة بالانسان الى المجتمع بصورة عامة . وكلما كانت وسائل الملاحظة
دقيقة كلما اصبحت الانظمة النظرية والاستدلالات المشتقة منها دقيقة ايضا .

ومن ثم يمكن تلخيص منهج العلم باختصار شديد فنقول انه فى الثقافة

الفرعية العلمية يتم خلق التوقعات عمــدا عن طريق الاستدلالات اللازمة المترتبة على النماذج النظرية وذلك فى نطاق الملاحظات التى تتمشى مع دقة الجهاز الموسع للحواس البشرية . فاذا احبطت هذه التوقعات فانه ينبغى عندئذ اعادة تنظيم الصورة الذهنية أو النماذج التى بنيت عليهــا ، حيث لا يوجد اى احتمال لرفض الاستدلال ويوجد احتمال ضئيل للغاية فى رفض الرسائل التى لا تتوافق مع التوقعات . وربما يكون المثال الكلاسيكى لهذه العملية هو تجربة مخليصون/مورلاى Morly ic عن سرعة الضوء .

القول بأن سرعة الضوء تكون مختلفة فى الاتجاهات المختلفة . وأثبتت أن ذلك ليس صحيحا فأدى هذا الى اعادة تنظيم جذرى للتصور العلمى عن المكان والزمان مما أسفر عن نظرية النسبية . لأشتين العالم الالمانى الاصل ذو الجنسية الامريية .

ان الفارق الجوهرى بين الصور الذهنية العلمية وبين الصور الذهنية السابقة على العلم او الصور الذهنية لدى الدهماء يمنك توضيحه بأن نسوق مثالا عن السيطرة على الامطار . فالعديد من الشعوب البدائية كانت تعتقد أن رقتصات الامطار تؤدى الى سقوط المطر ، بل ان هذا الاعتقاد راسخ بعمق فى كيان القبيلة حتى أن اى انسان يشكك فى مدى فاعليته يعتبر رافضا لكيان القبيلة بأكمله مما يعرضه للطرد من القبيلة ومن ثم يضطر الى السكوت وعدم اثارة المتاعب . وهذا استدلال تجريبى وليس استدلال منطقى . اذ لا يوجد هناك نظام رياضى أو منطقى يمكننا بمقتضاه اظهار اية صلة ضرورية بين رقصات الامطار وبين المطر . والمنطق الموجود هنا هو عن طريق القياس التمثيلى Meauring مجرد جدل على هذا النحو : « ان الآلهة ينزلون المطر اذا شعروا بالسرور والبهجة . والناس تسعدهم الرقصــات لذلك سيشعر الآلهة بالسعادة عن طريق الرقصات ، ومن ثم فان الرقص يؤدى الى سقوط الامطار » . والصورة الذهنية التى تقول أن رقصات المطــر تنتج الامطار هى صورةص راسخة ليس بسبب أن التشكيك فيها هو تشكيك فى كيان القبيلة ولكن أيضا بسبب انه لا يوجد هناك فعلا وسيلة لادحاض استدلال تجريبى صرف . فهناك افتراض بأن رقصات المطر تؤدى الى المطر .

واذا تم الرقص ولم تمطر السماء فهذا يؤكد أيضـــا الافتراض . فالرقص فاذا تم الرقص ونجم عنه سقوط الامطار فهذا بلاشك يؤكد الافتراض . الخاص بانزال الامطار هو رقص معقد ويمكن أن يؤدى بطريقة خاطئة . لذلك اذا تم الرقص ولم يسقط المطر فى أعقابه عندئذ يتم البحث عن الامور الخاطئة أو الخلل الذى ظهر فى الرقص . ومن ثم فان الافتراض بأن رقصها الامطار الذى يؤدى بطريقة سليمة يفضى الى سقوط الامطار يظل افتراضا سليما .

ولننظر فى المنهج العلمى لاسقاط الامطار عن طريق زراعة السحب . وحقيقة الامر ان هذه الوسيلة ليست أكثر نجاحا من رقصات الامطار . الا فطبقا للتصور الذهنى القديم لدى نيوتن عن المكان والزمان نجد ان الحقيقة التى تقول بأن الكرة الارضية لها سرعة ضوء ظاهرية عبر المكان يترتب عليها انها قائمة على احدى عمليات نمو المعرفة والتى تختلف تماما عن رقصات الامطار . فالملاحظة على الطبيعة باستخدام اجهزة وآلات حساسة قد بين لنا ان السحب تتكون من قطرات صغيرة من الماء وان هذه القطـــرات لو اصبحت كبيرة الحجم عندئذ يتساقط المطر ويمكن أن يوضح رياضيا أنه تحت ظروف معينة توجد علاقة بين حجم نواة الذرة وبين تكوين هذه القطرات . ومن ثم يستنتج من ذلك انه اذا نثرنا ترابا دقيقا للغاية ولتكن مادة يوديد الفضة Silver على السحاب من طائرة محلقة فان هذا سيؤدى الى تكثيف القطرات ــ وهو أمر لم يكن ليحدث بدون استخدام هذه الطريقة ــ وهو أمر لم يكن ليحدث بدون استخدام هذه الطريقة ــ مما يؤدى بالتالى الى سقوط الامطار . ولكن مما يؤسف له أن الجو يعتبر من الانظمة البالغة التعقيد حيث يتضمن فى داخله العديد من المتغيرات الاخرى كثيرا ما تحبط التنبؤ . الا أن التنبؤ مبنى على استدلال منطقى فليس على استدلال تجريبى. ولذلك كلما قمنا بالمزيد من الملاحظات كلما تطورت النظريات الى الافضل واذا فهمنا على نحو أفضل النظام السائد فى الجو ستكون لدينا فرصة افضـــل للسيطرة عليه . وبينما أن الصورة الذهنيـــة لدى الدهمـــاء هى بطبيعتها صورة جامدة غير متغيرة نجد ان الصورة الذهنية العلمية خاضعة باستمرار للمراجعة فى ضـــوء المعلومات المكتسبة عمـــدا وفى ضـــوء الاحبـــاطات

ويبقى أن نوضح العلاقة ما بين تطوير العلم من ناحية وبين تطــوير التكنولوجيا من ناحية اخرى . ان التنمية الاقتصادية تكمن أساسا فى تحسين ما سماه آدم سميث (٢٧) « بالقوى الانتاجية للعمل » . وهذا معنــاه ببساطة ان الانسان بمقدوره أن ينتج أكثر من ذى قبل بمقــدار ساعة من العمل . ومما يثير الاهتمام أن آدم سميث كان قد حدد فى وقت مبكر يرجع الى عام ١٧٧٦ الاسباب الرئيسية التى تؤدى الى تحسين القوى الانتاجية للعمل من حيث ارتباطها بنمو المعرفة . ويذكر لنا ثلاثة أسباب رئيسية . السبب الاول هو تزايد البراعة اليدوية والعقلية والمهارات التى تجىء مع نظام تقسيم العمل والتى تنبع من الحقيقة التى مفادها أن الانسان يخصص نفسه باستمرار لمزاولة حرفة واحــدة محددة . وهذه أساسا عملية تعلم الجهاز العصبى السفلى The operation of the Simpatic . فصــــاحب الحرفة أو العامل الماهر يتعــلم مهارته عن طريق المحاولة والخطأ وعن طريق الممارسة المتكررة على نفس المنوال الذى يتعلم به الطفل الرضـــيع المشى . والسبب الثانى الذى يســوقه آدم سميث ويقــول أنه يؤدى الى التنميـــة الاقتصادية هو ذات اهميـــة ثانوية . وخلاصته أن النـــاس بعد أن أصبحوا متخصصين فى مهنة واحــدة محــددة فهم بذلك يوفرون الوقت الذى يفقــد عادة لدى الانتقال من مهنة لاخرى . وهذا أيضــــا توفير فى عملية التعــلم . فالامر يتطلب منــا بعض الوقت حتى عنــدما نعــود الى تعــلم مهنة قديمة لكى نبدأ فى « التحمس » والتعــلم من جديد للمهارة القديمة . والسبب الثالث الذى يســوقه آدم سميث يعتبر اهم الاســباب . أنه « اختراع العــدد الهائل من المكاينات التى تسهل العمل وتختصره وتمكنا لرجل الواحــد من القيام بعمل العــديد من الرجال » . ويقول آدم سميث أن تطوير الماكينات يحدث عن طريق ثلاثة أنواع مختلفة من العمليات . أولا قد يكون هناك تحسن يقوم به العمال الذين يقــومون بالفعل بتشغيل الماكينات . ثانيا قد تكون هناك تحسينات يقوم بهــــا الصــانع المتخصص للماكينات حيث يكون كل واحــد متلهف على تحسين

موقفه التنافسى فى هذا المجال وذلك بصنع ماكينة افضل . الا ان السبب الثالث يعتبر اهم الاسباب جميعا على المدى البعيد . وهو ما يمكن الثالث فاننا نورد فيما يلى هذا النص عنه « الا ان جميع التحسينات ان نطلق عليه : البحوث والتطوير . ونظرا لاهمية هذا السبب التى ادخلت على الآلات والماكينات عموما لم تكن باى حال من الاحوال من ابتكارات أولئك الذين اتيحت لهم الفرصة لاستخدام الماكينات . فالعديد من التحسينات قد تمت بواسطة براعة صناع الماكينات عندما اصبحت هذه التحسينات من المسائل المتعلقة بتجارة معينة ، وبعض هذه التحسينات قد تم بواسطة براعة أولئك الذين يسمون فلاسفة او رجال فكر الذين لا يفعلون اى شىء وانما يلاحظون كل شىء وبذلك يكونون قادرين فى الغالب على الربط بين الاشياء المتباعدة للغاية والمتباينة الغاية . ولدى ارتقاء المجتمع تصبح الفلسفة أو التامل — شأنها شأن كل وظيفة اخرى — هى الحرفة الرئيسية أو الوظيفة الوحيدة لطبقة معينة من المواطنين . وهذه الحرفة او الوظيفة — شأنها شأن اى حرفة اخرى — تنقسم الى عدد كبير من الفروع المتباينة ، يعطى كل فرع منها حرفة لقبيلة معينة او لطبقة من الفلاسفة ، وهذا الفرع سواء فى الفلسفة او فى اى عمل آخر يحسن البراعة ويوفر الوقت . يصبح كل فرد اكثر براعة فى الفرع الخاص به ويتم انجاز المزيد من العمل بصفة اجمالية وتزداد كمية العام زيادة كبيرة بواسطة هذا الفرع » (*) .

ان هذه الفقرة المقتبسة من كتاب آدم سميث والتى تتسم ببعد النظر تتنبأ بتنمية كانت لا تزال قليلة الاهمية فى أيام آدمز : نمو البحوث التطبيقية المنظمة فى مجال تنمية المعرفة المفيدة والوسائل المتقدمة للانتاج .

فيما سبق كان تقدم التحسينات العلمية فى مجال الانتاج من الموضوعات التى تتعلق الى حد بعيد بالمعرفة الخاصة بالجماهير فكانت تكتشف بواسطة المهارة غير لاواعية او بالصدفة أو عن طريق الملاحظة اللبقة وتنتقل من شخص لآخر عن طريق الاتصال الشخصى بين أسطى الحرفة وبين صبيان الحرفة التابعين له . ورغم أن التحسن يكون بطيئا الا أنه يكاد دائما فى الاتجاه الايجابى العملى مع وجود انعكاسات محلية . ولكن قبل عصر العلم كان الانسان يأستغرق وقتا طويلا للغاية لكى يفكر فيما يبدو لنا ابتكارات ميكانيكية أو أشياء واضحة للغاية مثل الركاب Passingers. أو الكرنك Karnk وحتى عندما تخترع يكون انتشار الوسائل المحسنة بطيئا للغاية فى أحوال كثيرة . ان الصورة الذهبية العلمية عن العالم تقدم لنا وسائل للتكنولوجيا لم يكن بالامكان تحقيقها فى الماضى . اذ لم يكن بمقدور القدماء على الاطلاق انتاج دينامو أو صناعة الالمونيوم أو اطلاق الطاقة النووية أو صناعة طائرة يمكن استخدامها فى اطلاق الطاقة النووية أو صناعة ماكينة الاحتراق الداخلى اللازمة فى اطلاق الطاقة النووية ايضا .

هذا بالاضافة الى ان التكنولوجيا القائمة على العلم تساهم فى النمو السريع للعلم فى حد ذاته . ومن الصعب ان نذكر اى تقدم فى العلم البحت لم يفتح الباب أمام تقدم جديد فى التكنولوجيا . وتوجد نسبة كبيرة للغاية من الناس فى الدول المتقدمة اليوم يشتغلون فى انتاج بضائع وخدمات لم تكن معروفة لاجدادهم على الاطلاق . وربما ان هذه العملية ستتحرك فى النهاية نحو الوقوف عند حد معين وأن معرفة الانسان عن الكون وكذلك التكنولوجيا التى توصل اليها سوف تتوقفان فى النهاية عند حد معين . الا أن ذلك اليوم الذى سيتوقف فيه العلم والتكنولوجيا بعيد للغاية على ما يبدو . فنحن لم نكيف أنفسنا مع الثورة

النووية ، كما أن التقـدم المثير اثناء الجيل الحالى فى العلوم البيولوجية يوحى باننـا سنشهد توسعا فى قوى الانسان اشـد روعة وخطورة واثارة للرعب . وتأتى العلوم الاجتماعية فى اعقاب العلوم البيولوجية . اذ نجـد أن العلم الاجتماعى قد بدأ بالفعل يتحـدى الصور الذهنيـة لدى الدهماء عن الانسان والمجتمع بطريقة تعتبر مقلقـة الى حد بعيـد للوسائل القديمة والمترسخة . وعلى كل حال فهذا هو الموضـوع الذى يتطرق اليه الفصل التالى .

الفصل الثالث

أهمية العلوم الاجتماعية

ان الثورة العلمية لم تكن مقصورة على الصورة الذهنية لدى الانسان عن العالم الطبيعي أو البيولوجي . بل أن الثورة العلمية قد امتدت لتشمل صورة الانسان الذهنية عن نفسه وعن المجتمع الذى ابتدعه والذى هو نفسه كفرد يعتبر جزءا لا يتجزا من المجتمع . هذا هو مجال العلم الاجتماعى الذى يشمل عادة : علم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الانثربولوجيا . ويجب ان تتضمن هذه القائمة بعض نواحى الجغرافيا والتاريخ وعلم اللغة . فالجغرافيا من بعض النواحى تدرس جميع العلوم من حيث علاقتها بالتوزيع على سطح الكرة الارضية ، والجغرافيا البشرية تعتبر عنصرا هاما وحيويا فى العلوم الاجتماعية . والتاريخ له وضع غامض وملتبس بعض الشىء . فهو من بعض النواحى يقدم المادة الخام لجميع العلوم لان تسجيل الماضى هو المادة الخام الوحيدة التى لدينا . ولان المؤرخ يتناول على ما يبدو النظام الاجتماعى بوجه عام على النحو الذى هو عليه فى الزمان والمكان فانه يكون أيضا غير راغب فى تطوير نماذج نظرية بسبب تعقد نفس النظام الاجتماعى الذى يتناوله . فعادة ما تكون مشكلة اختبار الانظمة النظرية صعبة فى التاريخ ولذلك فليس من المدهش ان نجد ان المؤرخ كثيرا ما يحتل مكانا قلقا بين العالم الاجتماعى من ناحية والعالم فى الدراسات الانسانية الادبية من ناحية اخرى . وكذلك نجد ان كلا من الدراسات الادبية واللغوية تتأرجح ما بين الانسانيات والعلوم الاجتماعية .

وكثيرا ما تبدو العلوم الاجتماعية غير ناضجة وذلك بمقارنتها بالعلوم

الفيزيقيــة الطبيعية بل وبمقرانتها بالعلوم البيولوجية . فالعلوم الاجتماعية لا يمكنها ان تدعى انها أحرزت اى نجاح عملى رائع مثل اطلاق الطــاقة النووية أو القضاء على مرض معين . وأحيانا ما يفسر عدم النضج هذا بأن العلوم الاجتماعية ما زالت علوما جــديدة ناشئة . الا أن العـــلوم الاجتماعية ليست حديثة على النحو الذى يفترضه البعض أحيــانا . فتاريخ ميلاد اى علم هو الوقت الذى يتم فيــه لاول مرة تشكيل بنيــانه النظرى الاساسى ، بنيان نظرى يكون آنئذان قابلا للتعديلات والتحسينات الدقيقة فى ضوء المزيد من الشواهد والدلائل والبراهين . ومما لا شــك فيــه ان التاريخ الحاسم لمولد العــلوم الطبيعية هو ظهور كتاب « المبادىء الاســـاسية » لاســـحاق نيوتن فى أواخــر القــرن السابع عشر . وربما تكون العلوم الاقتصادية هى ثانى العلوم من حيث القــدم بعد العــلوم الطبيعية ، لانها قد وصلت الى مرحلتها الحاسمة مع آدم سميث فى عام ١٧٧٦ . فنحن نجد فى كتــاب « ثروم الامم Wealth of Nations جميــع العنـــاصر الاســاسية لمذهب نظــرى ، وكل الذى حـــدث فى العلوم الاقتصادية الى حد ما منذ ذلك الحين لم يكن سوى تعـــديلات وتحسينات للمذهب الاساسى الذى وضعه آدم سميث . والكيميــاء هى العــلم الثـــالث من حيث تاريخ الاقدميــــة . اذ وضــع دالتــون الصيغة النظرية الاساسية للكيمياء فى أوائل القرن التاسع عشر . ووضع داروين Darwin فى منتصف القرن التاسع عشر اسس تطوير العلوم البيولوجية . ولكنه من الصعب تحــديد تواريخ مماثلة بالنسبة للعــلوم الاجتماعية الاخرى نظرا لان الصياغة النظرية قد بزغت فى مزيد من البطء بالاضافة الى انها لم ترتبط باى انجازات شخصية مذهلة وبالغة التأثير . الا انه يمكن القول ان علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثربولوجيـــا قد ولدوا فى أوائل القرن العشرين أو اقتربوا من موعد الولادة . أما العلوم السياسية فهى أحدث العــلوم جميعا وهى آخذة الآن فى البــدء فى التكون العلمى الحقيقى .

ومن أهم مظاهر الثورة العلمية بوجه عام هو ذلك الصراع المستمر بين الصــــور الذهنيـــة لدى الدهماء عن العالم والتى تبنى على التجربة العادية للانسـان وتعميمه لهذه التجـــربة وبين الصور الذهنية العلميـــة التى تنشأ عن التوسـع المنظم للمعرفة . والاختــلاف الاسـاسى بين المعرفة العلميـــة والمعرفة لدى الدهماء ـــ كما هو مبين فى الفصل الســـابق ـــ هو أن المعرفة لدى الدهماء تستقى أسـاسا من الاســـتدلال التجـــريبى ومن الملاحظة العابرة بينما المعرفة العلمية وفقا للمنطق الرياضى ، ومن الملاحظات المنظمة بدقة بمساعدة الاختراعات التى تزيد من قوة الحواس . وكثيرا ما تكون الصور الذهنية العلمية غير متوافقة مع الصور الذهنية لدى الدهماء ونظرا لانه من المؤلم دائما التخلى عن صورة ذهنية فان الصراع ينشأ بين الاثنين . وعادة ما تضمن القـــوى المتفوقة الخاصـــة بالصور الذهنية العلمية النصر للصورة الذهنية العلمية على الصورة الذهنيـــــة الجماهيرية المنافســــــة ولكن رغم ذلك قد يدوم الصراع المرير لفترة طويلة .

فالقرن السـابع عشر والثامن عشر قد شـهدا ـــ على سـبيل المثال ـــ انتصار آراء كوبرنيقوس ونيوتن (٢٨) بشـأن الكون على الصورة الذهنية لدى الدهماء بأن الارض منبسطة وان الشمس والأجـــرام السـماوية تجرى فى مسـاراتها ودروبها عبر قبـــة السـماء ، بل وانتصارها على الصـــورة الذهنية الاقل سذاجة ـــ وهى صورة ما زالت ناقصة من الناحية العلمية ـــ لدى العـــالم الفلكى بطليموس الذى قال ان الارض هى مركز الكون او تقع فى وسط الكون . الا أن هذا الانتصار لم يتم تحقيقـــه بســــــهولة وبدون تكاليف . ان الصورة الذهنية لدى الدهماء عن المكان والزمان تتسم بأن الانسان يقع فى وسط كون صـــــغير وميح للغـــاية يحيط به . أما الصورة العلمية فانها تشـــير الى أن الانسان يشغل كوكبا صغيرا للغـــاية يدور حـــول شمس صغيرة تقع عند لسـان بعيد وتافه لمجـــرة تافهة فى عالم

يضم مليون مجسرة . وهذا التغير قد يخلق تشويشا عميقا على احترام الانسان لنفسه اذا لم يصاحبه تغير معين فى قيمه نحو مزيد من التواضع . كذلك نجد أن وجهة النظر عن نشوء وتطور تاريخ الحياة والكون والتى سادت فى القرن التاسع عشر قد أدت الى توسع هائل فى صورة الانسان الذهنية عن نطاق الزمن ، وذلك على خلاف التصور الذهنى لدى الدهماء الذى يشير الى خلق معين والى تاريخ يصل الى ستة آلاف سنة فقط . ولقد كان هناك أيضا صراع طويل بين الصورة الذهنية والعلمية والصورة الذهنية لدى الجماهير فى مجال مهنة الطب ، ولم يتمكن الطب من البزوغ كعلم قادر على شفاء الكثير من الامراض الا فى خلال الـ ٢٠٠ سنة الاخيرة .

ونحن فى القرن العشرين نواجه الآن صراعا مماثلا بين الصور الذهنية لدى الجماهير عن الانسان نفسه ومجتمعه وبين الصور الذهنية العقلانية التى تتكون حاليا عن طريق العلوم الاجتماعية . ولا أريد أن اشير هنا — وخاصة فى هذه النقطة بالذات — الى أن الصور الذهنية العلمية تكون صادقة دائما وأن الصور الذهنية لدى الجماهير تكون دائما زائفة . ففى خلال التاريخ نجد ان العلم قد أنتج العديد من الصور الذهنية الزائفة كما أن هناك عناصر شعبية قوية فى كثير من وجهات النظر التى تستحق اسم العلم وخاصة فى العلوم الاجتماعية .

هذا بالاضافة الى أن الانسان هو كيان بالغ التعقيد ومجتمعاته تعتبر اشد تعقيدا . والانسان يتوصل الى المعرفة عن ذاته عن طريق الملاحظة الخارجية وأيضا عن طريق التسامل الداخلى والاستيطان (*) . وتطبيق المنهج العلمى على الملاحظة الخارجية يعتبر اسهل بكثير من تطبيقه على الملاحظة الداخلية . لذلك فلا غرابة فى أن العلوم الاجتماعية قد اتجهت نحو اهمال المعرفة التى استقيت من الملاحظة الداخلية

(*) الاستيطان : فحص المرء لدوافعه ومشاعره وافكاره .

وكثيرا ما تركت هذا المظهر من مظاهر معرفة الانسان عن نفسه الى الشعراء وكتاب المسرح واتباع الفلسفة الانسانية (**) . .

وهناك فارق رئيسى بين معرفة الانسان عن نفسه وعن مجتمعه الخاص به وبين معرفته عن الكون الغير انسانى . وفى حالة العالم الغير انسانى يكون مصدرنا الوحيد للمعرفة هو الملاحظة الخارجية . فالعالم الفيزيائى لم يكن فى اى وقت من الاوقات الكترون (شحنة كهربائية سالبة تشكل جزءا من الذرة) والعالم البيولوجى لم يكن فى اى وقت من الاوقات خلية . ولكن على العكس من ذلك نجد ان العالم النفسانى رجل وان العالم فى علم الاجتماع كان عضوا فى اسرة ، بل ونجد ان العالم الاقتصادى قد انفق نقودا من وقت لآخر . لذلك فان الرجل لدى دراسته لنفسه يسلك فى كلا المسارين : المسار الداخلى Inside Track والمسار الخارجى Out Side Track . والمسار الداخلى ينشا من الحقيقة التى مفادها انه هو نفسه مثالا للنظام الذى يدرسه .لذلك يكون لديه معرفة داخلية عن ذلك النظام وهو امر غير متوفر لديه لدى دراسته للأنظمة الخارجية .وهو فى المسار الخارجى يكون قادرا على دراسة نفسه كشىء خارج نطاق نفسه . وكثيرا ما يكون المسار الخارجى مرتبطا بالمعرفة العلمية والمسار الداخلى مرتبطا بالمعرفة الجماهيرية او الانسانية الكلاسيكية . وكثيرا ما يميل العالم الاجتماعى الى استهجان المسار الداخلى والادعاء بانه يعمل وفق المسار الخارجى فقط . الا اننا اذا نظرنا الى العلماء الاجتماعيين فى شىء من الدقة والتمحيص سنجد انهم فى حقيقة الامر يعتمدون فى جميع الحالات التى يقومون بها على قدر ضئيل من المعرفة الداخلية والملاحظة

(**) الفلسفة الانسانية هى فلسفة تؤكد على قيمة الانسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل وكثيرا ما ترفض الايمان باية قوة خارقة للطبيعة .

الداخلية ، كما سنجد ان نماذجهم النظرية مدينة بقدر كبير لقدرة الانسان على معرفة ذاته من الداخل .

وعلى عكس الموقف فى علم الفلك — على سبيل المثال — نجد أن الصراع بين الصور الذهنية العلمية والصور الذهنية الجماهيرية فى العلوم الاجتماعية ليس صراعا غير متكافىء كلية ولا يحسم بالضرورة عن طريق انتصار واضح لجانب على الآخر . أو بمعنى أصح اننا قد نتوقع توقعا معينا بل ومساعدة متبادلة فى الجانبين الخاصين ببحث الانسان عن المعرفة عن نفسه . فعلم النفس لا يدمر فراسة شكسبير (٢٩) ونفاذ بصيرته فى الطبيعة البشرية رغم انه قد يوضح غوامض هذه الفراسات ويدعمها . وينبغى علينا أن نتوقع ان يتم اثراء الادب فى نهاية الامر عن طريق المعرفة المستقاة من العلوم الاجتماعية . كذلك فان العلماء الاجتماعيين لن يتغاضوا عن حالات الفراسة ونفاذ البصيرة العميقة التى تستقى من الشعراء وسوف يستخدمون هذه الحالات فى تكوين النماذج النظرية .

وفرويد (٣٠) هو مثال صادق للانسان الذى ربط بطريقة خلاقة بين البصيرة الشعرية أو البصيرة الانسانية وبين طرائق الملاحظة الدقيقة التى تتميز بها العلوم . وحقيقة الامر أن الثورة الفرويدية Froid Revolution فى مجال الصور الذهنية لدى الانسان عن نفسه قد أسفرت عن تحول أساسي يكاد يكون فى نفس حجم وضخامة الثورة الكوبرنيقية Coprnik revolution فى مجال صوره الذهنية عن الفضاء Space . وهذا على الرغم من أو ربما بسبب الحقيقة التى مفادها أن الطريقة الفرويدية ليست علما خالصا وانما توجد بها عناصر قوية من المعرفة الجماهيرية والانسانية الكلاسيكية . اذ نجد على سبيل المثال ان المصطلحات الفنية التى استخدمها فرويد مستقاة الى حد كبير من الدراما الافريقية الكلاسيكية وهذا فى حد ذاته دليل واضح على ان الطريقة

الفرويدية مدينـة للبصيرة الشعرية الا أنها مع ذلك تعتبر طريقة واقعـة فى نطاق المجـال العلمى نظرا لانها خاضعة للفحص والاختبار . ولكن نظرا لان الطريقـة الفرويدية بالغـة التقيـد فان هذا الفحص والاختبار يكون غاية فى الصعوبة . الا أننـا نتوقع أن يتم تعـديل هذه الطريقـة ، بل ونتوقع أن تتغير بعض مظاهرها تغيرا جذريا فى ضـوء المزيد من التجـارب المنظمة . فمن الواضح — سبيل المثال — أن العديد من القـواعد Reguler النظرية الفرويدية قابلة للتطبيـق فى حدود ضيقة لانهـا مستقاة أسـاسا من الثقافة الفرعية لفينـا البرجوازية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ومن المسلم به أن الثقافات المختلفة تنتج انواعا مختلفة من التشويش والاختلال . الا ان التصـور أو المفهـوم الاساسى للاشـعور وكذلك التصـور الاكثر جوهرية بأن الحالة الحاضرة للشخص هى نتيجة مجموع خبرته حتى الوقت الحاضر يظلون متواجدين فى جميع الثقافات . وعندما يتعمق ويتراكم الوضـوح والجلاء والبرهان فاننا نكتسب معرفة أكثر دقة عن العلاقات الخاصـة فى كل ثقـافة بين — على سبيل الافتراض — خبرات الطفولة وسلوك البالغين سـن الرشد .

كذلك فى علم الاقتصاد نجـد تطور الصور الذهنية العلمية والصور الذهنية النظرية للنظام الاقتصادى ابتداء من آدم سميث حتى يومنا هذا . فهذه الصورة فى كثير من جوانبها مختلفة تماما عن الصورة الذهنيـة الجماهيرية لما يكون عليه النظام الاقتصادى . فالصورة الذهنيـة الجماهيرية عن الاقتصـاد تستقى بواسطة التعميم الناجم عن الخبرة الشخصية . أما عالم الاقتصاد فهو على العكس من ذلك لان لديه تصور ذهنى عن النظـام الاقتصادى بوجه عام ، ولذلك فهو يعـرض خصائص لا وجود لها فى التجربة الفردية . وهكذا نرى أن النفقات والايرادات — بالنسبة للفـرد — هما أمران مختلفان تماما وقد يسمح لأحدهما بتجـاوز

الآخــر بدون ان صعوبات . اما من وجهة نظر النظام الاقتصادى المغلق بوجه عام فان النفقات والايرادات هى نفس الشيء تماما نظرا لان كل نفقــات هى بمثابة ايرادات لشخص ما آخــر وكل ايرادات هى بمثابة مصروفات من جانب شخص ما آخر . لذلك فان الانظمة الاقتصادية المغلقة ترى انه من المستحيل أن يكون هنــاك اختــــلاف بين اجمالى الايرادات واجمالى المصروفات . فالفرد ينظر الدين من وجهة نظره على اساس انه مديونية بحتــة واجبــة السداد ، اما العالم فى الاقتصاد فانه ينظــر الى كل مديونية على اساس انها ممتلكات أو أموال تابعة لشخص ما آخــر ، ومن ثم فان له اتجاه مختلف تماما ازاء الدين وخاصة الدين على المستوى القومى . ومن هنا نرى أن هنــاك صراعا بين وجهة النظر الفنيــــة الخاصة بالعالم الاقتصادى وبين وجهة النظر الساذجة الخاصة بالشخص الذى ليس له خبرة فى هذا المجال . وتنشأ صراعات من هــذا القبيــل فى الانظمة الاقتصـــادية الاشتراكية مثلما تنشأ فى الانظمة الاقتصـــادية المعتمــدة على الســوق Market . فعالم الاقتصـــاد المثقف المتواجد فى مجتمع اشتراكى يدرك — على سبيل المثــال — ان نظام الاســـعار Price System بل وحتى معدل الفائدة لهما مهمـــة اقتصادية اساسية . والجدير بالذكر ان العضو العادى فى الحزب الشيوعى ورئيس الادارة فى الحكومة السوفيتية بل وحتى صانعوا القرار يعتبرون نظام الاســعار عدوا ينبغى قهره والقضاء عليه ويرتكبون العـــديد من الاخطاء المهلكة فى السياسة نتيجة لذلك .

ان الاكتشافات التى توصل اليها علم النفس الاجتماعى بدات تؤثر بالفعل على بنيان وادارة الهيئات سواء فى القطـــاع التجارى او القطاع الحكومى . فالجو العام للعلاقات الصناعية بالدول المتقـــدمة قد تغـــير تغـــيرا عميقا بسبب تطبيق مبادىء معينة نشأت فى بادىء الامر فى العلوم الاجتماعية . والاكتشافات التى توصـــل اليها علم الانثربولوجيا احدثت

تأثيرا عميقـا على الكيان الاستعمارى بأكمله وعلى الاعمال البشرية . وهذه التغييرات لا تحـدث بدون جهد وتوتر ، وحيث يكون التوتر شـديد للغـاية تظهر ردود فعل خطيرة مناهضة للعلم أو مناهضـة للفكر من جانب « الجمـاهير *People* » الغاضبة . فالحـكمة التى ورثناها عن آبائنا واجدادنا هى شىء غالى وعزيز علينا واذا واجهت هذه الحكمـة تحـديات عنيفـة فاننا قد نهب للدفاع عنها ونحاول أن نرفض الافكار الدخيلة او نقضى عليها . وخير مثال على هذا النوع من ردود الفعـل هو قوانين تنيسى **Tenesi laws** المناهضة للتطور وتجـربة المجـالات *Space Exper* التى نجمت عنها . الا ان صراع الصورة الذهنيـة العلمية ضد الصورة الذهنية الجمـاهيرية فى مجال العـلوم الطبيعيـة والبيولوجية ينتهى دائما بانتصار الصـورة الذهنية العلمية فى كل مكان لسبب بسيط وهـو أن الصـورة الذهنية العلمية تتميز بالوضـوح الشديد .

وكما سبق أن رأينـا فان الصراع فى حالة العـلوم الاجتماعية يكون أكثر تعقيدا ، بسبب الحقيقة التى مفادها انه توجد هناك العـديد من الصور الذهنية الشبه علمية التى تنمى مجمـوعة من الأنصار والأتبـاع وتنمى ولاء جماهيرى . فالماركسية والتحليل الفـرويدى وعلم النفس اليونجى (*) وانثروبولوجى رودلف شتينر وعلم تحسـين النسـل لجالتون (**) ، كل هذه بمثابة بلورات للعالم الطبيعى الذى أصـبح مشبعا ومصطبغا بولاءات « جماهيرية » معينة . فجميع هذه النظـريات المختلفة مدينة فى كثير من جوانبها لتزايد المعـرفة فى مجال العلم الاجتماعى وبدون هذا لم يكن بمقدورها ان تتطور على الاطلاق . الا أنه ما أن تكتسب

(*) نسبة الى كارل جوستاف يونج وهو عالم سويسرى فى علم النفس ، ولد فى عام ١٨٧٥ وتوفى فى عام ١٩٦١ . المترجم

(**) سير فرنسيس جالتـون وهو عالم واديب انجليزى ورائد فى علم تحديد النسل . المترجم

مجموعة من الافكار لنفسها ولاء مجموعة من الاتباع وتصبح الى حـد ما بمثابة عقيـدة راسخة Religious فانها عندئذ لا تعد جزءا من المعـرفة العلمية الدائمـة التوسع والتمدد . ولذلك فاننا — فى مجال العـلوم الاجتماعية — نكافح ليس فقط ضد المعـرفة الجماهيرية العادية ولكن ايضـا ضـد ما يمكن أن نطلق عليه اسم العـلم الجماهيرى . وعلى الرغم من هذا فان مجموعة من المعارف القابلة للتمحيص والتجارب عن الانسان والمجتمع تنمـو وتتزايد على ما يبدو وقد تكون لدينا توقعـات كبـيرة لزيادة نموها فى المستقبل .

وحتى الانتقال غير التام نسبيا من الصورة الذهنية الجماهيرية عن الانسان والمجتمع الى الصورة الذهنية العلمية يورط الانسان فى عمليتين — على الاقل — من التغييرات الكبيرة التى لا رجوع فيها والتى لهـا علاقة ببعضها البعض . اول هذين التغييرين هو زيادة الوعى بالذات ، ليس فقط الوعى بالفـرد نفسه ولكن أيضا الوعى بالمجتمع الذى وضـع فيـه . والوعى بالذات الفردى يكاد ينشأ فى نفس الفترة المبكرة التى تنشأ فيها اللغـة المنطوقة ، وهى الصفة المميزة الرئيسـية التى تميز الانسان عنجميع الاشخاص السابقين عليه . وحقيقـة ان الطوطمية Totams هى ربما اول مجموعة من الافكار النظرية يستنبطها الجنس البشرى يوحى بأن الوعى بالذات لدى الانسان فى العصور المبـكرة كان مرتبطا بشـدة مع ادراكه وفهمه لنفسه كشىء مختلف عن ومشـابهة للحيوانات . الا ان الوعى بالذات عملية غامضة لا نعرف عنهـا سـوى القليل للغـاية . فنحن حتى الآن ليس لدينا أدنى فكرة عن كيفيـة تصنيع ماكينة واعيـة بالذات مما يدل على مدى بعدنا عن المعرفة العلميـة الموضوعية فى هذا المجال .

والوعى بالذات الاجتماعى يعقب الوعى بالذات الشخصى بفـترة طويلة فى مجال تطور الانسان . فالانسان البـدائى او حتى الانسـان

المتحضر يتقبل الى حـد بعيد المجتمع الذى ينشأ فيـه بدون أى وعى ذاتى بالمجتمع . فكل شىء يتعلق بالمجتمع يبدو له طبيعيا للغـاية بحيث لا يثير تساؤلاته وشكوكه على الاطلاق . وحتى بعد أن يصبح واعيـا بالمجتمعات الاخرى الواقعـة خارج نطاق المجتمع الخاص به فانه ينزع الى صرف نظره عن هذه المجتمعات على أساس انها أدنى رتبـة او غير مالوفة نظرا لان طرائق آبائه واجـداده تبدو له كأنهـا هى الوسائل الوحيدة السليمة الطبيعية لتسيير دفة اى مجتمع من المجتمعات . وهذا الاتجـاه يبـدو شائعا للغـاية حتى فى المجتمعات المتقدمة للغـاية . فالصينيون اعتبروا أنفسهم المملكة الوسطى Medi Kingdom والمركز الطبيعى لثقـافة العالم . والاغريق كانوا ينظرون الى من هم ليسـوا يونانيين على انهم همجيون وبربريون بعيـدون عن التمدين . والانجليز والامريكيون منذ فترة غير بعيـدة كانوا يعتقدون اعتقادا جازما نابعا من الثقـة الكاملة أن المجتمعات الخاصـة بهم هى التى تسلك الطـريق القـويم والطبيعى فى عمل أى شىء وأن اى فرد آخـر فى مرتبة أدنى أو غريب وغير مالوف . ولكن مع تطور الوعى الذاتى الاجتماعى نجد أن الانسـان يخطو الى خارج جلده الاجتماعى Social Plesh وينظر الى نفسه والى مجتمعه الخاص به من الخارج .

وتلعب العلوم الاجتماعية فى هذه العملية دورا غاية فى الاهميـة لان وقوف العالم الاجتماعى خارج مجتمعـه الخاص به لدى قيامه بعملية المراقبة والملاحظة لمجتمعـه هو جزء من اسطورة العـالم الاجتماعى الخرافية . وقد يكون من المحتمل أن ينشـأ الوعى الذاتى الاجتماعى حتى فى نطاق ثقافة الدهماء لو أن الناس كان لهم اتصالات عديدة مع ثقـافات اخرى تقع خارج نطاقهم وبحيث ينظرون الى تلك الثقافات على انهـا فى مثل رسـوخ ثقافتهم رغم وجود تباين واختلاف بين ثقافتهم والثقـافات الاخرى . الا ان هذا الامر نادر للغاية ، وانه لمن المقبـول ظاهريا على

الاقل أن نفترض ان الوعى الذاتى الاجتماعى الحقيقى الصحيح ينشـــأ فقط مع ظهور وجهة النظر العلمية / الاجتماعية . وتوجد هنا مضاهاة معينة مع الثورة الكوبرنيقية . فقبل كوبرنيقوس كان الانسان ينظر الى الكون من وجهة نظره الخاصة به على أساس أن الارض هى مركز الكون . كذلك قبل الوعى الذاتى الاجتماعى ينظر كل شخص الى العالم كما لو كان مجتمعه الخاص به هو مركز العـــالم . ولكن تطور وجهة النظر العلمية سـواء فى مجـــال علم الفلك أو فى مجال العـــلوم الاجتماعية يحطم هذا الاتجاه نحو التمركز حول الذات Centrialized for Self ومثلمـــا أن الانســــان يرى نفسه الآن كساكن فى كوكب غامض نسبيا لا يقع فى مركز الكون فانه يرى مجتمعه الخاص به ككوكب ثقـــافى فى عالم مليىء بالكواكب وكاسلوب من بين الاساليب الممكنة العديدة التى تنظم العلاقات الانسانية والحياة والانسانية ..

ذات مرّة كنت مع مجموعة من الاكاديميين فى اليوم الرابع من شـهر يوليـــو فى مدينـــة جامعية تقع فى وسط الولايات المتحدة الامريكية عندما بدأت الالعـــاب النارية فى حديقة المدينة . فقال أحد الاكاديميين — وهو عالم أمريكى فى الانثروبولوجيا — لباقى المجمـــــوعة « هيا بنـــا نذهب لمشـــاهدة الطقوس القبلية » وانطلقنا جميعا للاستمتاع بمشاهدة الاحتفال بهذه المناسبة الوطنية . وكان التعليق يتضمن معانى عميقة عن الوعى الذاتى الاجتماعى . فقبل كل شىء حـــدد المتكلم طبيعة المناسبة بانهـــا حالة معينة لاحداث اجتماعية كبرى وبقوله هذا فانه يكون فى الواقع قد فصـــل نفسه عن الحدث ووقف خارج نطـــاقه . فآباؤه واجـــــداده الاقل دراية بالحياة بل وحتى العديد من معاصريه لم يكن لديهم أى احساس بأن هذه الاحتفالات كانت « طقوس قبلية » وأنهم كانوا سيعتبرون هـــذه المناسبة بكل بساطة الشىء الصحيح السليم الذى يتخذ فى اليوم الرابع من شهر يوليـــو بدون ارتياب فى الامر .

وتوجد هناك عيوب وكذلك مزايا فى الوعى الذاتى الاجتماعى الذى من هذا القبيل . وهو ليس بأى حال من الاحوال نعمة خالصة .وقد يكون من الملائم بالنسبة للفلاسفة « الا يفعلوا اى شىء وانما يلاحظوا كل شىء » ، ولكن اذا كان كل شخص فيلسوفا لن يتم انجاز الكثير . الا ان كل شخص يصبح الى حد ما فيلسوفا فى عصر يسوده السلم الاجتماعى والتصنيع الشامل العالمى . وقد يؤدى عدم التحيز والتجرد الذى يسبب هذا الى احجام معين عن انجاز الاعمال الرتيبة المملة او القيام بالمخاطرات اللازمة التى تكون متضمنة فى سلوك المجتمع فى حد ذاته . الا ان هذه مشكلة ينبغى السيطرة عليها برفقة الوعى الذاتى ، سواء على المستوى الشخصى أو المستوى الاجتماعى ، لانه ما أن يتم اكتساب الوعى الذاتى فانه لا سبيل الى فقدانه . وحقيقة أن الوعى الذاتى يمكن أن يصبح باثولوجيا مرضيا كما هو فى حالة الشخص الذى يصاب برهبة المسرح ، لا يعنى أن العنصر الباثولوجى المرضى لا يمكن السيطرة عليه . وقد يكون هناك قدر مماثل من رهبة المسرح فى الوعى بالذات الاجتماعى . وحقيقة الامر أن المرء احيانا يظن أن الولايات المتحدة تعانى منه فى الوقت الحاضر . ولكننا نقول مرة اخرى انه لا سبيل الى الرجوع الى السذاجة ، اذ ينبغى أن ننطلق نحو وعى ذاتى صحى عن طريق علاج حالاته المرضية .

والميزة الثانية التى يتميز بها الانتقال من الصورة الذهنية الجماهيرية الى الصورة العلمية عن المجتمع هو تنمية ما يمكن أن نسميه بوجهة نظر الانظمة . وهذا وثيق الصلة بالوعى بالذات الاجتماعى ويعتبر الى حد بعيد السبب فى ظهور الوعى بالذات الاجتماعى . فالشخص الذى هو من عامة الناس يرى العالم من منظور وهمى . فالاشياء

(*) رهبة المسرح : هو ارتباك يصيب بعض الناس عند وقوفهم على المسرح امام جمهور من النظارة او المستمعين .

المترجم

القريبة منـــه تبدو له كبيرة بل ويعتقد انها كبيرة والاشياء البعيـــدة عنه يعتقد أنها صغيرة بالفعل . وعندما يفكر فى العالم بأى حال من الاحـــوال كنظــــام System فانه يميل الى التعميم من واقع خبرته الخاصة به . وكثيرا ما يؤدى هذا الى آراء باطلة عن العـــالم . فهناك أولا المغالطات المنطقيـــة لأخـــذ العينـــات التى تنشأ بسبب أن الخبرة الشخصية للفرد تعتبر عينـــة محدودة للغـــاية للمجتمع بوجه عام . والمثال الكلاسيكى للمغالطة المنطقية التى هى من هذا النـــوع هو التعليق الذى نسب الى مارى انطوانيت (٣١) عندما قيل لها أن الشعب يتعرض للموت جـــوعا بسبب النقص فى رغيف العيش . اذ قالت : « ولماذا لا ياكلوا الكعك ؟ » . والعامل فى المصنع عادة ما تكون لديه افكار غامضة للغـــاية وغير صحيحة عن حيـــاة المدير ومسئولياته وواجباته . وعادة ما تكون لدى النـــاس المنتمين للطبقة العليا افكار باطلة للغاية عن حياة الناس المنتمين للطبقات السفلى . كذلك الناس الذين يعيشون فى احدى الدول تكون لديهم افكار غريبة للغاية عن الناس الذين ينتمون لدولة اخرى . وهكذا .

ثانيا أن المعرفة لدى الدهماء تميل أيضـــا لان تكون خاضعة لمغالطات التكوين والقياسات الخاطئة . فهناك امور عـــديدة يمكن أن يفعلهـــــا شخص ما لان الاشــــخاص الآخرين لا يفعلونها . فاذا قـــرر كل شخص فى نفس الوقت الذهاب الى وسط المدينة وسحب اموال من البنك أو حتى تســـديد ديونه فان النظام بأكمله سوف ينهار . الا انه من الصعب القفز من التجـــربة الشخصية الى نظام المجتمع بوجه عام ، ولذلك فانه ليس من المدهش فى الصور الذهنية لدى الدهمـــاء عن المجتمع أن تبقى فى الذهن العـــديد من مغالطات التكوين والقياسات الخـــــاطئة . وعادة ما تكون الاتجاهات نحو الضرائب والدين القومى والاتجاهات نحو الدفاع الوطنى خاضعة لمثل هذا النـــوع من مغالطات التكوين . ومن الصعب للرجـــل العـــادى أن يعتقد أن كل دين هو بمثابة ممتلكات لشخص ما آخـــر ،

او ان كل نفقات هى بمثابة ايرادت لشخص ما آخر، وأن قوة احدى الدول هي بمثابة ضعف لدولة ما أخرى .

والمصدر الثالث للقياسات الخاطئة Wrong Measures في الصور الذهنية لدى الدهماء عن الانظمة الاجتماعية يمكن ان نسميه القياس الخاطيء للنظام الموضوع فى غير موضعه
فالانسان لديه ميل شديد لان يخلق صورة ذهنية عن نظام من بين الاحداث التى تبدو عشوائية . وقد تحدث عالم النفس الاجتماعى اليكس بفيلاس Alex Bevelas شفهيا عن بعض التجارب فى هذا الشأن . اذ قدم للأشخاص الذين يجرى لعيهم التجارب سلسلة من الارقام العشوائية أو النماذج العشوائية وطلب منهم أن يبحثوا عن المبدأ الذى تم به ترتيب هذه السلسلة أو النماذج — دون أن يذكر لهم بالطبع انه لا يوجد مثل هذا المبدأ . وفى جميع الحالات تمكن الاشخاص الذين تجرى عليهم هذه التجارب من العثور على نوع ما من « القانون » وبالاضافة الى ذلك فانه عندما قيل لهم انه لا يوجد فى الحقيقة قانون وأن المسادة عشوائية فى الطبيعة تملكهم الغضب ودافعوا فى حماس عن القوانين التى اكتشفوها .

انه ليس فقط من السهل ادراك مجموعة من الاحداث العشوائية كقانون ولكن ايضا ما ان يتم ادراكها على ذلك النحو فان القانون — اذا كان من الصعب اختباره — قد يخلق بالفعل تبريره الخاص به . وهذه هى مشكلة الخرافة . فاذا اعتقدت انا ان السير تحت سلم سيجلب على الحظ العاثر ثم سرت بعدئذ عن غير قصد تحت سلم فانني سأحتاط ضد أى حدث تعيس قد يكون على نحو يمكنني من أن اخلق بدون وعى هذه الاحداث التعيسة وبذلك تصبح الخرافة لها مبرراتها الذاتية بالفعل . وكل من تنوع الخرافة واستمرارها حتى فى المجتمعات المتقدمة دليل على الحاجة للنظام فى العقل الانسانى .

فالانسان يود ان يعثر على صلات حتى بين أكثر الاحداث انعزالا وكثيرا ما يجد تأكيدات تثبت اعتقاده فى هذه الصلات وذلك لان اعتقاده فى هذه الصلات يؤثر على الملاحظات ويجعلها تنزع الى اتجاه معين بل ويؤثر على الاحداث فى حد ذاتها .

ان الفارق الجوهرى بين المعرفة لدى الجماهير وبين المعرفة العلمية — كما رأينا فى الفصل السابق — هو ان المعرفة لدى الدهماء تستخلص استدلالاتها من الملاحظة التجريبية بينما المعرفة العلمية تستنتج استدلالاتها من نماذج نظرية ومن الصلات الضرورية . وعلى حد تعبير دافيد هيوم Hume ، تهتم اساسا المعرفة الجماهيرية بالصلة الدائمة . بينما المعرفة العلمية تهتم بما يتعارض مع منطق الصلات الضرورية فانه ينبغى أن تكون هناك وسيلة فعالة لتهذيب وتوسيع ومعالجة الصور الذهنية الواردة من الحواس التى تعتبر المادة الخام للادراك البشرى . وفى حالة العلوم الاجتماعية تكون مشكلة الادراك صعبة على نحو غير عادى . فالحقيقة المطلوب ادراكها تكون غاية فى التعقيد بالاضافة الى انها تكون خارج مدى أعضاء الحواس لاى فرد واحد . فمن يستطيع — على سبيل المثال — « ملاحظة » مئات الملايين من الناس فى الهند أو الصين ؟ ولذلك فان المفتاح الذى يؤدى الى تقدم العلوم الاجتماعية يكمن فى تنمية طرائق الملاحظة الاجتماعية . وهذه الطرائق يجب أن تتجنب القياسات الخاطئة سالفة الذكر ، اذا ما كان للمعرفة المستقاة بواسطة الطرائق الاجتماعية أن تكون قابلة للاختبار والتجميع حقا .

وهناك منهجان تم تطويرهما فى العلوم الاجتماعية خلال المائة سنة الاخيرة أو هما منهجان ادخلا تحسينات عميقة على قوى الانسان لادراك الانظمة الاجتماعية . وهما بهذا المعنى يمكن مقارنتهما بتطوير التلسكوب والميكروسكوب اللذين كانا لهما تأثير عميق على ادراك الانظمة

الفيزيقيـة . وأول هذين المنهجين هـو المسح عن طريق العينـات والذى يمكن بواسـطته اسـتقاء المعلومات بتكاليف منخفضـة نسبيا من اعـداد كبـيرة من الناس أو من « عوالم اجتمـاعية Social Worlds » بخطأ معروف تقريبا . وفى تاريخ أى علم يتم الوصـول الى نقطة تحول هامة عندما يبدأ العـلم فى جميـع معلومات حول عالمه الخاص به من أجل مصلحته هو . ففى الفترات الاولى لاى علم نجـد ان معلوماته تستقى الى حـد بعيد كنتاج ثانوى لانشطة أخرى . فهو كعلم يطور عمليات المعلومات الخاصـة به ويسيطر على المعلومات الواردة اليه على نحو يسمح له بخلق طابع مميز اخـذ فى التصـاعد . ولم تصل العلوم الاجتماعية بالنسبة للعديد من ميادينها الى هذه المرحلة الا فى القرن العشرين فقط ، بل ولم تصل العـلوم الاجتماعية بالنسـبة للعـديد من ميادينها الى هذه المرحلة الا خلال الثلاثين عاما الماضية . وقبل ذلك الوقت كانت المعلومات عن المجتمع تجمع كنتيجة لاهتمـامات أخـرى لا حصر لها من جانب رجال مثل محصل الضرائب والقاضى ورجال الجيش وما شـابه ذلك . وحتى الاحصائيات المبكرة التى ربما تمثـل المحاولات الاولى نحو جمع المعلومات فى الانظمة الاجتماعية كانت تتم لتحقيق أهداف عملية . الا اننـا نجد أن منهج المسح عن طريق العينـات فى خلال الثلاثين عاما الماضية قد زاد من المعلومات الاسـاسية عن النظام الاجتماعى . لذلك فاننا نعتقد أن المسح عن طريق العينات هو بمثـابة التلسكوب فى العـلوم الاجتماعية كما نعتقد ان سيكولوجى الاعمـاق هو بمثابة الميكروسكوب فى العلوم الاجتماعية .

والمنهج الثانى للعلوم الاجتماعية والذى يكاد يكون مميزا لها والذى يقدم مساعدة عظمى فى مجال ادراك الانظمة الاجتماعية المعقـدة هو منهج أو طريقـة فهرسة المعلومات . وهذا يبـدأ فى العلوم الاقتصادية بمفاهيم مثل فهرس مستوى الاسعار أو اجمالى الانتاج القومى . ونحن نتوقع من

الآن احتمال تطبيق المنهج على متغيرات اخــــرى سياسية واجتماعية . واهميــة هـــــذه العملية تكمن فى أنها تمكننـا من رؤية بعض المميزات الاساسية لنظام غاية فى التعقيـــد والضخامة . وقد يكون من الامور الاساسية لجميع عمليات المعرفة أننا نحصل على المعــرفة عن طــريق الفقدان المنظم للمعلومات . فالتشويش الهائل الذى يعج بالطنين والارباك والذى يقـــدمه العالم للطفل يتم تخفيضه فى النهاية ليتخذ شكلا من اشكال النظام المتعلق بالادراك الحسى لاننـــا نتعــلم كيف نرفض معظم المعلومات التى تصل الينا عن طريق بوابات حواسنا . فلو ان كميـات كبيرة من المعلومات وصلت الينا فان النتيجة العامة تكون هى الضجيج والصخب . واذا كان علينا أن نجعل المعلومات واضحة سهلة الفهم فانه يجب علينـا اما أن نستبعد الامور الخارجة عن الموضوع والتى ليست لها صـلة به واما أن نبتكر وسـيلة اخـــرى لابراز النقـــاط التى لها صلة مباشرة بالموضوع . والفهرسة هى عملية استبعاد المعلومات التى ليست لهـــا صلة بالموضوع . وهكذا نرى أن اجمالى الانتاج القومى أو مستوى السعر العام يعتبر فعـــلا موجه Action بالغ التعقيـــد لملايين الارقام . والفهرســـة تخفض هـــذا الموجه الى عنصــــر قيـاسى واحــد One Measuring . وهى تفعـــل هذا عن طريق اخضـــاع الواقع لقـــدر كبير من العنف والقسوة وعن طريق اهمال بعض المعلومات التى قد تكون غاية فى الاهمية فى مجالات اخرى . الا انه من الضرورى للغــاية عمل هذا اذا كان علينا ان ندرك الخطوط الرئيسية للنظام .

وفى حالة علم الاقتصاد يمكننا ان نلحظ بالفعل التاثير على السياسة الاقتصادية لطرائق العلم الاجتماعى فى جمع المعـــلومات وفهرستها . مثال ذلك انه قبـــل ظهور وتطوير فهرسة للأسعار العامة وهو أمر لم يحدث قبل عام ١٨٧٠ تقريبا كان بمقـــدور الناس الاذكياء للغــاية أن يتناقشوا — بدون أن يقنع أحـــد الجانبين الآخر — حول موضوع يتناول ما اذا كانت

هناك مشكلة تضخم مالى أم لا . كذلك قبل تطوير احصائيات الدخل القومى فى الثلاثينات من القرن العشرين كان بمقدور الناس الاذكياء فى عام ١٩٣١ على سبيل المثال أن يتناقشوا فيما اذا كان هناك كساد اقتصادى أم لا . ومع وجود المناهج الحديثة اليوم اصبح من المستحيل أن يظهر التضخم أو الكساد الاقتصادى دون أن يلحظه على وجه السرعة المهتمون بهذا الشأن . وهذا لا يعنى بالضرورة انهم سيتخذون الاجراءات السليمة ولكنه يعنى على الاقل أن المشكلة ستكون موضع اهتمامهم .

والاهمية الحقيقية للعلوم الاجتماعية تكمن فى أنها تزيد من امكانيات اختبار القضايا عن الانسان والمجتمع وهى القضايا التى كان يعتقد فيما سبق أنها مفتوحة فقط أمام المناقشة أو الاقتناع أو الارغام والاجبار . وهذا له اهمية كبرى من حيث حسم الصراعات الفكرية . ونحن فى العلوم الطبيعية والبيولوجية قد قضينا الى حد كبير على الاساليب البلاغية الرنانة كوسيلة لحسم الصراع . فالمحاولة من جانب الاسقف الفيكتورى — على سبيل المثال — لحسم الصراع حول التطور ، وذلك بان سأل المستر هكسلى عما اذا كان قد انحدر من سلالة القرود من ناحية الاب أم من ناحية الام ، هذه المحاولة نعتبرها الآن من قبيل الغباء البذيء الوقح . فالوسائل التى يلجأ اليها المتناقش لا تصلح بوجه عام فى تناول مسائل ذات أنظمة فيزيقية أو حتى ذات أنظمة بيولوجية . ونحن لم نصل بعد الى هذه النقطة فى الانظمة الاجتماعية نظرا لاننا ما زلنا نعمل الى حد كبير فى هذا المجال عن طريق المعرفة الجماهيرية حيث تكون مهارات المتناقش بمثابة الوسيلة الهامة فى حسم الصراع . ونحن نأمل أن تختفى تدريجيا المناقشات البلاغية الخطابية من مساحات متزايدة من حياتنا الاجتماعية لكى يحل محلها اختبار الحقائق عن طريق الوسائل المتطورة لادراك الانظمة الاجتماعية .

أما بالنسبة للصراعات الدينيـــــة والصراع السيكولوجى والصراع السياسى فاننا لا زلنا نجد مجالات هامة يكون فيها اختبار الحقـــــائق أمرا غاية فى الصعوبة والخطورة . وفى بعض هذه المجالات فان اختبار الحقائق بمفهوم الانظمة الاجتماعية يكاد يكون مستحيلا عن طريق التعريف وتحديد المعنى بوضوح وجلاء . فنظرية تحول الخبز والخمر الى جســـد الســـيد المســـيح ودمه لدى جماهير الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن اختبـــار صحتها عن طريق الكيميـــاء لان المـــادة وليس « الصفات غير الجوهرية » الكيميائية هى التى يفترض فيها أنها تتحـــول الى دم وجســـد الســـيد المســـيح . كذلك نجد ان نظريات التبرير والتعليل عن طريق الايمـــــان أو نظريات التقـــديس عن طريق تجربة عاطفية — على النحـــو المحدد فى بعض الطوائف البروتستانتية هى كلهـــــا نظريات غير قابلة للفحص والاختبار بالطرق العلمية . واذا كانت هنـــاك نظرية غير قابلة للفحص والاختبار فهذا لا يعنى بالطبع انها نظرية غير هامة . فهنـــاك العــــديد من المســـــائل التى تعتبر هامة من حيث انها تتعلق بالانسان بعمق ، ومع ذلك فهى غير قابلة للفحص والاختبار بواسطة اية وسيلة من الوســـــائل العادية او ربما غير قابلة للفحص والاختبار بأية وسيلة على الاطلاق . ومع ذلك يبدو أن هناك ميول متفائلة بالنسبة لهذه الحالات — تركز على الترحيب بالخلافات فى الراى وليس على محاولة ايجاد حل لهذه المسائل عن طريق الفصاحة والبلاغة أو عن طريق العنف . ويبدو أن هذا ينطبق بصـــفة خاصـــة على مسألة التسامح الدينى .

الا ان حسم الصراع حول الايديولوجيات السياسية او الاجتماعية يعتبر أكثر صعوبة لان هذا غالبا ينطوى على قيم ومبادىء اساسية وهى قيم ومبادىء لا يرغب الناس فى اخضاعها للفحص والاختبار . فالتفـــاعل الايديولوجى بين الشيوعيين والعالم الغـــربى — على سبيل المثـــال — يحدث على مستوى منخفض للغاية من الخطابة والفصاحة . الا ان التنمية

المجردة الاحصائية لعملية جمع المعلومات ومعالجتها يؤدى الى الخلص من الجدل الذى لا لزوم له . والتســاؤل عما ما هو افضــل نظام اجتماعى لمجتمع معين قد يتعــذر الاجابة عليه بوجه عام عن طريق منــاهج الاختبار العلمى . ولكن من الواضح أن هذه المناهج بمقدورها أن تخفض المجال الذى يمكن حسم الصراع فى نطــاقه وذلك فقط عن طريق الفصاحة أو عن طــريق العنف . ورغم انه قد يكون صــحيحا أن الصراعات الايديولوجية أو السياسية قد تمسود فى النهاية الى خلافات غير قابلة للتخفيض من حيث القيم الاساسية ، فانه ينبغى أن يكون بالمســتطاع على الاقل أن تتمكن مناهج العلم الاجتماعى من استكشاف هذه الفوارق التى لا يمكن تخفيضها . وعندما يتم هذا قد يختفى الكثير من الصراع . وسوف نعود الى هذه المسألة فيما بعد .

الفصل الرابع

مصيدة الحرب المعوقة War Trap

لقد أشرنا فيما سبق الى أنه على الرغم من ان التحول العظيم من الحضارة الى ما بعد الحضارة يشق طريقه الآن فى العديد من أنحاء العالم ،الا انه لا يوجد هناك ما يضمن استكمال هذا التحول بنجاح . ولقد اوضحت أن هناك ثلاثة أنواع على الاقل من المصايد المعوقة Traps قد تعطل أو تمنع استكمال هذا التحول بل وقد تؤدى الى كارثة لا علاج لها والى نكسة شاملة لعمليات التطور فى هذا الجزء من الكون . وهذه المصايد المعوقة الثلاث يمكن أن نطلق عليها باختصار : الحرب والسكان والانتروبيا (*) . وكل واحدة من هذه المصايد المعوقة يمكن ان تكون مميتة وينبغى الا تكون اى واحدة منها مهلكة . وكلما كنا نحن كجنس بشرى مدركين عن وعى لطبيعة المصايد المعوقة التى تكمن امامنا كلما كانت هناك فرص افضل أمامنا لتجنب هذه العوائق .

ومصيدة الحرب هى أخطر المصايد لانها عاجلة وملحة ويمكن أن تحدث فى القريب العاجل . وتعتبر حركة التكنولوجيا فى هذا المجال سريعة للغاية مما يشير الى احتمال حدوث حرب مدمرة وهذه مشكلة ينبغى التوصل الى حل لها اثناء هذا الجيل لان عواقب الفشل قد تكون مميتة ومهلكة ، والسبب بالطبع هو أن التطور العلمى وكذلك الثورة التى حدثت فى البحوث المنظمة والتنمية قد أحدثت تأثيرا شديدا فى مجال التكنولوجيا العسكرية وصنع الاسلحة . فقد ظهرت زيادة هائلة فى قدرات

(*) الانتروبيا : عامل رياضى يعتبر مقياسا للطاقة غير المستفادة فى نظام دينامى حرارى .

(المعرب)

الانســــان التدميرية — على الاقل بالنسبة للسرعة التى ينفــذ بهـــــا هذه القدرات — وزيادة مدهشة فى المدى الذى تصــل اليه قذائفــــه وصواريخه المميتــة بالاضافة الى زيادة القــوة التدميرية للصـــواريخ . وقد خلق هذا ثورة فى فن الحرب مما يجعل الكيان السياسى الموجـــود فى العالم بأكمله من الامور التى بطل استعمالها ويجعل نتــائج الانهيــار السياسى اكثر خطورة للجنس البشرى عن ذى قبل . فنشـــوب حرب نووية فى الوقت الحاضر من شأنه ان يؤدى بالتأكيد الى نكســة هائلة على نطاق واسع ، وفى ضــوء جهلنا بنتائجها الايديولوجية فانها قد تؤدى على الاقل الى كارثة لا علاج لها . هذا بالاضافة الى أن عملية البحوث والتنمية فى مجال صنع الاسلحة التى ادت الى الموقف الحــالى ما زالت مستمرة على الرغم من حظر التجــارب النووية . ومعظم الدول الكبرى تنفق الاموال على بحوث وتنميــة الاسلحة الكيماوية والبكتريولوجية التى تفــوق الأسلحة النووية من حيث الفتــك والتدمير . واذا ما استمرت البحوث والتطوير فى صنع الاسلحة ووسائل التدمير بنفس المعـــدل الذى تســـير عليه على مدى العشرين عاما الأخيرة فان هــذا سيؤدى حتما الى تطوير ما يسميه « هرمان كاهن (*) » بماكينة يوم القيـــامة Doomsday Machine » التى سيكون بمقدورها انهاء كافة انواع الحياة على وجه الكرة الارضية . وتحت هذه الظروف نجد أن السعى لتحقيــق ســلام مستقر أصبح من الامور العاجلة البالغة الاهمية التى يتم تناولها حاليا وعلى نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ الجنس البشرى .

وربما كان أرنولد توينبى Toynbee على حق عندما أشار الى أن الحرب هى السبب فى سقوط جميع الحضارات السابقة . الا أن كوارث الحــروب التى حدثت فى الماضى كان لهــا طــابع محلى . ففى بعض

(*) Hermankahn, Thermo nuclear War, Princeton University Press, 1961.

المناطق المحلية مثل كريت أو قرطاجنة كانت النكسات شديدة للغاية حتى أن هذه المناطق لم تسترد قوتها بالكامل على الاطلاق . اما بالنسبة للبشرية بوجه عام التى ذاقت قدرا من حلو الحياة ومرها فان انتشار الحضارة من منابعها فى ميزوبوتاميا وفى وادى نهر الاندس Indus Valley (*) وفى شانج Shang بالصين كان بمثابة توسع جغرافى يكاد يكون مستمر . وعلى الرغم من الغزوات البربرية وتدمير العديد من المدن عن طريق الحروب فانه من المشكوك فيه أن العدد الاجمالى للسكان المقيمين بالمدن قد تدهور تدهورا شديدا لمدة تزيد على قرن أو قرنين فى كل مرة . الا ان طبيعة الحرب قد تغيرت تغيرا جذريا خلال الثلاثين عاما الماضية حتى أننا نعتبر الحرب العالمية الثانية هى آخر الحروب « المتحضرة » رغم أنها شهدت الطائرة والقنبلة الذرية . فالدمار الذى احدثته الحرب العالمية الثانية قد أزيل فى أقل من ثلاثين عاما .

وهناك حجة قوية لصالح الافتراض بأن الحرب هى بالدرجة الاولى احد ظواهر عصر الحضارة وأنها لا تتلاءم مع مجتمعات ما قبل التحضر ومجتمعات ما بعد التحضر . فهى بمثابة فترة فاصلة أو فترة راحة تخللت احداث تطور الانسان يرجع تاريخها الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد حتى عام ٢٠٠٠ ميلادية على وجه التقريب . وهى مرتبطة بصفة خاصة بتنمية وتطور المدن عن طريق انتزاع الملكيات من خلال انتزاع الفائض من الاطعمة الزراعية بالقوة والاجبار . والجدير بالذكر أن قرى العصر الحجرى الحديث التى سبقت تطور المدن والتى كانت تمارس بها الزراعة ولكن بدون أن يتم فى ذلك الحين جمع كميات كبيرة من الاطعمة من اجل اطعام التنظيم الحضرى

(*) نهر الاندس يقع فى شمال غرب الهند ويصب فى بحر العرب ويبلغ طوله ٢٠٠٠ ميل .

(المعرب)

كانت على ما يبدو مسالمة وسلمية الى حد بعيد . فمعظم قرى العصر الحجرى الحديث كانت بدون أسوار وبدون دفاعات وهذا ما يبدو واضحا من بقايا الآثار القديمة . ففي الفترة الواقعة ما بين ابتكار الزراعة حوالى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد وبين ظهور المدن الاولى حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد نجد الانتشار العالمى لثقافة زراعية متسقة لها طابع العصر الحجرى الحديث حيث انتشرت هذه الثقافة من أصولها الراسخة فى التلال الواقعة فى ميزوبوتاميا واتجهت غربا الى أطارف اوربا وشرقا الى آسيا والامريكيين بينما كانت افريقيا جنوب الصحراء واستراليا تمثلان الملجأ الاخير لصيادى العصر الحجرى القديم . وربما كانت هناك حالات عديدة من المصادمات العنيفة بين فلاحى العصر الحجرى الحديث وصيادى العصر الحجرى القديم وملتقطى الطعام Food gathers حيث أزاح الفلاحون الصيادين وملتقطى الطعام وحلوا محلهم الا أن هذه المصادمات لم يكن لها طابع الحروب المنظمة .

ومع بزوغ الحضارة أصبح امامنا صورة جديدة تماما . وصحيح أن حضارة هارابا Harappa ومهنجدارو Mohenjodaro بوادى الاندوس Indus قد شهدت قرونا عديدة من السلام والهدوء وذلك بسبب وجودها فى مناطق بعيدة نائية . الا أن هذه المناطق كانت بمثابة النقاط الامامية الريفية البعيدة أما فى قلب الحضارة النابض — فى ميزوبوتاميا فكانت المدن . محاطة بالاسوار منذ البداية تقريبا . وحتى قبل سومر Sumer نجد ان جريشو Jericho التى يعتبرها البعض أقدم مدينة فى العالم كانت مدينة حربية بالقتال والاشتباكات حتى أنها قد دمرت مرات عديدة . وأحيانا مثلما حدث فى مصر تقوم فى بادىء الامر حرب داخلية ويعقب ذلك توحيد للدولة ثم تنعزل الدولة عن العالم الخارجى ويسودها فترة طويلة من السلام الداخلى ، ولكن ما أن تتزايد الاتصالات مع العالم الخارجى حتى تبزغ الامور التى تؤدى الى اندلاع الحرب مرة أخرى .

وليس من قبيل المصادفات أن يكون هناك ارتباط بين الحرب وبين

الثورة الحضرية . فقد سبق أن اشرت الى أن الثورة الحضرية فى حد ذاتها هى نتيجة لفرض اسلوب التهديد على مجتمع يمتلك فائض من الطعـــام ناجم من الزراعة . فجمع الطعام من اعداد كبيرة من الفلاحين وتركيز كميات الطعام الكبيرة فى المدن لم يكن فى بادىء الامر نتيجة للتبادل التجارى بقدر ما كان نتيجة لاعمال القهر والارغام . وكما اشرت من قبل كان القهر فى بادىء الامر روحانيـــا على الارجح ويبـــدو أن المـــدن التى هى فى شـــكل دول States ، City كانت تخضع لحكومات دينية Theocracies فالفـــلاح يهدد بالكارثة الروحية اذا لم يبادر بتسليم نسبة من الطعـــام الذى ينتجه لصالح الطبقة الكهنوتية . الا أن الملك سرعان ما يخلف الكاهن من حيث هو المنظم الرئيسى لاسلوب التهديد . وحقيقة الامر أن الثورة الحضرية ترتكز اساسا على تحالف الملك والكاهن — بمعنى انها ترتكز على القهر الدنيوى والقهر الروحى . وكان فائض الطعام المتجمع يتيح الفرصة أمام الملك فى ذلك الوقت لتنظيم جيوشه . والجيش ما هو الا مدينة يمكن نقلها من مكان لآخر . وهو بمثابة منظمة تختلف تماما عن مجرد اللصوصية وقطع الطـــرق والاغارة والعنف الطارىء الذى يحدث من وقت لآخر ، فالحرب هى مسألة التفاعل بين قوات مسلحة منظمة . والشرط الاساسى لتكوين الجيش هو ظهور الثورة الحضرية — بمعنى ظهور فائض من الطعام الناجم عن الزراعة وتجميع هذا الفائض فى مكان واحد ووضعه تحت تصرف سلطة واحدة . وحيثما لا تواجه تلك السلطة الواحدة أى تحدى من الخارج مثلما هو الحال فى المواقع الملائمة مثل وادى الاندوس أو وادى النيل يصبح بالامكان عندئذ اقامة نظام راسخ يقوم على التهديد من جانب الحاكم وعلى الخضوع من جانب المحكومين وقد يستمر الامر على ذلك النحو لعدة قرون . أما فى الدول الاقل انغلاقا أو الاقل محلية او الاكثر ازدحاما بالسكان مثل ميزوبوتاميا فان نظام القهر والارغام سرعان ما يتدهور الى حد نشوب الحرب .

والسبب فى هذا غاية فى البساطة . فهو يرجع الى المبدأ الاساسى

الذى يقول بأن مقدرة المهدد على تنفيذ تهديداته تتضاءل كلما كان الناس على مسافة بعيدة من كرسى السلطة . وسبب هذا بكل بساطة هو تكاليف نقل العنف ووسائل العنف او حتى نقل الادوات الخفيفة التى تستخدم فى ممارسة العنف . والاعمال الشريرة — شأنها شأن الاعمال الخيرة — تحتاج لتكاليف النقل . فالمبدأ الذى يقول « كلما بعدت المسافة بين الحاكم والمحكومين كلما ضعفت سلطة الحاكم » (وينبغى هنا أن نضيف : (اذا بعدت المسافة الى ما وراء نقطة معينة) هو بمثابة القانون الحديدى لكل تنظيم . ومن ثم فالملك والكاهن بمقدورهما أن يشكلا جهازا للقهر الفعال للغاية فى نطـــاق الاقليم التابع لهما . ولكنهما عندما يبتعدان عن الاماكن المركزية الواقعة فى الوسط فانهما يصلان فى النهاية الى النقطة التى تتضاءل عندها مقدرتهما على تنفيذ التهديدات على نحو يتيح الفرصة أمام ظهـور سلطة محليـــة مستقلة . وعندئذ يمكن أن يظهر ملك آخر أو قسيس آخر ليمارس تهديدات مضادة . ولا يعد الخضوع ضروريا بالنسبة لأولئك الذين يتواجدون فى أماكن بعيدة عن مدى المراكز القديمة وبذلك يصبح التحدى ممكنا . ويصبح لدينا مركز سلطة منافس وتكون العلاقة بين مركزى السلطة لها حتما طابع التهديد المضاد أو الردع .

وأسلوب التهديد المضاد هو الاسلوب الذى يقول بمقتضاه كل جانب للآخر « اذا فعلت شيئا ما من شأنه أن يهددنى فاننى بالتأكيد سأفعل شيئا من شأنه أن يهددك » . ومثل هذا الاسلوب قد يظل راسخا ووطيدا بعض الشىء لفترات قصيرة . الا أنه ينطوى على عدم استقرار مميت فاستقراره يتوقف على مدى التصديق المتبادل للتهديدات . وتصديق التهديد هو الشىء المتغير الغريب الغير موضوعى للغاية فى مجال الانظمة الاجتماعية لأن الشىء الهام فى هذا الشأن هو تصديقى لتهديداتك وتصديقك لتهديداتى وهذا قد يتوقف على شخصية المهدد بقدر ما يتوقف على شخصية المهـدد . هذا بالاضافة الى أن تصديق أى تهديد قد يتعلق فقط بمدى المقدرة على تنفيــذ

التهديد رغم أنه توجد هناك بدون شك علاقة من نوع ما بين الاثنين . الا انه من الممكن تماما لأحد الجانبين ان يكون قادرا على تدمير الجانب الآخر بينما الجانب الآخر لا يصدق ذلك او ربما أعتقد انا انك لديك المقدرة على تهديدى رغم انك فى الحقيقة لا تمتلك القدرة على تهديدى . ولكن الامر الواضح هو انه اذا لم يتم تنفيذ التهديدات فان تصديقها يتضاءل تدريجيا . فالتصديق هو بمثابة سلعة ؟ او بضاعة تنخفض قيمتها بمجرد مرور الوقت .

ففى الازمنة القديمة — اى فى المجتمعات المتحضرة — كثيرا ما كانت المقدرة تتناقض أيضا اذا لم تستخدم فالقوات المسلحة — على سبيل المثال — كان لديها ميل معين نحو التدهور اثناء فترات السلم وكان يعاد تشكيلها وتقويتها وتدعيمها اثناء الحرب . الا أن هذه الظاهرة الاخيرة قد تغيرت الآن بعض الشىء فى هذه الايام التى يسودها عصر البحوث والتنمية واصبحت اقل صدقا مما كانت عليه فى عصر يتسم بالمزيد من عدم النضج والمزيد من التجريبية . ولكن اذا تناقص تصديق التهديدات الخاصة بتهديد مضاد او بأسلوب ردع ففى النهاية يجيىء الوقت الذى لا يصبح فيه التهديدات قابلة للتصديق على نحو يضمن استقرار النظام القائم . اذ يرى أحد الجانبين او الآخر انه لا يصدق أن تهديدات غريمة يمكنها أن تشكل تحديا . وعندما يحدث هذا يمر النظام بأزمة . فاذا ما واجه المهدد تحديا يتعين عليه اختيار الخطوة التالية ، وعادة ما يكون أمامه اختيارين : اما أن يقوم بتنفيذ تهديداته وهو امر سيكلفه الكثير مثلما سيكلف متحديه ، واما أن يحجم عن تنفيذ تهديداته وفى هذه الحالة قد لا يصدقه أحد مستقبلا . وهناك توقعات محتملة لهذه القاعدة . فالفشل فى تنفيذ تهديد لدى التحدى لأول مرة قد يؤدى الى الاعتقاد بأنه من المحتمل جدا أن ينفذ التهديد عقب التحدى الثانى . ولكن عند بعض النقاط فى هذه العملية دائما ما يواجه المهدد بالاختيار القاسى الكريه وهو اما أن ينفذ التهديد واما أن يرى بنفسه انهيار التنظيم بأكمله القائم على اسلوب التهديد ، فاذا لم يعثر على بديل فانه قد ينفذ التهديد مهما كان الثمن بالنسبة له أو بالنسبة للمتحدى .

ولذلك فالحرب تعتبر من الخصـــائص المميزة لاسلوب الردع تحت ظروف حضرية ـ اى تحت ظروف متحضرة . ومن الواضح أن طبيعة الحرب وهى طبيعة تتسم بالفترات الدورية هى نتاج لاسلوب الردع الذى ســـوف يستمر ـ كما أوضحنا من قبل ـ لبعض الوقت ولكنه سيؤدى فى النهاية الى تفجر واندلاع الحرب . الا أن الهدف من الحرب اقدم العصـــور هو التوصل الى السلام بمعنى اعادة تشييد اسلوب جديد راسخ للردع ... اسلوب عملى قابل للتنفيذ وعلى نحو مؤقت على الاقل وهناك بالطبـع انواع مختلفة من الحرب كما أن هناك نتائج متباينة تنجم عن الحرب . فهناك الحرب المحدودة التى تتميز بها بعض فترات التاريخ وهى تمثل ـ على ما كانت عليه ـ اعادة تشييد أسلوب الثقة على نحو معدل بعض الشيء بدون احداث الكثير من التغييرات الاساسية فى بنية الدول القائمة . فحروب أوربا فى القرن الثامن عشر ، والحرب فى أى عصر اقطاعى تقريبا وحروب المدن الاغريقية قبل الاسكندر ـ أو بالاحرى قبل سقوط اثينا ـ كانت كلها حروب محـــدودة .

الا أن اسلوب الردع ـ فى بعض الاحيان ـ يصبح غير مرغوب فيه للغاية بحيث يصير غير راسخ ولذلك نجد حروبا تتسم بالغزو والتوطيد يتم فيها القضاء على بعض الدول قضاء مبرما . وهناك أيضا حروب تتسم بالغزو العظيم الهائل مثل الحروب التى قام بهـــا الاســـكندر أو حروب الامبراطورية الرومانية حيث كانت هذه الحروب تهدف الى تشييد دولة عالمية أو على الاقل تشييد دولة بدون متحدين لها . والدولة التى تمــر بسهولة بسلسلة طويلة من النجاحات فى حروب محدودة قد تتطلع لأن تصبح دولة عالمية . فاذا ما أتيحت لها الفرصة لأن يكون لديها وحدها تكنولوجيـــــا عسكرية متفوقة فان هذا الهدف قد يتحقق . ولكن فى عصر الحضـارة كانت الدول العالمية غير مستقرة اساسا والسبب الرئيسى فى ذلك هو تكلفة النقل والمواصلات المرتفعة مما سمح بتكوين مراكز للقوى المنافسة باستمرار .

والامبراطوريات التى قادها غزاة عظام مثل الاسكندر والارك(+)وجنكيزخان وغيرهم قد تفككت وتداعت وانهـارت لدى وفاة الفـــاتح نفسه . أما الامبراطوريات القائمة على الهيئات التنظيمية مثل الامبراطورية الرومانية فانها كانت قادرة على مقاومة الميل نحو التدهور على مدى فترات طويلة نظرا لأن التنظيم فى حد ذاته يقلل الى حد ما تكاليف نقل القوة الحربية . بل ان الامبراطورية الرومانية نفسها كانت شاسعة للغاية بحيث لم تنفع معها الوسـائل الفنية المستخدمة فى تلك الايام ولذلك تفككت فى نهاية الامر الى عدد كبير من الدول المتعاقبة مثلما حدث مع الامبراطورية التركيـــة (٣٢) التى أعقبت الامبراطورية الرومانية فى نهاية الامر . ان عدم استقرار الامبراطوريات وعدم استقرار السلام ونشوب الحرب على فترات دورية تشكل النفحة الرئيسية المتكررة لعصر الحضارة بأكمله ابتداء من ٣٠٠٠ قبل الميـلاد حتى يومنا هذا .

الا انني قد أشرت من قبل الى أن الحضارة آخذة فى الزوال ، وأن هذا هو مغزى القرن العشرين . فالتغييرات الفنية التى أدخلتها الثـــورة العلمية هائلة للغاية حتى اننا نمر بحالة جديدة للانسان . وفى هذه الحالة يصبح السلام الراسخ أمرا ضروريا . تصبح الدولة العالمية أمرا ممكنـــا وان كان غير ضرورى ، وتصبح الحرب باهظة التكاليف للغاية وغير فعالة كوسيلة لكسب القيم أو الحفاظ على القيم حتى انه يتم اتخاذ التدابير اللازمة لنبذ الحرب والغائها تدريجيا . والعنصر الحاسم فى هذه الثورة لا يكمن فى الدمار المتزايد لأسلحة معينة بقدر ما يكمن فى مدى الموت والهلاك والانخفاض العام فى تكلفة نقل وسائل العنف . والقوة التدميرية للأسلحة الحديثـــة شديدة وهائلة للغاية حتى اننا ننزع الى المبالغة فى أهميتها . فالحد الاقصى

+ هو ملك القوط الغربيين ولد فى عام ٣٧٠ م وتوفى فى عام ٤١٠ م واحتل روما عام ٤١٠ م .

(المعرب)

للدمار هو الدمار الكلى الشامل وهذا قد تم التوصل اليه منذ فترة طويلة مضت . فبابل Babylon وناينفيه Nineveh وقرطاجنة Carthage والقدس قد دمرت تدميرا شاملا كاملا بل وربما على نحو يفـــوق التدمير الشامل الذى شهدته هيروشيما أو نجازاكى (٣٣) أو حتى همبورج وطوكيو . وتدمير المدن لم يبدأ بالاسلحة النووية ولا بالمواد شديدة الانفجار والطائرات . ونحن باستطاعتنا الآن تدمير المدن بسرعة تفوق السرعة التى اعتدنا ان ندمر بها المدن الا انه ليس باستطاعتنا بالتأكيد تدمير المدن تدميرا شـــاملا على نحو يفوق التدمير الذى الحق بالمدن فى الازمنة الماضية .

والشىء المختلف فى الوضع الحالى هو اننا نستطيع احداث دمار شامل لفترة أطول بكثير ما اعتدنا عليه من قبل . وكما أوضحنا من قبل فانه ينشأ نظام للردع لو ان مقدرة المهدد ومدى تصديقه تناقص بسرعة كبيرة مع زيادة بعد المسافة عن مركزه حتى انه عند نقطة معينة — ولنفــرض على مسافة س من الاميال يصبح بالامكان انشاء مركز جديد للتهديد واقامة نظام للتهديد المضاد . والمسألة تكون : على أية مسافة تقع س . وعندما كانت الاسلحة تتكون من فؤوس المعركة والاقواس والسهام الموجودة فى أيدى القبائل غير المنظمين وغير المنتظمين كانت مقدرتهم التهديدية عرضة للتدهور بسرعة كبيرة للغاية لدى ابتعادهم عن مركز القيادة الخاصة بهم . وتحت هذه الظروف كان بمقدور دول/المدينة City States أن تزدهر كما أن الحائط حول المدينة كان يقلل المقدرة التهديدية للامتداد الى نسب ضئيلة للغــاية فى نطاق حدود المدينة . الا انه اتضح انه حتى الدولة/المدينة City-State أصبحت غير مستقرة لدى ابتكـــار الجيش المنظم (قذيفة موجهـــة فوق السيقان) رغم أن الدول/المدينة دائما ما تعود للظهور لفترات قصيرة فى المد والجزر الخاص بالتكنولوجيا العســكرية وشبكة التنظيمات الاجتماعيـــة المســـــاندة . ولا نعـــرف على وجه الدقة من الذى ابتــكر الجيش

المنظم ولكن يبدو على اية حال أن سرجون Sargon (+) هو أول من ابتكر فكرة الجيش النظامى لأنه أول مؤسس لامبراطورية وأول من ادمج الدول/ المدينة City -States فى مجال امبراطورى .

ولكن حتى الجيش النظامى كانت له حدوده الخاصة به . فكلما ابتعد عن الوطن كلما صار من الصعب اطعامه وتنظيمه . وحتى فى الحرب العالمية الثانية كان هذا المبدأ هاما للغاية . فعندما تحركت جيوش هتلر صوب روسيا أصبحت خطوط مواصلاتها اطول وبالتالى أصبح من الصعب اكثر تمويلها فازدادت ضعفا ووهنا . وعندما انسحب الروس للخلف اصبحت خطوط مواصلاتهم اقصر فصاروا اكثر قوة . وعند ستالينجراد وعند للننجراد وقبل موسكو تم التوصل مؤقتا الى توازن من حيث طول الخطوط مما جعل قوة الالمان والروس متساوية . وبعدئذ أرهق الالمان موارد الرايخ نتيجة للجهود المفرطة وردت الجيوش الالمانية الى المانيا وتم تدميرها . الا أنه من الواضح أن أى زيادة فى المدى الفعال لوسائل العنف — مهما كان نوع هذه الوسائل — قد يزيد من حجم الحد الادنى للحالة القابلة للنمو ويقلل من عدد مثل هذه الحالات التى يمكنها أن تتعايش .

ومما زاد الموقف تعقيدا هو ظهور القذائف بمعنى ظهور ادوات للدمار لا يحملها الانسان بيديه وانما تطلق لتعطى النتيجة المطلوبة على مسافة بعيدة من القوة المسلحة النظامية . والحالة القابلة للتطبيق بالمفهوم العسكرى ينبغى أن تكون قادرة على السيطرة على مساحة حول الاراضى الام الاساسية heart land متساوية فى الاتساع مع مدى قذائف العدو المميتة . والا فان العدو يكون بمقدوره أن يقبع فى داخل مجال الاشياء الهامة الاساسية ويطلق قذائفه عليها بدون أن يتمكن جنوده مطلقا من احتلال الاراضى . وزيادة مدى القذائف قد احدث انقلابا فى الشئون الحربية والعلاقات السياسية

(+) سرجون توفى عام ٧٠٥ قبل الميلاد وهو ملك آشور (٧٢١ — ٧٠٥ ق . م) . (المعرب)

بين الدول لا يقل اهمية عن الزيادة فى مدى فاعلية الجيوش . ومن ثم فان اختراع القوس والنشاب كان له تاثير عميق على القتال والحروب كما أن اختراع الاسلحة النارية كان له تاثيرا اشد عمقا وانهالا . وكثيرا ما لوحظ ان البارود قد حطم ودمر النظام الاقطاعى وان كانت أسسه قد اصابها الضعف والوهن بفعل عوامل اقتصادية بدون شك . فالقلعة الاقطاعية وكذلك المدينة المحاطة بالاسوار لم تصمدا أمام البارود وكان على الاشكال الجديدة للتنظيم الاجتماعى أن تتطور وتنمو لكى تحل محلهما . وكان هذا — الى حد كبير — نتيجة للزيادة فى مدى القذائف .

وترجع اهمية الثورة العسكرية فى القرن العشرين الى انه كانت هناك زيادة هائلة فى مدى القذائف المميتة مع تناقص شديد فى تكلفة نقل جميع انواع العنف المنظم وخاصة القوات المسلحة النظامية . فمدى القذائف المميتة التى كانت تغطى فقط عدة اقدام قليلة أو على على الاكثر ياردات قليلة فى أيام الاسهم والحراب ، وكانت تغطى مئات قليلة من الياردات فى أوائل اكتشاف البارود واميال قليلة فى مطلع القرن العشرين ومئات قليلة من الاميال بحلول الحرب العالمية الثانية أصبحت الآن تقترب بسرعة من تحقيق مسافة تصل الى ١٢٥٠٠ ميل — اى نصف محيط الكرة الارضية . وهذه هى نهاية عملية تاريخية طويلة . فهى لا يمكن لها أن تذهب الى ما هو أبعد من هذا ويكون لها معنى أو اهمية . ولكن هذا يعنى انه لا يوجد مكان ما على وجه الارض بعيدا عن مدى القذائف ، فالرؤوس المتفجرة من القذائف والرؤوس النووية قد جعلت الدول القومية التقليدية من طراز قديم مهجور مثلما جعل البارود البارون الاقطاعى والمدينة المسورة بالحوائط . وبحلول الحرب العالمية الثانية (٣٤) كان من الواضح أن الدول القومية التى هى من حجم فرنسا والمانيا لم تعد دولا تحتوى على مقومات النمو والحياة بدون قيد أو شرط بل وربما كانت كذلك حتى فى أوائل القرن العشرين . ففى الحرب العالمية الثانية اصبح من الواضح

ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة هما فقط من بين جميع دول العالم الدولتان اللتان احتفظتا بمقومات النمو والحياة بدون قيد أو شرط . بمعنى أن كلا منهما كانت كبيرة للغاية على نحو يجعلها أقوى من أى اتحاد يحتمل تكوينه بين مجموعة من الدول . اذ كان بالمستطاع اجتياح فرنسا والمانيا . أما الاتحاد السوفيتى فلم يكن بالمستطاع اجتياحه (٣٥).

الا أن التطورات التى حدثت فى الخمسة وعشرين عاما الماضية الاخيرة قد غيرت الصورة تغييرا عميقا . فكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لديه القدرة على احداث تدمير مقبول لبعضهما البعض ، بحيث يحدث كل منهما هذا التدمير من نقاط تقع فى نطاق حدودهما الاقليمية . وتحت هذه الظروف يمكننا القول أن مقومات النمو والحياة بدون قيد أو شرط قد اختفت من على وجه الارض واذا ما كان علينا أن نحتفظ بعالم يضم دولا قومية فانه ينبغى علينا جميعا أن نتعلم كيفية العيش تحت رحمة بعضنا البعض .وقد يظن البعض أن هذا موقف لا سابقة له . ولكن هذا الظن خاطىء . فنحن فى حقيقة الامر كان علينا ان نتعلم هذا فى علاقاتنا الشخصية منذ أن تم اختراع الاسلحة النارية — فهذه الاسلحة كان لها تأثير على مقومات النمو والحياة الشخصية يشبه كثيرا التأثير الذى تحدثه القذائف النووية على مقومات النمو والحياة القومية . فاختراع الاسلحة النارية بل وحتى قبل ذلك أى لدى اختراع القوس والنشاب — ومما هو جدير بالذكر أن الرجال المهذبين والنبلاء والأشراف لم يرتدوا القوس مطلقا وانما كانوا يستخدمون السيوف فقط — قد أدى بسرعة مدهشة الى نزع السلاح الشخصى عبر مدى طويل للغاية للحياة البشرية والمجتمع . وحقيقة الامر أن اسلوب التهديد الشخصى فى العالم الحديث والذى يتدعم بالتسليح الشخصى يعيش فقط فى الثقافات الاجرامية وثقافات الجانحين (المجرمين الاحداث اليافعين) أو فى الاجزاء النائية المتخلفة فى العالم . ويمكن لنا ان

نفترض أن تطوير القذائف النووية سيحدث نفس الاثر تقـــريبا على العلاقات الدولية مما سيؤدى بالتالى الى الغاء الحرب النظامية التى تتم على نطـــاق واسع كأداة للسياسة القومية مثلما أن الاسلحة النـــارية أدت الى نزع الســـلاح الشخصى والى عدم استخدام الاسلحة فى العلاقات الشخصية .

ومن السهل أن يتصـــــــور المرء أن اسلوبا لنزع الســــــلاح على المستوى القـــومى بحيث يكون أقرب الى النزع التـــام والعالمى هو فقط الذى يضمن الاستقرار أو حتى يضمن الدفاع القومى فى مثل هذا العـــالم الذى نعيش فيه فى هذه الايام . ولكن ليس من السهل أن يتخيـــــل المرء الخطوات الديناميكية التى ستؤدى الى مثل هذا الاسلوب كما أننـــــا لا نعـــرف نوع المؤسســات التى ينبغى أن تتكون لكى نضمن رســـــوخ مثل هذا الاسلوب بمجرد التوصـــــل اليه . وسيكون أسلوب نزع السلاح راســــخا فى حالة عدم اغرائه لأى فرد بانتهاكه ومخالفته — اى فى حالة عدم اغرائه أى شخص باعادة تسليح الجيش . وهناك شرطان قد يؤديان الى مثل هذا الموقف . الشرط الاول لو أن المحصـــلة النهائية للنشـــــاط السلمى كانت كبيرة للغاية بحيث لا تبدو الارباح المتوقعة الناجمـــــة عن تطوير أسلوب تهـديد من جانب واحـــد مغـرية بالمقارنة . والشرط الثانى يتمثل فى تواجد جهاز للقـــانون والحكومة يكون بمقـــدوره تقليل الارباح الناجمة عن التهديدات من جانب واحد وذلك عن طريق اللجوء لتوقيـــع العقوبات .

ومن المؤكد أن الشرط الاول كان من العوامل الهامة فى نزع السلاح الشخصى . فبالنســبة لمعظمنا يبدو لنـــا أن المكاسب التى قد نحققهـــا عن طريق السطو المسلح والسرقة المسلحة أو عن طريق الاســـــتعباد ضئيلة للغـــاية وغير مؤكدة اذا قورنت بالمكاسب التى تنجم عن الانخراط فى الاعمـــــال التى تتعلق بالتطوير والتنميـــة الاقتصـــادية السلمية .

اما الشرط الثانى — وهو رجل البوليس والقــانون — فانه يدعم الشرط الاول وخاصة فى الحالات التى ينهار فيها الشرط الاول .

ونفس الشيء ينطبق بلا شك فى هــذه الايام على الامم والدول . فلربما كانت هناك بعض المكاسب الاقتصادية التى تنجم عن المغــامرات العسكرية فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . الا أنه بحلول القرن التاسع عشر شقت الثورة العلمية طريقها فاصبح من الواضح ان المرء بمقدوره ان يحصل على مكاسب من خلال معرفته بالطبيعة تفوق المكاسب التى يحصل عليها عن طريق استغلال أخيــه الانسان . وفى القرن العشرين أصبح من الواضح تماما أن الدول التى تقبع فى داخل حــدودها وتهتم بشئونها الخاصة ستصبح دولا غنيــة بينما المغامرات العســكرية لهــا معــدل عوائد Rate of return سلبى للغاية . كما هو الحـــال بالنسبة لليابان والمانيـا ، وحتى الامبراطورية التى هى نتيجة للمغــامرات العســـكرية فى الماضى قد أصبحت اليوم عبئـا ولا تعــود على الدولة الاستعمارية . وحقيقــة الامر أن الدول الاســتعمارية تحــاول الآن التخلص من امبراطوريتها بأسرع ما تستطيع باستثناء البرتغــال المسكينة التقليدية التى عفا عليها الزمن(*) . ومن ناحية اخرى نجد أن عدم وجود رجل بوليس دولى فعــال وعدم تواجد حكومة دوليــة فعــالة يؤدى الى ظهور أخطار هائلة نظرا لان واضعى السياسة القوميين لديهم صور ذهنيــة غير واقعيــة أو هم مضطربون عاطفيا مما يجعل الشرط الاول غير كافيا .

والنتيجة العامة لهذا الجدل هى أن الانسان يواجه الآن بمشكلة التخلص من الحرب . وهذه مشكلة فريدة من نوعهــا ولم يسبق لهــا مثيل وغير مألوفة للقــرن العشرين . ففى عصر الحضارة كانت الحرب

(*) صفت البرتغــال امبراطوريتها تحت ضغط حركات اليقظــة الوطنية فى السبعينات من القرن العشرين .

(المعرب)

بمثابة مؤسسة اجتماعية راسخة وكانت بالنسبة للبشرية بوجه عام بمثابة مؤسسة مقبولة الى حد ما بحيث يمكن احتمالها . اما فى القرن العشرين فان نظام العلاقات الدولية الذى كان قائما على الدفاع القومى من جانب واحد قد تقوض واصابه الانهيار بسبب التغير الذى حدث فى البارامترات الاساسية للنظام وبذلك أصبحت الحرب امرا لا يطاق ولا يمكن احتماله . وهناك العديد من المفكرين الجادين الذين يعتقدون ان الانسان غير قادر على حل هذه المشكلة ولذلك فالانسان محكوم عليه بالهلاك والابادة والفناء . وهذه حقيقة واقعة خالية من ادنى مبالغة .

الا ان المناقشة الواردة فى هذا الفصل تسمح على الاقل بقدر ضئيل من التفاؤل . وينبغى علينا أن نسلم جدلا برأى التشاؤميين القائل باحتمال حدوث كارثة لا علاج لها للجنس البشرى فى خلال العقود القليلة القادمة أو بشكل اكيد فى خلال القرون القليلة القادمة وأن هذه حقيقة واقعة لا محالة . ونحن لا نعرف حجم هذه الحقيقة والمرء يأمل ان تكون ضئيلة بعض الشىء . ولكن طالما انها حقيقة واقعة فلا يمكن لأحد ان يشعر حقا بالأمن والأمان بالنسبة لنفسه أو لأحفاده فى المستقبل . وقد نهول من شأن الوضع الحالى العالمى بان نقول أن يد القدر تدور فى حقيبة تحتوى على كرة واحدة سوداء وسط العديد من الكرات البيضاء : الكرة السوداء لكارثة نووية . وحتى الآن نجد أن القدر قد استخرج فى كل يوم كرة بيضاء وطالما ان الكرة السوداء باقية هناك لا يمكن لأحد ان يشعر بالأمن والأمان فيما يتعلق بمستقبله .

ولكن على الجانب المتفائل من الصورة نجد أن لدينا فرصة لاستخراج الكرة السوداء من الحقيبة عن طريق عملية تعلم . فمشكلة الغناء الحرب هى فى جوهرها مشكلة فى مجال التعلم الاجتماعى . فأنا لا أعرف نظرية فى العلوم الرياضية تقول أن الانسان غير قادر على القيام بهذه العملية . وطالما انه قادر على القيام بها فانه توجد هناك أيضا احتمالات ايجابية بأننا سنستخرج فى المستقبل كرة الكارثة السوداء

من حقيبة القـدر . وهذا السباق بين التعلم والكارثة هو الذى يجعل العصر الحاضر مثيرا للغـاية وله هذه الاهميـة الفريدة من نوعها .

ومجال التعلم الاجتماعى الوثيق الصلة بهذه المشكلة هو العملية التى يتعلم بواسطتها الانسان كيفية التحكم فى صراعاته ومنازعاته . ومن المهم ان نشـير الى ان التحكم فى الصراعات — وليس الغـاء الصراعات — هو بمثابة جوهر المشكلة . ولو أن مستقبل البشرية اعتمـد على الغـاء الصراع لأصبحت دلائل المستقبل المرتقب سوداء فى حقيقة الامر . فطالما توجد هنـاك حيـاة فانه من المحتم أن يكون هناك صراع تقريبا . هذا بالاضـافة الى أن الصراع فى حـد ذاته ليس أمرا سـيئا . فهـو فى الحقيقة بمثابة عنصر جوهرى فى تلك العملية الخلاقة التى تدفع التطور نحو التقـدم للأمام . الا أن الصراع لديه ميل قوى لأن يفلت من الأيدى ويصبح مدمرا .

فهنـاك عمليات ديناميكية بالغـة التنظيم فى التفـاعل الخـاص بالافراد أو المنظمات والهيئات او الدول تؤدى الى تعميق حدة الصراع . وهذه هى العمليات المتمثلة فى سباق التسلح وحروب الاسعار والتوترات المتصاعدة والمشاجرات . وكل هذه الامور يتم فهمها الآن بطريقة افضـل من ذى قبل ويرجع الفضل فى ذلك من بعض النواحى الى العمل الرائد الذى قام به لويس ريتشـارصون Lewis Richardson فى كتابه « الاسـلحة وعـدم الأمن Arms and Insecurity (شيكاغو / مطبعة كوردرانجل / عام ١٩٦٠) » .

ونجد تعبيرا عن نفس هذا النـوع من عدم الاستقرار المتولد عن مواقف الصراع متمثلا فى نظرية التسـابق game theory التى ورد ذكرها تحت العنـوان المتع « ورطة السـجن » . ويمكن التعبير عن هـذا بلغة مشكلة التسلح . لنفرض أن لدينـا دولتين : الدولة أ والدولة ب . اما أن تكون كل منهما مسلحة أو غير مسلحة . فاذا كانت كلاهمـا غير

مسلحة فانهمـــا ستكونان أيسر حالا . ولنطلق على هذا الوضع رقم ١ . فهما ستكونان اكثر غنى وأكثر أمنا مما لو كانتـــا تحت اية ظــروف أخرى للتظلم . ولكن مما يؤسف له أن هذا الوضع الســعيد ربما يكون غــير مستقر . فلو ظلت احداهما بدون تسليح سيشجع هذا الدولة الاخـــرى على التسلح ولنطلق على هذا الوضع رقم ٢ . ورغم أن هذا يقلل من اجمالى الرفاهية فان الدولة المتسلحة قد توزع بالقـــوة هذه الرفاهيـــة الاقل حجما بما يتمشى مع مصلحتها حتى تتمكن من ان تصبح ايسر حالا عن ذى قبل . وقد تلجـــا احداهما الى المبادرة باتخـــاذ هذه الخطوة . فاذا افترضنا مثلا أن الدولة أ تتسلح بينما الدولة ب غير مسلحة (الوضع رقم $\frac{٢}{١}$) عندئذ قد تكون أ أيسر حالا مما لو ظلت ككلتاهما بدون تسليح وستكون الدولة ب اســـوا بكثــير عن ذى قبل . الا ان هـــذا الموقف قد يدفع ب الى التسلح مما يؤدى الى ظهـــور الوضـــع رقم ٣ حيث تتسلح كلتا الدولتين . وسيكون اجمـــــالى الرفاهية اقل مما هو عليه فى الموقف الثانى . ولكن الدولة ب قد تعيـــد توزيع هذا الاجمالى المخفض تجـــاه ذاتها وبذلك تصبح ايسر حالا مما كانت عليـــــه عندما كانت غير مسلحة فى الوقت الذى كانت فيه الدولة أ مســـلحة ، رغم أن كلا الجانبين سيكونان فى حالة أســـــوأ لدى تسلح كليهمـــــا (الوضع رقم ٣) مما لو كانت كلتاهما غير مسلحتين (الوضع رقم ٣) . وهذا تقريبا يعتبر مشـــكلة عالمية فى الحيـــــاة الاجتماعية ، ولقد حاولت العـــديد من المؤسســات الاجتماعية أن تدفع النظـــام الى الوراء بحيث يصـــل الى أحسن الاوضاع الملائمة (الوضع رقم ١) والابقـــاء عليـــه هنالك . وفى ضوء هذا يمكن الى حـــد ما تفســـير المؤسسات الحكومية والقانون والشرطة والتعليم والدين .

ووضع المشكلة فى قالب « ورطة السجين » يوضح لنا على الفـــور أن هنـــاك خطان من الهجوم على الحل الخاص بها . الخط الاول هـــو

تغيير سلوك الاطراف بحيث تصارع نفسها وذلك بهدف أن تنظر الى المستقبل البعيد بعين الاعتبار وتتدبر كل الاحتمالاته وتتعلم كيف تنظر نظرة واقعية ازاء النتائج النهائية المترتبة على سلوكها . ففى الوقت الخاص بورطة السجين ، افترض أن كل جانب بعيد النظر بحيث انه يدرك أن التسليح سيفيده وحده لفترة قصيرة فقط وسيجعله فى نهاية الامر فى حالة سيئة بسبب ردود الفعل من الجانب الآخر ، وعندئذ فان الخطوة الاولى للانتقال من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ لن تتخذ على الاطلاق . فمقاومة الاغراءات قصيرة المدى بسبب تواجد وجهة النظر البعيدة المدى تعتبر أحد الاهداف الكبرى للتعليم الاخلاقى كما تعتبر عنصرا هاما فى عملية التعليم بأسرها ، بل وبدون هذا يتعذر قيام المجتمع ويصبح أمرا مستحيلا . مثال ذلك أن جهاز القانون سيصبح عاجزا تماما فى مواجهة انتشار الاعمال الفردية التى تنتهك القانون . فالقانون والشرطة يعملان فقط عند هوامش المجتمع . فاذا لم يكن هناك مركز راسخ متين يضم اناسا يحجمون عن الحصول على المنافع القصيرة المدى الخاصة بالسلوك غير الاخلاقى لانهم قد تعلموا كيف يدمجون فى انفسهم نظاما للقيم قائم على النتائج البعيدة المدى فان المجتمع لا يستطيع العمل على الاطلاق ولا تقوم له قائمة . ونحن قد شاهدنا امثلة لذلك فى ازمنة وأماكن معينة حيث تفكك النظام الاجتماعى وتحول الى اللصوصية وقطع الطرق والعنف الشامل فى شكل حرب هوبزية Hobbesian war (*) هوجاء يشترك فيها الكل ضد الكل . وفى مثل هذا الموقف لا يمكن للمؤسسات الرسمية للقانون والنظام والحكومة أن تسود أو حتى أن تظهر الى الوجود ، اللهم الا اذا كانت

(*) نسبة الى توماس هوبز وهو فيلسوف اجتماعى انجليزى ١٨٥٥ — ١٦٧٩ وضع كتاب « التنين » ويعتقد بضرورة قيام حكومة قوية من أجل السيطرة على المصالح والرغبات الفردية المتصارعة .
(المعرب)

هناك عملية واسعة النطاق من التسلم الاخلاقى منتشرة بين افراد المجتمع ويتعامون بواسطتها كيفية تلطيف سلوكهم عن طريق القيم الاجتماعية .

وهناك مظهر هام — ولكنه لا يلقى الاهتمام الكافى — من مظاهر ديناميكيات نظام كهذا الا وهو مشكلة كيف يمكن لنظام منتقل من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ وهو الوضع الذى يكون فيه احد الجوانب متسلحا بينما الآخر غير متسلح ان يتراجع الى الوضع رقم ١ بدلا من التصاعد الى الوضع رقم ٣ حيث يسود التسلح المتبادل . واذا عدنا الى المصطلحات الفنية بالجزء الاول من هذا الفصل فانه يمكننا القول ان هذه المشكلة تتضمن رد الفعل الخلاق على التهديد والذى تتكون بواسطته عملية التعسليم فى النظام باكمله مما يؤدى فى نهاية الامر الى اعادة النظام الى الوضع الاول . فهناك على سبيل المثال العديد من السجلات التاريخية التى تغلب فيها « القديس » على « اللص » واعاده الى وضعه فى المجتمع والى منزلته الاجتماعية . وربما تكون هذه حالة متطرفة ولكن حتى على المستوى الاكثر ابتذالا فاننا قد طورنا عددا كبيرا من الطرائق التى يمكن ان توصف بوجه عام بانها « مخفضة لحجم التسلح » . ان تاريخ نشوء الاخلاق الكريمة المهذبة باكلمة ينبغى اعادة كتابته فى ضوء هذه الديناميكيات الاجتماعية . فالمصافحة بالايدى والانحناءة والاسلوب المهذب فى الحديث و « الاجابة اللطيفة التى تزيل الغضب » تشكل جزءا حيويا من وسائل التحكم فى الصراع ، الا أنها — وفقا لمعلوماتى — لم يعترف بها على ذلك النحو ولم يعط لها الاهمية اللائقة بها فى تاريخ البشرية .

ومما هو جدير بالذكر أن كلمة اللطف أو الكياسة أو الخلق الكريم Civility وكلمة مؤدب أو مهذب أو رقيق Civit مشتقتان من نفس الاصل الذى تشتق منه كلمة حضارة Civilization وعصر الحضارة لا يتصف فقط بالغزو والقسوة الحربية وانتشار

التهـديد كوسيلة للتنظيم . ولكنه يتصف أيضا بتنمية وتطوير الانظمـة التكاملية المستفيضة للدين والاصـول المرعية والالتزام بآداب السـلوك والاخلاق فى المجتمع وحسن السلوك والاخلاق . فديناميكيات هذه العملية التى تم بواسطتها تحويل البارون الاقطاعى الغير مهـذب الى جنتلمان Jentleman — وهنـا ايضا نقـول أن المعنى الحرفى لكلمة جنتلمان يعتبر غاية فى الاهمية — تعتبر عملية لم تظفر بالدراسة الكافية فى أى وقت على الاطلاق ومع ذلك فهى تعتبر أهم عملية منفـردة فى كافة ديناميكيات عصر الحضارة لانها هى العملية التى سمحت بنشأة وظهور المجتمـع المتمدن الذى لولا ظهوره لاصبح العلم مستحيلا . وهناك ارتباط خفيف بين الخضـوع وتحدى التهديد مما يقوض نظام التهـديد فى حد ذاته لانه يوحـد ما بين المهدد والمهـدد فى نظام اجتماعى اندماجى واحـد . وهذه حيلة مارسها الانسان بدون وعى على مدى الآلاف من السنين . ولعل من الامور الهامة التى تحـدث حاليا فى القرن العشرين هـو أن الانسان بدأ يدرك هذه العملية عن وعى كامل ، ومن ثم فانه قد يتمكن من أن يقـودها مستقبلا بكفـاءة اكثر مما يفعل الآن . واذا كان الامر كذلك فهذا مصـدر حقيقى للتفـاؤل . لان هـذا معناه أن باستطاعتنا أن نبـدأ بطريقـة عقلانية واعية فى القضاء على أسلوب التهديد الدولى الذى يؤدى الى اندلاع الحرب واستمرارها واستبدال أسلوب التهـديد الدولى بنظام حقيقى أصيل قائم على العـلاقات الدولية الاندماجيـة التكاملية .

وعلى المستوى السياسى قد يبدو هذا الجـدل غريبا وغير مألوف لنـا رغم أنه من المهم للغـاية أننا نشاهد الآن بالفعل فى القرن العشرين تنمية هائلة لمـا يمكن ان يسمى بالعناصر التكاملية فى السياسات الخارجية للدول — مثل التبادل الثقافى وهيئات الاستعلامات الحكومية بل واعمـال الدعاية أيضا . ونظرا لان هذه الامور لها جذور راسخة فى السـلوك

الانسانى فلا يمكن أن تتدخــل فى احداث تأثير عميق على سلوك الدول ذاتها . وحتى أعمال الدعاية التى ينظر اليها مبدئيا على أساس أنهـــا تتعلق بنظام التهـديد وأنها يقصد بها خــــداع متلقى الدعاية الغافلين بطريقة متعمــدة وساخرة ، قد تعـــود فتؤثر على مروج الدعاية الذى قد يعتقــد فى نهاية الامر فى صحة الدعاية التى يقوم بها . وربما قد حدث شىء من هذا القبيل — على سبيل المثال — مع الدعاية الواسعة النطاق للسلام التىقامت بها الدول الشيوعية على مدى العشرين عاما الماضية(٣٦) . فقد يبــدأ شىء ما كأداة للنفـاق التابع للسلطة المحلية وينتهى باتخـــاذ طـابع خاص به مما قد يؤثر تأثيرا عميقـــا على انظمة اولئك الذين روجوا لهذا الشىء . كذلك نجـــد فى الولايات المتحدة — كما اشــــار جونار ميردال فى كتابه الشهير « الورطة الامريكية The American Dilemma » أن المبادىء الاخلاقية العظمى للأمة المحتفظ بها بشكل مقـدس فى اعلان الاستقلال والدستور وخطاب جيتسبرج Gettysberg Address قد مارســـت ضغوطا لا هوادة فيها على المجتمع من أجل تحـــرير الانســـــان الزنجى وتمهيد الطريق امامه لكى يتمكن من الحصـــول على الحقــــوق الكاملة للمواطن . وحيث أن المثل العليا المعلنة فى اى مجتمع تحيـد عن الواقع الخاص بها مع ان هذه المثل العليا قد تدرك بطريقة عاطفية وقد تستخدم باستخفاف وسخرية فان ضغوطا دائمة بعيدة المدى تمارس لتقـــــريب الواقع من المثل الأعلى .

والمثل الأعلى لمـــا يمكن أن يسمى بالسلوك الناضج للصراع من جانب كل من الافراد والدول او منظمات اخرى هو أمر اكثر اهمية فى العـــــالم الحديث مما قد يتصور الكثيرون رغم أن المفهوم الذهنى لم يحظ بتعبـــير أو اصـــطلاح دقيق قوى على الاطلاق .وفى حالة سلوك الفرد وخاصــــة فى مجتمع يتحرك نحو طبقـــة متوسطة عالمية نجد أن المقـــدرة على التحكم فى الصراع بدون اللجـــوء الى العنف العلنى السافر بل وبدون توتر شديد

او انفعالات الكراهية تعتبر جانبا هاما فى تربية الطفل وتربية اليافع الصغير . ويمكن ملاحظة نفس هذا النمط فى رجل الاعمال او المسئول التنفيذى فى هيئة ما أو الرجل الذى يتقاضى راتب شهرى باليابان أو المدير ورئيس مصلحة حكومية بالدول الاشتراكية بل وفى الطبقة المتوسطة فى كل مكان . فهذا الاسلوب فى الحياة يكون فيه التظاهر بالشجاعة والتباهى والعنف وحتى العاطفة الشديدة من الامور التى تلقى الاستنكار الشديد وتؤدى الى انزال رتبة الشخص . وهو اسلوب فى الحياة مختلف للغاية عن أسلوب حياة الرجل الارستقراطى او أسلوب حياة الرجل البلوريتارى الحقيقى (٣٧) — فكلاهما بمثابة اصول اجتماعية فى طريقها الى الانقراض والزوال فى المجتمعات المتقدمة . لذلك فانه من المعقول أن نفترض أن عملية التعلم التى يمكنها أن تحدث فى الفرد يمكنها ايضا أن تحدث فى الامة . فالنموذج المثالى لعالم تسوده طبقة متوسطة من الناس وتسوده دول مهذبة غير عدوانية هو أمر متضمن فى سلوك جميع الدول الاكثر نضجا .

وربما أن احدى الاخطار العظمى القصيرة المدى التى يتعرض لها العالم فى هذه الايام تنشأ عن الحقيقة التى مفادها أن تحقيق النضج والواقعية السياسية من جانب الدول النامية قد أدى الى القضاء على الامبراطوريات مما أدى بالتالى الى خلق عدد كبير من الدول الجديدة . فالكثير من هذه الدول الجديدة تظهر الآن بالفعل دلائل السلوك الدولى غير الناضج والباثولوجى . لذلك فاننا قد نجتاز فترة غاية فى الصعوبة اثناء « انتقال » هذه الدول الجديدة الى مرحلة النضج السياسى ومن هنا فان التنمية السياسية قد تعتبر من الامور الهامة العاجلة التى تفوق فى اهميتها التنمية الاقتصادية .

وهذا من شأنه أن يؤدى الى مزيد من الاهتمام بالعنصر الثانى الا وهو تنمية تدخل الطرف الثالث . فنحن لا نستطيع أن نعتمد دائما

على عملية التعلم او على ديناميكيات التفاعل بين أطراف النزاع انفسهم . فاذا كانت الاطراف فى ورطة السجين قصيرى النظر فى حقيقة الامر فقد يكون من المستحيل منع تدهور الصراع الى أن يصبح صراعا شرسا منحرفا أو صراعا ضارا مميتا وذلك فى غياب اية أطراف ثالثة . فالطرف الثالث قد يلعب عدة أدوار مختلفة . فهو قد يقوم بدور الوسيط ودور المعلم ويسهل عملية التعلم التى تعين اطراف النزاع الفعليين على التحكم فى الصراع بانفسهم . الا ان تدخل الطرف الثالث عادة ما يتضمن ببراعة فكرة الانتقام وذلك لكى تفرض العقوبات على أى جانب ينتقل بمفرده من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ . والمثال الواضح على ايجاد حل للصراع والتحكم فيه من خلال تدخل طرف ثالث يمكن أن نجده متمثلا فى اى هيئة كهنوتية . فمن بين المهام الرئيسية التى يضطلع بها أى شخص يشغل منصبا كبيرا فى هيئة كهنوتية هو ايجاد حلول للصراعات التى تتفشى بين أتباعه ومرؤوسيه . وهو قادر على القيام بهذا الدور لان بامكانه القيام بدور المعلم ولانه أيضا يعتبر جزءا من نظام اندماجى وله هيبته واحترامه فى هذا النظام ، وبذلك تكون كلمته مسموعة بين الناس ونصائحه نافذة المفعول . ولانه أيضا بامكانه استخدام العقوبات — بمعنى انه بامكانه أن يجعل الطرف المسيىء المعتدى فى وضع أسوأ وبذلك يغير المحصلة النهائية بحيث يشعر كل طرف أنه لن يستفيد من الانتقال من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ .

وهذه هى احدى المهام الرئيسية التى يضطلع بها جهاز القانون والشرطة . فالمجرم الذى ينتهك حرمة العقد الاجتماعى هو انسان ينقل المجتمع من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ . وقد تم انشاء جهاز الشرطة والقانون بهدف خلق موقف تكون فيه الجريمة غير مفيدة . ونظرا لان الجريمة ما زالت موجودة فى جميع المجتمعات فان هذا

يشير الى ان هذه المحاولة ليست ناجحة عالميا . الا أن القانون والشرطة ناجحتان عادة فى قصر الجريمة على قطاع صغير من المجتمع واذا لم يكن هناك قانون او شرطة فان هذا من شأنه أن يؤدى الى تزايد ونمو العناصر الاجرامية على نحو يهدد استقرار المجتمع فى حد ذاته .

والعملية الناجحة التى يمكن أن يتدخل بها الطرف الثالث تتضمن حتما جميع هذه المظاهر المختلفة . فاذا لم يكن الطرف الثالث معلما بمعنى أنه يؤثر على سلوك وقيم أطراف النزاع فان محاولته لتغيير المحصلة النهائية يحتمل أن تلقى فقط نجاحا جزئيا . ومن ناحية أخرى فان الدرس الخاص بالسلوك الناضج البعيد النظر قد يكون صعبا للغاية بحيث يتعذر تعلمه أو ربما لا يكون صادقا . وقد يكون من الصعب انجاز هاتين المهمتين عن طريق نفس الشخص وربما هذا هو أحد الاسباب التى دفعتنا الى تطوير عدد من العادات والتقاليد الشبه قانونية مثل التحكيم والفصل فى النزاع ، ومثل النصح بالزواج والعمل الاجتماعى والعناية بالنواحى النفسية وما شابه ذلك . ويبدو أن هذا المظهر من مظاهر تدخل الطرف الثالث سوف يتزايد فى المستقبل .

ومن ثم فان الغاء الحرب يتطلب عملية تعلم مزدوجة .ف حيث يتم عن طريق احداها تغيير القيم وحالات السلوك نحو بعد النظر ونحو دقة اختبار حقيقة أنظمة القسوى ونحو مجموعة قيم تركز على رفاهية الجنس البشرى بأكمله . أما العملية الاخرى فهى عملية تعلم تمكننا من تطوير المؤسسات الخاصة بتدخل الطرف الثالث على نطاق عالمى . وتعتبر الامم المتحدة والمنظمات التابعة لها مثالا على ذلك . ان الذين ينادون بضرورة خلق حكومة عالمية لديهم حجج قوية عندما يدعون أن الامم المتحدة (٣٨) ليست فعالة بالقدر الكافى كمنظمة تقوم بدور الطرف الثالث وانه ينبغى أن تكون هناك منظمة عالمية قوية تكون كافية على الاقل للحفاظ على نزع السلاح وتغيير المحصلة النهائية للسلوك الدولى على نحو

يجعل العدوان من جانب أى دولة غير مفيـد على الاطلاق . ويمكننـا عندئذ أن نمعن النظر فى العملية التعليمية فى الانظمة الدولية المتجهـة نحو مشـارف الجانب البعيد الذى يوجد به نظام للسلام الراسخ الذى تكون فيه كرة الكارثة السـوداء قد استخرجت من حقيبة القدر ونحـو مشارف الجانب القريب الذى لنا فيه سلام غير مستقر مع احتمال ايجابى لحـدوث كارثة يتعـذر معها اصلاح أو معالجة نتائجها . ومن الواضح اننـا لم نصـل بعد الى هذه المشـارف او الى هذا الخط الفاصـل . الا اننـا قد نكون قريبين منـه على نحو أكثر مما نعتقد الآن . والموقف آخـذ فى الصعود لأعلى نحو الخط الفاصل وقد ظل كذلك لفترة طويلة للغـاية حتى اصبحنا نظن أن الطريق الانسانى آخذ فى التصاعد للأبد . ومع ذلك فهناك خطوط فاصلة فى الانظمة الاجتماعية وأعتقد أننـا قريبين للغاية منها . ولذلك سيكون من الامور التراجيدية للغـاية لو أن البشرية تردت مثل سيزيفوس Sisyphus (*) الى اسفل التل مرة أخرى نحو كارثة عندما تكون قريبة للغاية من قمة هذا الخط الفاصل .

ان حل أى مشكلة يتوقف الى حـد بعيـد على هوية النظام الذى تقع فيه المشـكلة . وفى هذه الحالة يمكننا أن نضع المشكلة على هيئـة تغـير فى الـ Noosphere على حد تعبير بيير تلهارد دى شاردان Pierre Teilhard دى شاردان . والـ Noosphere هـو الـكم الكلى للمعـرفة كما هى مجودة فى عقـول الثلاثة بليـون انسـان المنتشرين على سطح الكرة الارضية . ومن المؤكد أن الـ Noosphere الموجودة حاليا غير متوافق مع البقـاء الانسانى على المدى البعيـد

(*) هو ملك كورنثه الثاقب الرأى الجشع الذى قدر عليه فى هاديس (موطن الموتى) أن يدحرج حجرا ثقيلا لأعلى ولكن الحجر يهبط لأسـفل مرة أخرى .

(المعرب)

أو حتى على مدى العقـود القليلة القادمة . فنحن نؤمن بأمور كثـيرة ليست حقيقيـة ولا نعرف الاشياء الحقيقية . ونحن لدينا قيم ((وهى قيم تعتبر أيضا جزءا من الـ Noosphere) غير متوافقـة مع الادارة الناجحة للصراع او مع عمليـة التطوير والتنميـة البشرية . ومع ذلك فلا ينبغى علينا أن نتشاءم على هذا الاساس ، وذلك لان الـ Noosphere قادر على التغيير بل وقادر على التغيير السريع . فهنـاك شريحة هامة من المجتمع بصـدد أن نطلق عليها اسم صـناعة المعرفة ويتم توجيههـا فعلا نحو تغيير الـ Noosphere وان كان ينبغى توجيه قدر كبـير من هذا النشاط نحو الاستعاضة عن المعرفة التى تفقد بسبب الوفاة . الا اننا لدينا فى هذه الايام صناعة معـرفة ذات كفـاءة تفـوق كثـيرا متطلبات الاستعاضة،ومن ثم يمكن أن يستغلها فى تغيير الـ Noosphere وحقيقة الامر أن هذه العملية كانت وما تزال تسـير بسرعة كبـيرة . فالناس فى هذه الايام لديهم معلومات تزيد كثـيرا على المعلومات التى كانت فى عقول الناس فى أى فترة من فترات تاريخ البشرية .

والمشكلة هنا تكمن فى اننـا لا نعـرف الاتجـاه الذى ينبغى أن نغـير الـ Noosphere اليه وهنـاك أصوات عديدة تطالب بأن يتم التغيير فى اتجاهات مختلفة . فالشخص الشيوعى يريد منـا جميعـا أن ندرس الماركسية والاقتصاد الموجه . والشخص الليـبرالى يريد منـا أن ندرس شيئا معينا والشخص التقليدى المحافظ يريد أن ندرس شيئا آخر . وفى خضم هذه الآراء والاصـوات التى تنـادى بأنواع من العلاجات المتصارعة فان الشيء المذهل هو اننا نحرز قدرا كبيرا من التقدم .

وعند هذه النقطة يمكن للمرء أن يأمل فى أن تكون للعلوم الاجتماعيـة اهمية كبرى فى خلال السنوات القادمة . وانى لواثق من ان العلوم الاجتماعية قادرة على تسوية جميـع الصراعات أو التوفيق بين الانظمة المختلفـة او وسائل الخلاص وطرق الانقاذ . ولكن نظرا لأن العلوم الاجتمـاعية

بمقدورها تقديم وسائلها متقدمة لاختيار الحقيقة فى مجال الانظمة الاجتماعية فان تأثيرها يبذل فى الاتجاه نحو ما سأسميه بتغير ما تبقى من رواسب الماضى وهو ما ينبغى ان يحدث فى الـــ Noosphere . فنقل الصراع من مجال المعرفة الجماهيرية الى مجال المعرفة العلميـة له تأثير توطيـدى وترسيخى بل وتأثير تعقيمى . فمهمة العداد الحاسب هو بمثابة مهدىء عظيم العواطف وتعتبر الحسابات — بل وحتى الحسابات الرديئة — هى العـدو لما هو غير منطقى وغير عقلانى . واذا أمكن تحـويل الصراعات الايديولوجية — ولو جزئيا — الى الصراعات فى نظرية علمية ســتكون لدينا عندئذ فرصة افضل لحسم الصراعات . لذلك فان فكرة البحث فى الانظمة الاجتماعية هى بمثابة أداة للترسيخ والتوازن مما يؤدى الى ادارة الصراع بنجاح .

واذا كان على ان اذكر النشاط المطروح الآن امام الجنس البشرى والذى من شأنه ان يزيد من احتمالات بقائه على قيد الحياة بشكل كبير فاننى اقول ان ذلك النشاط يتمثل فى الجهد الهائل المبذول فى مجال البحث عن السلام — اى فى مجال تطبيق العلوم الاجتماعية على دراسة أنظمة الصراع وخاصة انظمة الصراع فى شكلها الدولى . فهذا سيشكل جانبا كبيرا من ذلك الجهد الواعى تجاه تحقيق التحول العظيم الذى هو فى حد ذاته الشغل الشاغل للانسان فى هذه الفترة من التاريخ .

الفصل الخامس

التنمية الاقتصادية : الانطلاق الصعب

واذا تمكنا من الافلات من المصيدة النووية فان هناك عقبات اشد صعوبة تنتظرنا على الطريق . فالقضية التالية التى قد تواجهنا هى مشكلة التنمية الاقتصادية فى حد ذاتها . وهذه المشكلة لها مظهران . المظهر الاول هو عدم مقدرة بعض المجتمعات على تنظيم نفسها من اجل التحول . وهذه هى المشكلة التى تعترض التنمية فى المقام الاول . والمشكلة الثانية هى عدم مقدرة كافة المجتمعات تقريبا — بما فى ذلك المجتمعات التى حققت تقدما تكنولوجيا على أعلى مستوى — على السيطرة على النمو السكانى . وقد يؤدى هذا الوضع فى القريب العاجل الى تردى الانسان الى حالة من البؤس والشقاء فوق كوكب مكتظ بالسكان لا رجاء فيه . بل ان عدم مقدرة بعض المجتمعات فى القريب العاجل على معالجة مشكلات التوافق مع الارتفاع السريع الذى لا نظير له فى عدد السكان وفى نسبة الشباب قد يحول بينها وبين الانتقال الى اقتصاد متطور .

ومن المؤكد ان التحول الى مجتمع متطور هو أمر أكبر بكثير من مجرد التنمية الاقتصادية وحدها . فالتحول الى مجتمع متطور يشتمل على تغييرات فى الشخصية الانسانية وفى المعرفة البشرية بل وفى جميع المؤسسات الاجتماعية مثل الاسرة والكنيسة والدولة والمدرسة والجامعة وذلك بالاضافة الى التغييرات فى مؤسسات الحياة الاقتصادية . الا ان التنمية الاقتصادية هى شرط اساسى يجب توافره بل وربما هى أهم جانب من جوانب التحول العظيم . والسبيل الى التنمية الاقتصادية هو أمر غاية فى البساطة . فالتنمية الاقتصادية تتطلب تخصيص نسبة كافية من موارد المجتمع لعملية

التنمية فى حد ذاتها . والفكرة الرئيسية هنا هى فكرة صناعة النمو . ويمكن القول أن صناعة النمو هى ذلك الجزء من النشـــاط الكلى للمجتمع الذى يخصص ليس لمجرد الاحلال محل الاشياء والناس الذين يستهلكوا وينتهون بالموت وانمـــا يخصص من اجل التغير والتعليم وحشـــد البضائع وبناء المؤسسات الجديدة . وليس من السهل أن نوضح حدود صناعة النمو من الناحية العملية بحيث يمكن لنا ان نذكر على وجه الدقة الامور التى تدخل ضمن صناعة النمو والامور الاخرى التى لا تدخل فيها . فصناعة النمو تغطى جميع انشطة المجتمع : فهى متواجدة فى الاسرة وفى النظـــام التعليمى وفى المؤسسات الصناعية وفى الحكومة . الا أن الفكرة واضحة نوعا ما . ففى المجتمع الذى لا توجد به صناعة نمو أو الذى وصلت فيه الصناعة الى درجة الصفر فان فان كل شىء فى هذا المجتمع يستهلك ويختفى يتم استعاضته بكل بساطة ولذلك نجد أن النشاط بأكمله فى المجتمع يتم تخصيصه لعملية الاستعاضة . وهنا يكون عدد السكان ثابت . فلدى انتقال مجموعة من سن متقاربة age group الى المجموعة التالية أو لدى فنائها بالموت يحل محلها مجموعة اخرى . وعندئذ تكون العملية التعليمية كافية فقط للاحلال محل فقدان المعرفة عن طريق الموت أو عن طريق الكبر فى السن . فلدى تلاشى الموارد الفيزيقية للمجتمع يحل محلها أمور متماثلة بكل بساطة ولذلك فان انتاج كل شىء يكون متساويا تمـــاما مع الاستهلاك . وهذا يعنى انه لا يوجد هناك تراكم أو تغير . ومن المحتمل ألا يكون هناك مجتمع قد حقق كافة تلك المتطلبات ولكن العديد من المجتمعات قد ظلت راكدة تقريبا على ذلك النحو دون أن يحدث بها اى تغير . فالمجتمعات فى العصر الحجـــرى القديم قد تواجدت لفترات زمنية طويلة للغاية يتعذر تحديدها وذلك دون ان يطرا عليها اى تغير جوهرى بل ان بعض المجتمعات التى شهدت تقدما كبيرا للغاية قد عاشت لقرون عديدة فى حالة من الركود النسبى .

وكلما كان المجتمع فقيرا كلما كان من الصعب عليه الاستغناء عن اية

موارد من اجل صناعة النمو . وغالبا ما تتعرض المجتمعات الفقيرة للغاية للركود وذلك بسبب معاناتها من الفقر الشديد . ومع ذلك فالفقر ليس هو السبب الوحيد فى الركود . فهنالك مجتمعات عديدة غنية بالقدر الذى يسمح لها بتحقيق صناعة النمو ولكنها لم تحقق ذلك بسبب نظام القيم . فاذا كانت قيم المجتمع من النوع الذى يقاوم التغير واذا كانت هناك قيم راسخة مفروضة على نحو يجعل شخصيتهم ونمطهم فى الحياة متماثل تماما مع شخصيته آبائهم ونمطهم فى الحياة واذا كان التعليم الرسمى (٣٩) مهتما أساسا بالحفاظ على المعرفة الموجودة بالفعل وخاصة اذا كانت هذه المعرفة ذات طابع ادبى او طابع رسمى فان المجتمع حتى ولو كان لا يعانى من الفقر — وكذلك المجتمعات التى يمكن أن نقول عنها انها متحضرة بمفهومنا عن كلمة تحضر — قد يرفض تخصيص موارد من أجل صناعة النمو وبذلك يظل مجتمعا راكدا .

وما أن تتواجد صناعة النمو — مهما كان حجم هذه الصناعة ضئيلا — حتى يتبدد الاستقرار ويصبح التغير أمرا حتميا فى المجتمع . وقد يأتى التغير عن طريق وسائل عديدة مختلفة . فقد يأتى عن طريق تحول فى عدد السكان فى احدى لحظات التاريخ . . ولقد سبق أن أشرت الى ان الارتفاع الفجائى فى كثافة السكان عندما أرغم عصر الجليد الاخير الانسان الى النزوح جنوبا الى « شبه جزر » البحر الابيض المتوسط فى كل من المكسيك واسبانيا وايطاليا واليونان والهند وسوريا ومصر وميزوبوتاميا قد خلق ظروفا مواتية أمام النمو . وفى أوقات أخرى نجد أنه قد حدث هبوط حاد فى عدد السكان بسبب انتشار الاوبئة مثل ذلك الذى حدث فى أوقات الطاعون فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى فادى ذلك الى اعطاء السكان المتبقين على قيد الحياة كميات أكبر من الاراضى والتجهيزات فادى ذلك بالتالى الى اطلاق عملية التنمية . ويبدو ان بعض عمليات التنمية قد تولدت عن الانظمة الرمزية التى تعتبر فى الاهمية من حيث حفز الانسان ودفعه وتحريكه . فبزوغ الاديان العالمية العظمى — وينبغى علينا ان نعتبر الشيوعية احدى هذه الاديان — (*)

(*) نحن لا نتفق أبدا مع وجهة نظر المؤلف فى تلك الجملة الاعتراضية . (المعرب).

كان دائما مصحوبا بعمليات تطويرية واعمال التنمية . وفى بعض الاحيـان نجد أن بعض الظروف العارضة مثل تعاقب محاصيل ناجحة أو الانتقـال الى منطقة جديدة قد دفعت عجلة الانتاج بشكل يفوق الاستهلاك مما أدى الى ظهور فائض قد يساعد على تعميق التنمية .

وكما سبق أن أوضحنا فان أهم فائض على الاطلاق هو الفائض فى صناعة المعرفة بمعنى الفائض فى ذلك الجزء من النشاط الانسانى المخصص لزيادة وترويج المعرفة البشرية . فاذا كانت صناعة المعرفة كبيرة على نحو يكفى لخلق فائض فى انتاج المعرفة يزيد على ما يتم فقدانه باستمرار عن طريق الموت والشيخوخة عندئذ لا يمكن للجمتمع ان يتخلص من التنميـة ويتجنبها . فكل جيل سوف يعرف أثناء مروره بمراحل النضج كميـات من المعرفة تفوق ما كان يعرفه اباؤه واجداده ومن ثم سيكون على أن يفعل اكثر . وصناعة المعرفة هى أمر اكبر بكثير من مجرد التعليم الرسمى . فهى تشتمل على كافة الانشطة البشرية فى الاسرة . وفى الجماعات غير الرسمية حيث تزيد الاتصالات من الحجم الكلى للمعرفة فى عقول الرجال . بل ان التعليم الرسمى غالبا ما لعب دورا سلبيا فى التنمية نظرا لأنه كان ومايزال مهتما بالمعرفة الرسمية الخالصة وبامتلاك رموز الاوضاع المراهنة القانونية والاجتماعية Status Symbols . وحتى فى المراحل الاولى للثورة التكنولوجية يتعذر القول بأن التعليم الرسمى قد لعب دورا كبـيرا . فالرواد الاوائل ومدرسوا التكنولوجيا الجديدة كانوا فى أغلب الاحيان هم أنفسهم الصناع والمخترعون والمقاولون . وربما اندهش هؤلاء الناس عندما أطلق الآخرون اسم « المدرسين » عليهم الا ان هذا هو دورهم الرئيسى بالفعل . فالمخترع عليه أن يقوم بتدريس اختراعه للآخرين اذا ما اراد لاختراعه الانتشـار والمقاول هو مدرسى لاعمال ومهام جديدة فهو بابتكاره للتنظيمات يعلم الناس القيام بأعمال لم يسبق لهم أن قاموا بها من قبل وهو عادة ما يدرب الناس على القيـام بمهـارات جـديدة لكى يتلاءموا مع ادوارهم الجـديدة فى التنظيم الجديد .

والامر يتطلب فقط قدرا يسيرا من الانطلاق بالخيال والتصور لدى التفكير فى تكوينات البضائع الجديدة والماكينات الجديدة وجميع الابتكارات الجديدة كعملية تعليمية مفروضة على العالم المادى . فكل سلعة وكل ماكينة تتكون أصلا فى عقل الانسان وانتاجها يتكون أساسا من عملية فرض هذه الصورة الذهنية على تكوينات المادة وترتيبها . ولدى السير قدما فى التحول العظيم يصبح بالطبع للتعليم الرسمى والبحوث المنظمة أهمية متزايدة لأن حجم المعرفة يصبح كبيرة للغاية لدرجة أن الطرائق غير الرسمية لنقلها تصبح غير كافية بالمرة ولذلك فانه لا غرابة فى أن هذه الفترة الوسطى من التحول تشهد زيادة هائلة فى كمية الموارد المخصصة للتعليم الرسمى وخاصة التعليم العالى والمخصصة ايضا للبحوث المنظمة والتنميات . وحقيقة الامر انه ما أن تنقضى المراحل الاولى حتى تتوقف الى حـــد كبير مقدرة المجتمع على التنمية على نسبة الموارد التى يخصصها المجتمع للتعليم الرسمى والبحوث .

ومن المسائل الهامة بالنسبة لأى مجتمع هو دور الاستيرادات من الخارج فى مجال التنمية . فبعض المجتمعات قد نمت وتطورت معتمـــدة اعتمادا كاملا على مواردها الداخلية وبدون اللجوء الى مساعدة كبيرة ـــ أو التعرض لاعاقات كبيرة ـــ من الخارج . وهناك مجتمعات أخرى كانت علاقاتها مع الخارج هو الامر الحاسم فى مساعدتها على التنمية أو اعاقة تنميتها . وهذه الدوافع المحركة القادمة من الخارج يمكن أن تكون على أنواع عديدة . فهى قد تكون مجرد استيراد المعلومات عن العالم الخارجى بمـــا يحدث تغيرا فى كيان المعرفة بالمجتمع . وقد تكون استيراد للتنظيم أو استيراد لاناس شتى ـــ حكام أو تجار او مبشرين او عمال . وايضا قد تكون استيراد للبضائع وخاصة مواد ووسائل انتاج البضائع الاستهلاكية . وهذه العملية كانت ناجحة للغاية فى بعض الحالات مثلما حدث فى أمريكا الشمالية واستراليا واماكن بأواسط آسيا تقع فى نطاق الاتحاد السوفيتى . اذ أدت الى عمليـــة تنمية ذاتية فى هذه المناطق ما ادخلها بدون شك فى كنف العالم المتطور بسهولة

وبتضحيات اقل مما لو كانت قد اعتمدت فى تطورها على الموارد الداخليـة بها فقط .

وهذه العملية والتى يمكن أن نطلق عليها اسم التنمية المعـانة غالبا ما تسير فى ثلاثة مراحل تتمشى بعض الشيء مع مراحل الطفولة والمراهقة والنضـج فى علاقات الآباء مع الاطفـال . فمرحلة الطفولة هى المرحلة الاستعمارية التى تستورد فيها المنطقة السائرة فى التطور حكومتها من الخارج — ولا يتم هذا دائما من طيب خاطر ! . وعادة ما يكون هذا مصحوبا باستيراد قدر كبير من انواع اخرى من التنظيمات من الدولة الام وهنـاك احتمال ايضا لاستيراد البضائع وخاصة البضائع التى تهم عملية التنمية بصفة خاصة . فاذا ما انطلقت عملية تنمية داخلية فى المستعمرة فمن المحتمل عندئذ أن تمر بالمرحلة الثانية التى تساوى مرحلة المراهقة . وفى مرحلة المراهقة نجد أن الدولة السائرة فى مجال التنمية تصبح مستقلة سياسيا الا انها تظل دولة تابعة من الناحية الاقتصادية للدولة الأم السابقة . وهذا الوضع هو ما يطلق عليه الشيوعيون اسم « الاستعمار الجديد » . فالدولة التى كانت خاضعة للاستعمار من قبل تنمى تنظيمها السياسى الخاص بها الا انهـا تميـل الى الاعتماد على الدولة الأم القديمة فى كثير من تنظيمها الاقتصادى وعلاقاتها التجارية الخارجية وشئونها الدفاعية . ولكن اذا استمرت عملية التنمية فان هذه المرحلة تنتقل الى المرحلة الثالثة التى تتميز بالنضج الكامل حيث تصبح الدولة السائرة فى طريق التطور مستقلة تمـاما عن الدولة الام وواقفة على قدميها وكثيرا ما تتكرر نفس العملية بحيث تصبح هى ذاتها دولة أم . وليس هناك بالضرورة شىء شريرفى هذه العملية . فهذا الامر يحدث فى جميع المجتمعات بل ويحدث فى المجتمعـات الاشتراكيـة . فلاتفيـا Latvia وازبكستان ما زالتا فى المرحلة الاستعمارية فيما يتعلق بالروس وبولندا مازالت فى مرحلة الاستعمار الجديد أما الصين فهى تبذل الجهود المضنية من اجل الوصول الى مرحلة النضج — وان كانت محاولتها

هذه تعتبر سابقة لاوانها نظرا لان التنمية الصينية كمرحلة مازالت تشق طريقها فى هذه الايام .

واذا كانت عملية التنمية المعانة قد حققت نجاحا فى العديد من الحالات الا ان هناك الكثير من الحالات الاخرى التى لم تتمكن من احراز النجاح . فاذا أصر الاستعمار على فرض حاكم أجنبى او فرض شكل اجنبى من اشكال التنظيم على الناس فان النتائج يمكن ان تصبح بسهولة فى حجم الكارثة المهلكة . وفى كثير من المجتمعات الخاضعة للاستعمار نجد ان عملية التنمية الداخلية التى هى أمر ضرورى من أجل الانتقال الى المرحلة التالية لم تحدث على الاطلاق اما بسبب طغيان واستبداد حكومة السلطة الاستعمارية أو بسبب تاثيرات الاستعمار الضارة المدمرة لارادة الشعب الرازح تحت الاستعمار ولدوافعه المحركة . فكل شىء تقريبا يحدث للشعب الرازح تحت الاستعمار يجعله يدرك انه فى وضع المرؤوس التابع لغيره وبالتالى يشعر انه ادنى بالنسبة لغيره . ولو كان هناك أتعاظ من هذا الدرس لأصبح هناك ما يبرره . فهناك تدهور فى معنويات الشعب الواقع تحت الاستعمار مما يؤدى الى تدهور رغبته فى تحقيق الانجازات وهذا يؤدى بالتالى الى استمرار النظام لأجيال والى كبح جماح التنمية الداخلية للمناطق الرازحة تحت الاستعمار . ومن حسن الحظ أن هذه العملية قد وصلت على ما يبدو الى نهايتها ، فالتغيرات فى نطاق القوى الاستعمارية فى حد ذاتها وكذلك الثورات الخارجية فى أجزاء أخرى من العالم قد وضعت فى النهاية حدا للأوضاع الاستعمارية . فالعلاقات الاستعمارية التى دامت لفترة تزيد على ٣٠٠ سنة قليلة للغاية . ولكن تراث الاستعمار الفاشل هو تراث تعيس وقد يتطلب الامر وقتا طويلا للتغلب عليه .

وكما لاحظنا من قبل فان تدهور الاستعمار فى القرن العشرين — وهو ما يمكن أن نسميه بانهيار وسقوط الاستعمار — يعتبر ظاهرة مدهشة وهى امر وثيق الصلة بالتحول العظيم فى حد ذاته . فحتى القرن التاسع

عشر على الاقل نجد أن الاستعمار فى العديد من الاماكن والازمنة قد عاد على مايبدو بالخير على القوى الاستعمارية بغض النظر عما فعله فى المستعمرات . ولكن حتى قبل القرن التاسع عشر توجد هناك حالات عديدة مشكوك فيها . فالمستعمرات البرتغالية والاسبانية كانت على ما يبدو بمثابة استنزاف شديد للموارد البشرية مما حال دون التنمية الداخلية فى أسبانيا والبرتغال فادى هذا الى ركودها فأصبحتا بالتالى دولتين فقيرتين كنتيجة لمغامرتها الاستعمارية . الا انه من المحتمل ان يكون الاستعمار البريطانى قد عاد بالربح الوفير على البريطانيين فى القرن الثامن عشر (٤٠) وأن يكون الاستعمار الفرنسى قد عاد بالربح على الفرنسيين فى أوائل القرن التاسع عشر (٤١) . ثم اتضح تماما فى أواخر القرن التاسع عشر وبصفة خاصة فى القرن العشرين ان الاستعمار بالمفهوم القديم أصبح لا يعود بأية مكاسب على القوى الاستعمارية كما اتضح أن تكاليف الاستعمار تفوق كثيرا العائد المادى من ورائه . وبالنسبة للدول الاستعمارية التى دخلت فى هذا الميدان مؤخرا مثل المانيا وايطاليا واليابان (٤٢) كان الاستعمار بمثابة كارثة عليها ، وكانت معدلات الربح العائد عليها من وراء مغامراتها الاستعمارية سلبية للغاية . وبحلول القرن العشرين اتضح أن أفضل وسيلة لتحقيق الثروة والغنى هى البقاء فى أرض الوطن واغلاق الباب مع الاهتمام الشديد بنواحى التنمية . ففى اوربا نجد إن الدول الاسكندنافية والسويسريين الذين لم يدخلوا فى عملية المغامرات الاستعمارية قد احرزوا نجاحا اقتصاديا يفوق نجاح البريطانيين والفرنسيين والبلجيكيين والهولنديين ويفوق كثيرا نجاح البرتغاليين بالطبع . فأهمية الثورة التكنولوجية تكمن فى أنها تجعل استغلال الطبيعة أمرا مربحا للغاية بحيث يصبح استغلال الانسان لأخيه الانسان امرا محكوما عليه بالزوال .

وفى ضوء هذه الحقيقة نجد أن سقوط الاستعمار له مظهران : احدهما قبيح والآخر مفيد . فالاستعمار لا ينشأ بالضرورة عن طبيعة قلب الدول الاستعمارية

سالفة الذكر . اذ ينطوى على ازاحة الاعبــاء والتخلى عن المسئوليات بالاضافة الى الاعتراف بالحقيقة التى تقول بأن العلاقة الاستعمارية هى امر يلحق الفساد بكل من القوى الاستعمارية والمستعمرات على حد سواء . ومن اكبر المخاطر التى تواجهنا فى هذه الايام — لدى الافتراض بانه يمكن العثور على حل لعلاقات الشرق/الغرب وانه يمكن وضع الحرب البــاردة فى حالة من التخزين البارد المستمر ، هو أن الدول المتطورة Developed سوف تشكل بالفعل تحالفا ضد الدول المتخلفة مما سيجعل الدول الفقيرة الواقعــة فى نطــاق الحــزام الاستوائى عاجزة على مدى الاجيـــال العديدة القادمة .

ومن الامور الفرعية الناجمة عن الثورة التكنولوجية هى تضاؤل قوى المساومة للدول الفقيرة فى مواجهة الدول الغنية . فالتكنولوجيا تلقى بكل ثقلها فى هذه الايام بهدف تحقيق الاكتفاء الذاتى فى المناطق الصغيرة . وتوجد هناك زيادة هائلة فى عدد البدائل لكل شىء تقريبــا . وقوى المســاومة الاقتصادية الوحيدة التى يمتلكها الحزام الاستوائى تتركز فى مقدمتها على الامتناع عن توريد المنتجات الاستوائية . الا ان هذه المنتجات قد اصبحت على ما يبدو قليلة الاهمية بالنسبة للانظمة الاقتصادية فى المنطقة المعتدلة . فنحن لدينا الآن مطاط صناعى وكافور صناعى وربما فى القريب العـاجل سيكون هناك كاكاو صناعى . وقد لا يتبقى للحزام الاستوائى سوى القليل للغاية فى مجال المنافع النسبية . ولذلك يبدو ان الامل الوحيد على المدى البعيد للدول الفقيرة هو اما تطور الشعور بالوحدة العـالمية والمسئولية التى يمكن ان تتفوق على العجز فى قوة المساومة لديها واما أن يحدث تطور من جانبها للعمليات الداخلية للتحول المستقلة من العلاقات الخارجية . ومما لا شك فيه أن تطور الشعور بالوحدة العالمية والمسئولية العالمية هو أمر آخذ فى التزايد — وان كانت المساعدات الخارجية — على سبيل المثــال — هى نتيجة للحرب الباردة وهى مساعدات سوف تختفى اذا اختنقت الحرب

الباردة وهذه مسالة واضحة . وصحيح أن القوى الاستعمارية القديمة وخاصة الفرنسية والبريطانية مازالت تشعر بقدر كبير من المسئولية ازاء مستعمراتها السابقة . الا أن الروس مع ذلك قد انسحبوا انسحابا كاملا من مسالة المساعدات الاجنبية الخارجية كما أن برنامج المساعدات الخارجية فى الولايات المتحدة الامريكية يتعرض لضغوط سياسية قاسية . ومن المؤكد أن تخفيف حدة التوتر بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى قد يؤدى بسهولة الى تخفيض حساد فى برنامج المساعدات الخارجية فى كلا الدولتين .

كذلك نجد أن مرحلة المراهقة للتنمية السياسية وهى المرحلة التى يمر بها معظم أنحاء العالم الاستوائى . تعتبر غير ملائمة للاستثمار الاجنبى . ويمكن القول أن الاستثمارات الاجنبية — اذا كانت الظروف ملائمة لها — من المحتمل أن تكون أكثر نجاحا فى مجال تنمية الشعوب الفقيرة من أى برنامج للمساعدات الاجنبية . فالشعوب تصبح أحيانا غنية عن طريق الاقتراض الناجح ولكنها نادرا ما تصبح غنية عن طريق التسول . فعادة ما تكون المساعدات الاجنبية ضئيلة بحيث لا تكفى لاحداث أى تغيير جوهرى . الا أن تفكك العالم وتحوله الى عدد كبير للغاية من الوحدات السياسية المستقلة قد جعل الاستثمارات الاجنبية محفوفة بالمخاطر مما سد الطريق أمام تنميتها تنمية كبيرة . وهذا أيضا يعتبر أحد مظاهر الثورة التكنولوجية التى نلحظها من الآن بالفعل — وهى أن أعلى المنافع فى هذه الايام تأتى عن طريق المكوث فى أرض الوطن واهتمام الانسان بتدبير شئونه بنجاح .

لذلك فلا مناص من مواجهة مشكلة التنمية الداخلية . وحقيقة الامر أن المرء باستطاعته أن يؤكد فى شىء من الثقة أن التنمية المعانة ستكون غير ناجحة اللهم الا اذا كانت هناك عملية تنمية داخلية لمساندتها . بل ويبدو أن التنمية المعانة قد ثبت نجاحها فقط فى تلك الدول التى زرعت بها الثقافة النامية عن طريق الهجرة . والمثال الواضح الوحيد الذى يدل على نجساح

التنمية خارج نطـــاق هذا المجال هو اليابان التى تعتبر نموذجا كلاسيكيا للتنمية غير المعانة . وبالطبع لو لم يكن هناك استيراد للمعلومات وخاصة تلك المعلومات التى نقلها رسل بوارج امير البحر بيرى Perry لما تمكنت اليابان من الاضطلاع بالتنمية الخاصة بها . فما ان تغلغلت هذه المعلومات حتى سارت التنمية فى اليابان قدما معتمدة اعتمـــادا كاملا على مواردها الداخلية . ومن المؤكد انه لم يكن هناك اية مساعدات فى خلال القرن التاسع عشر كما لم يكن هناك سوى قدر ضئيل للغاية من الاستثمارات الاجنبية . فاليابانيون انفسهم ذهبوا الى اوربا لكى يتعلموا التكنولوجيا الجديدة ثم قاموا بانفسهم بالمبادرة الى استيراد التكنولوجيا والخبراء الفنيين ، وما ان تعلموا الطرائق الفنية للعمل حتى بادروا الى التخلص من الخبراء الفنيين الاجانب والاستغناء عن خدماتهم . فنجاح التنمية اليابانية يرجع بكل بساطة الى ان اليابان خصصت نسبة كبيرة من مواردها لتنمية الصناعة وخاصـــة المورد البشرى .

ويمكن تلخيص الاسس التى تقوم عليها التنمية الاقتصادية فى المثـــل القديم الذى يقول « حيث توجد الارادة يوجد طريق » . والطريق فى الواقع سهل للغاية ومعروف تماما . فهو ليس سوى تخصيص الموارد من اجل النمو . وهذا امر غاية فى السهولة . الا ان المشكلة هى الارادة واعتقد اننا لا نفهم الارادة فهما جيدا . فجميع الاوساط الثقافية فى اى مجتمع تلعب دورا فى عملية تطوير ارادة المجتمع ومن الصعب ان نعزل العوامل التى تحدد الاتجاهات . ومما لاشك فيه ان انتشار المبادىء الاخلاقية المتزمتة على نطاق واسع — كمـــا اشار ماكس ويبر Max Weber — يعتبر من الامور الهامة المفيدة لو ان هذا جعل النـــاس يركزون على الاجتهـــاد فى العمل والاقتصاد فى النفقات . ومن ناحية اخرى نجد ان التزمت الاخلاقى غالبـــا ما يتمشى مع مقاومة التغير الاجتماعى ومع عدم الرغبة فى استحداث ابتكارات خارج نطاق ميدان ضيق من التكنولوجيا علما بان الاقتصاد فى النفقات وحده

يؤدى فى الغالب الى اشكال غير خلاقة من التراكمات بل وقد يؤدى الى البطالة والكساد الاقتصادى . والتراكمات فى حد ذاتها تعتبر غير كافية . فالتنمية الاقتصادية لا ترتكز فقط على تكوين الاشياء وانما ترتكز على تكوين أنواع جديدة من الاشياء .

ورغم أن الافكار الدينية والاخلاقية التى تسود فى مجتمع ما والمؤسسات التى تصيغ هذه الافكار وتروج لها تعتبر ذا أهمية كبرى فى شرح وتوضيح التنمية الا أنه من الصعب عادة ان يضع المرء يده على الموضع الذى تكمن فيه الاهمية . والمبادىء الاخلاقية المتزمتة لا تعتبر كافية لأنه هناك العديد من المجتمعات المزمومة الشفاه مثل المجتمعات التى تسكن مرتفعات اسكتلندا والتى تعتبر تقليدية الى حد بعيد . ومن ناحية اخرى فانه من الواضح ايضا أن المبادىء الاخلاقية التى تنادى بالملذات الانسانية بدون أى اعتبار للمستقبل تعتبر من الامور الخطيرة المعرقلة . فأبو نطيط لا تبنى كثيب النمل . ومن ناحية أخرى فالنملة لا تذهب مطلقا الى ما هو وراء بناء كثيب النمل . ولكى تكون لدينا الرغبة فى الابتكار ينبغى علينا أن نتطلع الى ما هو وراء المبادىء الاخلاقية المتزمتة اى يجب أن نتطلع الى ما يمكن أن يسمى بالدين التجريبى الذى يركز على الخبرة الفردية وليس على التقبل الاعمى للتقاليد القديمة . فالمجموعات الدينية المتألقة تحت اسم الكويكرز Quakerism واسم الميثودية Methodism من ناحية وتحت اسم زين بوذية Zen Buddhism من ناحية أخرى قد تكون لها صلة برغبات الحضارات الفرعية التى تغلغلت فيها هذه الافكار الدينية فى الترحيب بالتغير والبدء فيه .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن أى مجتمع تسوده اديان تقليدية جامدة ويعتمد على العبارات والصيغ السحرية والضغوط الاسرية وبث فكرة التكاثر والتدعيم الشعبى فى أذهان الاطفال يجد التنمية من الامور الصعبة للغاية . وتصبح أكبر المشاكل هنا هى شرعية التغيير ، ففى المجتمع

التقليدى يكون التغيير من الامور غير الشرعيــة . وغالبا ما يلعب الدين التقليدى دورا هاما فى خلق هذا الاحساس بعدم شرعية التغيير . اما الدين التجريبى فانه يضفى صفة الشرعية على التغيير . ومن ناحية اخرى قد تكون هناك مجتمعات يسودها دين تقليدى ومع ذلك توجد بها ايديولوجية سياسية تضفى صفة الشرعية على التغيير . وقد تكون كل من اليـابان والاتحــاد السوفيتى مثالا للتنمية التى تنبع من الاصول السياسية وليس من الاصول الدينية . ومن ناحية أخرى نجد أن دولا متنوعة مثل أسبانيا والبرتغال وبيرو فى العالم المسيحى وبورما وسيلان وتايلاند فى الشرق الاقصى تواجه مصاعب التنمية الاقتصادية نظرا لأن النظام السائد بها هو نظام تقليدى نابع من الدين ونظــــرا لان التدعيم المستمر من جانب الدين يقوم على مقدرة الدين على مقاومة التغيير .

ويمكن تلخيص المشكلة السياسية التى تواجه التنمية بأن نقول بان التنمية لن تحدث اذا كان أولئك الذين عندهم الرغبة والتصميم لا تكون لديهم السلطة وأولئك الذين لديهم السلطة ليست لديهم الرغبة والتصميم . وبالتالى فانه من الشروط الاساسية الواجب توافرها لتحقيق التنمية هو ضرورة قيام ثورة سياسية من نوع ما تزيح من السلطة اولئك الذين ليست لديهم الرغبة والتصميم وتعطى السلطة الى اولئك الذين لديهم الرغبة والعزيمة القوية . ومن ناحية أخرى فانه ليس من السهل دائما معرفة اولئك الذين لديهم الرغبة والارادة أو اولئك الذين لديهم السلطة ، كما ان الثــورات السياسية ليست هى وحدها التى تحقق مثل هذا النوع من التغيير والتحويل فى المجتمع . ففى المجتمع الراسمالى على سبيل المثال — نجد أن النظــام المالى وخاصة النظام المصرفى للبنوك قد قام ومازال يقوم بدور القوى الثورية الدائمة بحيث يضع السلطة دائما فى ايدى المجددين والمبتكرين ويسحب السلطة من التقليديين . فخلق الائتمان المصرفى يؤدى حتما الى اعادة توزيع ممتلكات المجتمع بحيث تؤخذ من أولئك الذين يهتمون بالانشطة المالوفة

وتعطى لأولئك الذين ينشئون صناعات جديدة وسلعا جديدة بالاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة . الا اننا نجد عكس ذلك فى بعض المجتمعات التى يوجد بها نظام مالى غير متطور تسيطر عليه مجموعة صغيرة من المرابين المحليين حيث يؤدى هذا الوضع الى تدعيم الاساليب التقليدية والى الحيلولة دون التنمية .

وهذا وسوف نتناول دور الشيوعية فى التنمية فى فصل لاحق . ومع كل فانه من المهم أن نشير هنا الى المؤسسات المالية قد تحبط وقد تشجع التنمية وان هذا الامر ينطبق أيضا على مؤسسات الاشتراكية . فعندما تطبق هذه بطريقة تعسفية على مناطق بها حياة اقتصادية لا تتلاءم معها فانها قد تحبط التنمية وقد تشجعها . فعلى سبيل المثال نجد ان الاشتراكية لم تحرز نجاحا فى مجال الزراعة حتى الآن كما انها ناجحة الى حد ما فى اعمال البيع بالقطاعى وبالجملة . أما نجاح المجتمعات الشيوعية فى مجال التنمية فانه يرجع الى رغبتها فى تخصيص كميات كبيرة من الموارد لها ولا يرجع الى اية كفاءة اظهروها فى استخدام تلك الموارد . ورغم أن السبيل الى التنمية يعتبر بذلك من الامور اليسيرة للغاية الا أن الاوعية التى تعد فيها التنمية تكاد تتغير تغيرا لا نهائيا علما بأن طريقة اعداد التنمية وليس الوعاء التقليدى هو الشىء الهام .

ولذلك فرغم أن فشل التنظيمات الدستورية التقليدية فى العديد من الدول قد يؤدى الى تأجيل الشروع فى التنمية لأجيال بل وربما لقرون فان المرء يأمل فى أن يكون هذا مجرد تأجيل وليس فشلا ميئوسا منه . واخيرا يمكن القول أن المثل الذى ضربه لنا العالم النامى سيرغم جميع المجتمعات على السير قدما نحو التنمية . الا ان مجرد الرغبة فى التنمية لا تتساوى مع تلك الارادة والعزيمة الفعالة التى تكمن فى ايدى اولئك الذين لديهم السلطة . ولكن مجرد التغييرات التى تحدث فى كيان السلطة فى جميع المجتمعات ستؤدى حتما فى النهاية الى اعطاء السلطة لأولئك الذين يمتلكون المعرفة

وقوة الارادة . فاذا وصلنا الى هذه النقطة تصبح التنمية أمرا حتميا لا رجعة فيه . وهناك فى الحقيقة مجتمعات يراسها حكام فى هذه الايام يشعرون بأن ثمن التنمية باهظــا للغــاية نظــرا لأن الثمن قد يتضمن مركزهم وهيبتهم وسلطانهم . ان عملية التنمية فى الاقتصاديات وأيضا فى الحرب والسلام يمكن مقارنتها بمستجمع الامطار الذى يمد نهرا ما بالمياه أو يمكن مقارنتها بالطريق الجبلى . فالمجتمع قد يدفع التل نحو المر الجبلى ويتراجع متقهقرا مرات عديدة . الا انه فى النهاية يصل الى القمة وهذه هى نقطة اللاعودة . فمنذ ذلك الوقت فصاعدا يشق المجتمع طريقه بين مشاهد طبيعية مختلفة .

الفصل السادس

الانفجـــــــار الســـــــكانى

THE POPULATION TRAP

من أصعب المشكلات التى تواجه الجنس البشرى فى العصر التاريخى الحالى هى مشكلة السيطرة على عدد السكان . وهذه المشكلة لها مظهران : مظهر مباشر قصير المدى يتضمن العلاقة بين النمو السكانى وبين ديناميكيات المجتمع النامى ، ومظهر بعيد المدى يشتمل على التوازن السكانى النهائى . وكلا هاتين المشكلتين لهما أهمية كبرى ولم يتم العثور حتى الآن على حل جذرى لهاتين المشكلتين .

والمظهر القصير المدى للمشكلة قد نجم الى حد كبير عن السيطرة الفجائية على الملاريا وغير ذلك من الاجراءات الصحية العامة فى المجتمعات الاستوائية التى كانت بها فيما سبق معدلات مرتفعة فى وفيات الاطفال . ويمكن لنا أن ننظر الى هذا الموضوع على أنه اقحام لبعض طرائق ما بعد الحضارة فى مجتمعات مازالت تسير فى مرحلة الحضارة الكلاسيكية . وعادة ما تكون النتائج مذهلة . فبمساعدة الـ د . د . ت أصبح من الممكن تخفيض معدلات الوفيات من المستوى « المتحضر » البالغ حوالى ٢٥ فى الالف الى ٩ أو ١٠ فى خلال عام واحد أو عامين . ومازالت الاسباب الفزيولوجية لهذه الظاهرة غير معروفة على وجه الدقة . ويبدو أن القضاء على الملاريا هو الحاسم وان كان من المحتمل ألا يكون هو السبب الوحيد . ولكن مهما كانت الاسباب فان الحقائق واضحة والنتائج المترتبة على ذلك يمكن أن تصبح بسهولة فى حجم الكارثة . ولا توجد هناك سخرية تراجيدية اشد من هذا اذ اتضح أن التحسين الفجائى فى صحة الناس وخاصة الاطفال يعتبر كارثة

مروعة . فاذا لم يحدث هناك انخفاض مماثل فى معدلات المواليد ستواجه هذه المجتمعات مشكلة يتعذر السيطرة عليها مما سيؤدى فى النهاية الى القضاء على تنميتها الاقتصادية تماما .

والمشكلة تنشأ لأن التغير الفجائى فى وفيات الاطفال بدون حدوث تغير مماثل فى معدلات المواليد يؤدى الى تغير توزيع الاعمار فى المجتمع نحو الاعمار الاصغر سنا بسرعة هائلة بحيث يصبح لدينا نسبة كبيرة للغاية من الاطفال . وهذا يعنى بالتالى أن نسبة السكان الذين يقومون بالاعمال الانتاجية من سن ١٥ سنة الى ٥٩ سنة تبلغ حوالى ٦١ فى المائة فى أوربا وأمريكا الشمالية وأوشنيل Oceania (*) أى فى الجزء النامى من العالم — بينما كانت النسبة فى أفريقيا الاستوائية ٤٩٪ فقط وفى آسيا حوالى ٥٥٪ . وهذا على الرغم من أن الجزء النامى من العالم به نسبة كبيرة للغاية من الناس الطاعنين فى السن . وفى أفريقيا وجنوب شرق آسيا كانت نسبة السكان الذين هم تحت سن ١٥ سنة ٤٣٪ والسبب فى هذا يرجع — من بعض النواحى — الى وفيات اليافعين حتى ان نسبة صغيرة من السكان تصل الى سن الستين ، كما يرجع من نواح أخرى الى الانخفاض الشديد فى وفيات الاطفال الذى حدث فى معظم هذه الدول فى اواخر الاربعينات .

وهذا الوضع الذى تنخفض فيه وفيات الاطفال بدون حدوث انخفاض مماثل فى معدلات المواليد وقبل التوسع فى امتداد عمر اليافعين يؤدى حتما الى كارثة ديموجرافية واقتصادية . فالانخفاض المستمر فى نسبة عدد من السكان هم فى سن عدم الانتاج ، ومقدرة المجتمع على تخصيص موارد السكان الذين هم فى سن الاعمال الانتاجية ينبغى أن يساند النسبة المتزايدة من أجل صناعة النمو تتضاءل فى تطابق . وتزايد المشكلة تعقيدا لأن تعليم

(*) وهى جزر الباسفيك بما فى ذلك ميلانزيا وميكرونيزيا وبولينزيا وكذلك نيوزيلاندا واستراليا والملايو .

(المعرب)

الصغار هو احد العناصر الرئيسية فى صناعة النمو فى حد ذاتها . فعندما تكون هناك نسبة كبيرة للغاية من الاطفال تزداد صعوبة تخصيص الموارد لنوع التعليم الذى تحتاج اليه اذا ما أردنا للمجتمع أن يشق طريقه نحو العالم العصرى المتمدن .

ومن الفوارق الجوهرية بين المجتمع المتحضر ومجتمع ما بعد التحضر هو انه فى المجتمع المتحضر يتطلب الامر تخصيص نسبة ضئيلة نسبيا من السكان اليافعين العاملين من اجل تربية وتنشئة وتعليم الصغار . فالاطفال يتم تربيتهم وتعليمهم اثناء أوقات الفراغ العرضية لأمهاتهم حيث يكون الوقت الرئيسى للأمهات مخصصا للعمل الانتاجى فى المزرعة أو الدكان الصغير او الشئون المنزلية الصناعية . اما فى مجتمع ما بعد التحضر فان كمية التعليم التى ينبغى أن يقوم بها الشخص العادى تعتبر كبيرة للغاية حتى ان مهمة التعليم لا يمكن أن تتم عن طريق الاسرة . لذلك فان الامر يتطلب ضرورة تواجد نسبة متزايدة من الموارد لكى تخصص للتعليم الرسمى وأثناء تحركنا نحو مجتمع ما بعد التحضر فاننا نتحرك نحو مجتمع يتلقى فيه كل طفل وكل شاب تعليما رسميا على مدى العشرين عاما الاولى من حياته تقريبا . وهذا الاستثمار المتعمد فى المورد البشرى هو المفتاح الرئيسى الذى يؤدى الى الانتقال من مجتمع التحضر الى مجتمع ما بعد التحضر . وفى تلك المجتمعات المتحضرة التى تعانى من ثورات ديموجرافية كبرى نجد أن مشكلة التحول تزداد حدة الى حد كبير بسبب أعباء النسبة الكبيرة من الاطفال .

وفى المجتمعات النامية نجد أن مشكلة الثورات الديموجرافية (٤٤) ليست بالغة الحدة رغم أن الانتفاضة فى العديد من هذه الدول فى معدل المواليد اعتبارا من عام ١٩٤٠ فصاعدا قد خلق مشكلة خطيرة أمام التعليم . الا أن جميع الدول سواء أكانت نامية او غير نامية تواجه مشكلة التعادل السكانى على المدى البعيد . ولا توجد هناك دولة فى العالم بها سكان ثابتون . فمتوسط معدل الزيادة فى سكان العالم تبلغ حوالى ٦ر١

فى المائة سنويا ، وعلى مدى الاربعين عاما القادمة قد تصل هذه النسبة الى ٢ ٪ سنويا . وهذا معناه ان عدد سكان العالم سوف يتضاعف فى فترة تقل عن أربعين عاما . ولذلك فان القرن الحالى يسمى عصر الانفجار السكانى . لانه لم يحدث فى تاريخ البشرية أن تزايد السكان بمثل هذا المعدل ، ومن الواضح أن هذه النسبة من التزايد السكانى لا يمكن ان تستمر على ذلك النحو لفترة طويلة لغاية . فاذا استمر التوسع السكانى فى السير بهذا المعدل فان جميع الاراضى اليابسة الموجودة فى العالم باسره ستصبح مدينة واحدة عقب مرور ٣٠٠ سنه فقط . وبعد مرور حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ عام لن يكون لدينا حيز فقط لوقوف الآدميين عليه على وجه الكرة الارضية . واذا اعتقد فرد فى انه يمكننا ان نحل هذه المشكلة عن طريق اطلاق الآدميين الى الفضاء الخارجى ، فاننا نقول أن الكون الفلكى باكمله الذى يبلغ قطره ٢ بليون سنة ضوئية سيصبح محتشدا بالآدميين عقب مرور حوالى ٨٠٠٠ سنة فقط وفقا لمعدلات الزيادة الحالية فى السكان .

ومنذ جيل مضى كان من المعقول أن نفترض ان الدول الغنية بها معدلات مواليد اكثر انخفاضا من معدلات المواليد فى الدول الفقيرة وان الطبقات الغنية فى الدولة الواحدة كانت بها معدلات مواليد منخفضة عن معدلات المواليد الخاصة بالطبقات الفقيرة . ولذلك فقد بدا ان السبيل الى السيطرة على عدد السكان فى ذلك الوقت هو العمل على جعل كل فرد من الاغنياء . وبعدئذ قال البعض ان الناس سيدركون مدى التكلفة العالية اللازمة لتربية الاطفال وبذلك سيحاول تلقائيا تحديد النسل لكى لا يهبط مستوى دخلهم . وحقيقة الامر انه كانت هناك فى الثلاثينات من القرن العشرين مناطق عديدة فى اوروبا وقطاعات عديدة من السكان فى أمريكا الشمالية توجد بها معدلات تناسل منخفضة للغاية مما جعل المراقبون يخشون من احتمال انقراض الجنس البشرى . ويبدو انهم

كانوا ينظرون الى صافى معدل التناسل على انه النسبة بين كل جيـــل وبين أعداد آبائه . فاذا كانت هذه النسبة واحدة فان كل جيـــل يموت يحل محله جيل آخـــر مساوى له فى العــدد . واذا كانت النســـبة أكثر من واحد فمن المحتم ان يتزايد عدد السكان واذا كانت النســـبة اقل من واحد فمن المحتم ان ينخفض عدد السكان . وفى الثلاثينـــات من القرن العشرين كان صافى معدل التناسل فى العـــديد من المجتمعـــات النامية أقل بالفعـــل من واحد . الا انه فى الاربعينات من القرن العشرين حدث تغير ربما بسبب الدخول الآخـــذة فى الارتفاع بالاضافة الى ظهـــور اتجاهات ملائمة نحو الاطفال . وهذا قد يدل على العودة الى الوراء نحو الاسرة من حيث هى جزيرة الامن الوحيـــــدة فى عالم اصبحت فيه الدولة ماردا غير قادر على توفير الامن أو جذب محبة حقيقية صادقة . ومهمـــا كانت الاسباب فان الحقائق واضحة . ففى جميع المجتمعات تقريبا نجد أن صافى معدل التناسل اكبر بكثير من واحـــد . فمعدل الزيادة الحـــالية فى الولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال من شـــأنه ان يؤدى الى زيادة عدد السكان فى امريكا بحيث يصبح سكانها بليون شخص فى خلال فترة تزيد قليلا على مائة عام . ولذلك فمن الجـــائز جـــدا أن ينظر أحفاد احفادنا الى هذه الفترة التى نعيشها الآن على انها عصر ذهبى يتميز بالحياة الرحيبـــة حيث انهم سيقطنون كوكبا مكتظا لا يوجـــد به مكان شـــاغر يسمح بالحركة ولا مكان شـــاغر يمكن الذهاب اليها .

ولذلك فان البشرية تواجه مشكلة بشعة اذا نظرنا للمسألة من حيث علم الحســـاب المحض . والى جانب ذلك فهو حســـاب لا يمكن انكاره رغم اننا جميعا نحاول أن نرفضه وننكره . وعلم الحســـاب يقـــول لنـــا فى وضوح : أن أى معـــدل نمو ايجابى مهما كان يؤدى الى ضـــخامة حجم السكان الآدميين بشكل غير مقبـــول مهما كانت ضـــآلة معـــدل النمـــو اللهم الا اذا أمكن تخفيض معدل النمـــو السكانى الى الصـــفر

قبل أن يصل السكان الى حجم غير مقبول . وهناك نظرية مشـــــهورة فى العلوم الاقتصادية ، نظرية اسميها النظرية الكئيبة وهـــذه النظـرية تقـــول: لو أن الشيء الوحيـــد الذى يمكنه ايقـــاف النمو السكانى هـــو الموت جوعا والبؤس عندئذ فان السكان سيتزايدون الى ان يصـــلوا الى نقطة البؤس والموت جوعا اللازمة لايقـــــاف نموهم . بل وهناك نظرية اخرى اشـد سوءا اطلق عليها اسم النظرية الكئيبة للغـــاية تقول : لو ان الشيء الوحيـــد الذى يمكنه ايقاف النمو السكانى هو الموت جوعا والبؤس فان النتيجة النهائية لأى تطور تكنولوجى هى تمكين اعداد أخرى كبـــيرة من الناس من العيش فى بؤس بحيث يكون عدد البؤساء اكبر من ذى قبل وبالتالى نعمـــل على زيادة الحجم الكلى للبؤس البشرى . ويمكن بالطبع اعادة صياغة هاتين النظريتين فى قالب مشرق — لو أن هنـــاك شيء ما بخــــلاف الموت جوعا والبؤس يمكنه ايقاف النمو السكانى لن يتزايدون الى ان يصلوا الى حـــد البؤس والموت جوعا . الا ان الصيغ المشرقة لهاتين النظريتين يتطلب منا بذل الجهد الواعى والتنظيم الاجتماعى . فبدون الجهود الواعية والتنظيم الاجماعى ستتغلب النظريات الكئيبة .

ولكى تتحول النظريات الكئيبة الى نظريات مشرقة ينبغى علينا ان نواجه نظرية حسابية أخرى . وهذه النظرية تقول : فى حالة وجود تعادل سكانى يجب الا يكون هناك فقط مساواة بين معـــدل المواليد ومعــــدل الوفيات وانما يجب أن تكون هناك ايضا مســـاواة بينهما من حيث متوسط العمر التبادلى عند الوفاة — أو متوسط توقعات الحياة التبادلية عنـــد الميلاد . فلو كان متوسط العمر لدى الوفاة هو ٢٥ عاما عندئذ ســـيكون معـــدل الميلاد ومعدل الوفاة ٤٠ لكل الف فى المجتمع السكانى المتعادل . ولو كان متوسط العمر لدى الوفاة هو ٧٠ عاما ، حيث سيكون على ذلك النحـــو فى مجتمع ما بعـــد التحضر ، عندئذ فان معـــدل الميلاد ومعـــدل الوفاة لا يمكن أن يزيدا عن ١٤ ، واذا لم تكن هناك سيطرة على المواليد

ـ بمعنى ان تحـديد عدد المواليد يكون تحت الحد الطبيعى للاخصاب فلن تكون هناك سيطرة على الوفيات .واذا سمح لمعـدل المواليـد بالتزايد الى حـد الاخصاب الطبيعى وهو يتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ فى الالف فان معـدل الوفيات سيرتفع فى نهاية الامر الى هذا المسـتوى وهذا يعنى ان متوسط العمر لدى الوفاة سيكون ٢٥ سنة فقط او ربما اقـل من ذلك . وهذه فى الواقع هى صـورة طبق الاصل من الاوضـاع السائدة فى الحضارة الكلاسيكية . فاذا كنا نريد ان يكون لدينا سـيطرة على الوفيات واذا كنـا نريد ان نرفع العمر لدى الوفاة الى سن السبعين عندئذ ينبغى علينا ان نواجه تحديد المواليـد . واى مبـدا أخلاقى ينادى بخلاف ذلك هو مبدا اخلاقى زائف . لان أى مبـدا اخلاقى يحـاول انكار حقائق علم الحساب المجردة لا يمكن أن يكون صادقا .

وبعد هذا التوضيح ينبغى علينا ان نسـارع الى القول بأن هنـاك العـديد من الوسـائل المختلفة التى تعمل على التوصل الى تحـديد المواليـد . فمنع الحمل يعتبر من الوسـائل الهامة ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة بل ويعتبر فى الحقيقة غير كاف . فكما هو الحال بالنسبة للتنمية الاقتصادية ، نجد ان الشـعار فى السيطرة على السكان هو « حيثما توجد الارادة توجد الوسيلة » . وقوة الارادة تعتبر فى غاية الاهمية والوسـيلة لها اهمية ثانوية . الا أن العديد من الوسائل الشـديدة الفاعلية تعتبر فى نفس الوقت من الامور غير المتمـة بل ومن الامور غير المقبـولة . فقتل المواليـد والاجهاض ما زالا اهم وسائل السيطرة على السـكان والتحكم فى اعدادهم . أما قتـل المواليـد فهو امر بغيض للحسـاسية الاخلاقية المتطورة ولا يمكن ممارسته بدون تدمير قيم روحية معينة تعتبر ذات اهمية بالنسبة لنوعية عالية من الحياة الانسانية . ومما لا شك فيه ان الاجهاض يفضله الناس على قتل المواليد ، رغم أننا لا نعـرف سـوى القليل للغاية عن التدمير النفسى والفسيولوجى الذى ينجم عنـه

ولذلك فمن يوصى باللجوء الى الاجهاض يعـانى من تأنيب الضمير . ولكن لو كان الاجهاض هو الوسيلة الناجحة لتحقيق التحـكم فى عدد السكان فانه ينبغى التخلى عن الاتجاهات الاخلاقية المناهضة له وذلك فى ضـوء البؤس الانسانى العميق الذى ينجم عن عدم مقدرة التحكم فى عدد السكان. وهنا ينبغى أن نحسب التكلفة الاخلاقية فى مواجهة العائد الاخلاقى .

ومن المؤكد أن منع الحمل بالوسائل الطبيـة Contraception هو امر مفضل على الاجهاض . ويبدو ان الاعتراض على منع الحمل مقصور على فرع رئيسى واحـد من فروع الكنيسة المسيحية . وحتى هنـا نجد ان الخـلاف من الناحية العملية بين هذه الكنيسة وبين باقى المجتمـع يعتبر أصغر بكثير من الخلاف فى التعاليم الاخلاقية . الا أن منع الحمـل طبيا له هو الآخر مشاكله ولا يعتبر باى حال من الاحـوال حـلا تلقائيا لمشكلة التحكم فى عدد السكان . بل ان الآباء رغم معرفتهم الكاملة لمنـع الحمل وممارستهم له اياه قد يقـررون عن طيب خاطر أن يكون لديهم المزيد من الاطفال وعندئذ يصبح عدد الاطفال اكبر من العـدد المطلوب للحفاظ على ثبات التعـادل فى السكان . هذا بالاضافة الى ان الوسـائل الحالية ليست مؤكدة من حيث دوام التنفيـذ العملى ، فحتى لو قـرر معظم الآباء أن ينجبـوا طفلين فقط ثم انتهى الامر بانجـاب الطفل الثالث بطريق الصـدفة فان هذا يكفى لهدم التعادل السكانى .

والحقيقة التى ينبغى الاعتراف بها هى أن المؤسـسات الاجتماعية هى التى تتحكم فى تحديد مقدرة المجتمع على التحكم فى عدد سكانه ، وليس مجـرد فسيولوجيا التناسل .

والمثال الكلاسيكى الذى يدل على صحة هذا الرأى هـو ايرلندا . فقد تلقى الايرلنديون درسا قاسيا من نظرية مالتوس Malthus (*)

(*) هذه النظرية تقول أن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد المواد الغذائية وبأن النسل يجب أن يحدد أو يضبط .

(المعرب)

ففى عام ١٧٠٠ كان عدد سكان ايرلندا حوالى ٢ مليـــــون نسمة وكانوا يعيشون فى حالة من البؤس ويعتمـــدون فى حياتهم على كميـــات ضئيلة من الحبـــوب والغلال . وبعدئذ ادخـــل شـــخص ما البطاطس التى كانت بمثابة تقـــدم فنى كبير حيث ادى ذلك الى زيادة هائلة فى انتاجية الفدان الواحد من الطعام اكثر من ذى قبـــل ، وبالتالى زادت كمية الطعـــــام بالنسبة لكل فرد . فتحسن المستوى المعيشى للفـــــرد الايرلندى لبعض الوقت وانخفضت نسبة وفيات الاطفال واصبحت هناك زيادة كبـــيرة فى عدد السكان . وبحلول عام ١٨٤٦ أصبح هناك ٨ مليون شـــخص يعيشون فى بؤس على الانتاج من البطاطس . وليس هنـــــاك مثـــال يدل على النظرية الكئيبة افضل من هذا . وبعدئذ حدث هبوط فى محصول البطاطس وجاءت المجاعة الكبرى . فمات ٢ مليون شخص بسبب الجوع وعدم توفر الطعام . وهاجر ٢ مليون شخص . وتلقى الاربعـــة ملايين المتبقيـــة فى ايرلندا درسا من هذه المحنـــة واخذوا منها عظة وعبرة . فقد زاد ســــكان ايرلندا زيادة ضئيلة للغـــاية على مدى مائة ســـــنة وذلك نتيجة للهجرة المستمرة وان كان السبب الرئيسى فى ذلك يرجـــع الى تحـــديد المواليـــد . وقد تحقق تحديد عدد المواليد عن طريق الزواج فى سن متأخرة وعن طريق فرض قواعد اخلاقية صــــــارمة على الشباب مما أدى الى تخفيض عدد الاطفال الذين يولدون خارج نطـــــاق الزواج الشرعى . ومن المدهش حقـــا أن من انجح الامثلة فى مجـــال التحـــكم فى عدد السكان كان ينبغى أن يحدث فى دولة يسكنها الروم الكاثوليك ، ولكنها دولة تتخذ فيها الكاثوليكية طابع التزمت بشـــكل غير عادى .

ولكن التنوع الكبير للحلول الممكنة لهذه المشكلة يصبح واضـــــحا عندما ننظر الى اليابان فهى تكاد تكون الدولة الاخرى الوحيـــدة التى احرز فيها التحـــديد المتعمـــد للنمو السكانى نجاحا كبيرا . وهنا يبدو أن جهاز تنظيم السكان والتحكم فى أعدادهم كان وما يزال يعتمـــد على الاجهاض

وليس على الزواج المتأخر . الا أن الاجهاض والزواج المتأخر يعتبران من الحلول الواهية غير الراسخة حيث ثبت عدم نجاحهما نجـاحا كاملا لان صافى معدل التناسل سواء فى ايرلندا او اليابان لم ينخفض بالفعـل الى واحد ، كما أن الحلول الموجودة بالفعل يمكنها أن تنهـار بسـهولة تحت تأثير التغيرات الاجتماعية أو التنميات الاقتصادية .

وعلى النطـاق العالمى نجد أن هذه المشكلة بأكملها قد سـارت فى تعقيـدات هائلة بسبب معدلات النمو السكانى المختلفة فى المنـاطق والامم المختلفة . لقد تمتعت أوربا بالثمار الاولى الناجحة عن الثـورة التكنولوجية ويمكن النظر الى الفترة من عام ١٥٠٠ الى أوائل القرن العشرين على أنها فترة تسـودها تزايد القـوى الاوربية وامتداد السكان الاوربيين الى اماكن أخرى من العالم . فالسكان فى قارة أمريكا الشمالية وقارة أمريكا الجنوبية واستراليا معظمهم من الاوربيين وذلك على الاقل فى المناطق المعتـدلة المنـاخ . والجدير بالذكر ان الباعوض هو الذى انقـذ امريقيـا الاستوائية من الهجرة الاوربية اما آسـيا فقد كانت مليئـة بالفعل بالسكان فى بداية هذا العهـد . ونحن نلاحظ الآن فى القرن العشرين أن هذه الفترة من الانتشار والتوسع قد انتهت وانه لم يتبق فى العـالم سوى أراضى قليلة الغـاية خالية من السكان . وربما يستمر التـوزيع الجغرافى لسكان العالم على ذلك النحو على مدى فترة طويلة قادمة ، اللهم الا اذا حدثت حروب تسودها الابادة البيولوجية .

وتحت هذه الظروف تصبح مشكلة الهجرة من حيث هى احد الحلول للمشكلة السكانية غاية فى الصعوبة . اذ أصبح من الواضح أن الهجـرة لم تعـد حلا شاملا للمشكلة السكانية بل انها على المستوى العـالمى قد تزيد من حدة المشكلة السكانية . فأى منطقة تقع تحت ضغوط ما لتسوية حقيقيـة يمكن أن تصبح بسـهولة مصـدرا دائما للمهاجرين . فلو ان عدد السكان يتحدد بالفعل عن طريق الامدادات بالطعام عندئذ فان كل

شخص يهاجر يترك طعـــاما يكفى لبقاء طفل واحـــد أو حتى طفلين على قيد الحيـــاة . وعندئذ فان الهجرة — حتى على المدى القصـــير نسبيا — تخفف بقـــدر ضئيل للغـــاية من الضغوط السكانية الســـائدة . هذا بالاضافة الى أن الهجرة غالبا ما ينجم عنها تاثيرات سيئة على المجتمع الذى يفقد الاشخاص بهذه الطريقـــة لان الاشخاص الذين يهاجـــرون يكونون عادة من الشباب الطموح المليء بالحيـــوية ولذلك فان المجتمـــع الذى يصدر حجما كبيرا من المهاجرين لا يتبقى فيه ســـوى الكبار فى السن والاطفـــــال والمرضى والاشـــخاص غير الطموحين الذين يبقـــون لا لكى يســـيروا عجلة الحيـــاة والانتاج فى المجتمع فقط ولكن ايضـــا لكى ينتجوا الجيل التالى . ولذلك فان المجتمع أو الاقليم الذى تخرج منه هجرة مستمرة على فترات طويلة يصبح مستنزفا من حيث الموارد البشرية ، بل وتنقصه عادة القيـــادة الحكيمة ويصبح أحيانا غير قادر على اعادة تنظيم نفسه . وخير دليل على ذلك هو منطقـــــة الأبلاش الجنوبية بالولايات المتحـــدة الامريكية (*) . ففى هذه المجتمعات نجد أن النظام التعليمى نفســـــه يتحول غالبا الى اداة لتفريغ المجتمع من افضـــل الشباب وبالتالى فان المجتمع الذى يستقبل هؤلاء المهاجرين يستفيد منهم أما المجتمع الذى قام بتعليمهم فانه يخسرهم . ان الحقيقة التراجيدية للمبدأ الذى يقول « ذلك الذى يمتلك سوف يعطى المزيد » يوضح لنا عمق المأساة . فالمنـــــاطق الغنيـــة أو الدول الغنيـــة تتجه الى جذب الناس البارعين الحـــاذقين المهرة من المناطق الفقيرة وهذا من شأنه ان يبقى على — بل ويزيد من — التفاوت فى الدخل .

(*) تمتد جبال الابالاش من جنـــوب كويبيك بكندا الى الاجـــزاء الشمالية من الاباما ويبلغ طولها ١٥٠٠ ميل واقصى ارتفاع لها عند جبل ميشيل بكارولينا الشمالية يصل الى ٦٧١١ قدم .

(المعرب)

كما أن معدلات النمو السكانى المتبـاينة فى مختلف الامكان تشتمل ايضا على قوة هامة على المدى البعيد تؤدى الى التوتر السـياسى على المستوى الدولى وعلى المستوى الداخلى . وفكرة الضغوط السكانية من حيث هى سبب فى الحرب تعتبر فكرة واهيـة و لايمكن أن ناخـذها ماخـذ الجـد . فالضغوط السكانية فى حـد ذاتها هى نتيجة لعدد كبير من العوامل الاجتماعية بعضها قد يزيد وبعضـها الآخـر قد يقلل من الاستعدادات لاشعال نيران الحرب . ولكن مما لا شك فيه أن معـدلات النمـو السكانى التفاضلية تزيد من صعوبة مشكلة السلام المستقر . ان احجام العـديد من الدول والعديد من الجماعات فى نطاق الدول عن مواجهة مشكلة التحكم فى عدد السكان لوثيق الصلة بعدم رغبتهم فى اضعاف مركزهم النسبى فى العالم . وعدم مقـدرة الامم المتحدة على مجـرد وضع هذه المشكلة فى جدول أعمالها لهو انعكاس للحقيقة التى مفـادها أن المخاوف من التغيـيرات النسبية فى السكان كافيـة لمنع المناقشـات العقلانية للمشكلة برمتها .

بل وتتعرض المقدرة على تناول هذه المشكلة بذكاء للمزيد من الاعاقة بسبب أن هناك بعض الاستثناءات قصـيرة المدى للمبادىء التى أوجزناها فيما سبق . فبورتوريكو — على سبيل المثال — توحى بأن الدولة الفقيرة الصغيرة التى تعـانى بالفعـل من الضغوط السكانية القاسية تبحث عن مخرج مؤقت للفـائض فى عدد سكانها وتصـبح هجرة الفـائض من السكان من العوامل الهـامة التى تؤدى الى تنميتها . فمما لا شـك فيـه أن بورتوريكو لو لم تكن قادرة على ارسـال ما يزيد على نصـف المليون من سكانها الى الولايات المتحـدة الامريكية لاصبحت التنميـة بها على مدى الـ ٢٥ عاما الماضية غاية فى الصعوبة . ولذلك فانه من الصعب أن نقـول لدولة مثل هايتى أو اندونيسيا أو حتى الصين « ينبغى عليك عدم تصـدير الفائض من السكان لان هذا الاجـراء فى صـالحك

على المدى البعيـــد » . وصحيح انه لو كانت هناك عملية اعادة تنظيم داخلى مستمرة لمـــا أصبح هذا الافتراض صحيحا . بل انه ليس صحيح أن نفترض دائما أن حدوث زيادة فى عدد السكان يعتبر من الامور المعادية للتنمية . اذ أن هنـــاك بالفعـــل بعض المجتمعات التى تكون فيها الزيادة السكانية هى الخطوة الاولى نحو التنمية . فحدوث انخفاض فى وفيـــات الاطفال يفسد بنيـــان الاسرة القـــديمة ويؤدى الى تدمير الاسرة الموسعة ويقـــوم بتزويد العمالة للمدن الجـــديدة وقد يؤدى بالفعل الى ظهـــور التأثير غير المتوازن الذى يؤدى بالتالى الى أن يتخلص المجتمع من توازن الفقـــر الراسخ القـــديم السائد به وينطلق نحو عملية تنمية مستمرة .

وانه لمن الصعب للغاية تجنب تشاؤم معين فى هذا الصـــــدد . فهناك قوى هائلة تقف ضد تعـــلم الصور الذهنية الواقعية عن مستقبل البشرية . وجميع الحلول الموجودة لهذه المشكلة هى حلول غير مستحبة او حلول غير راسخة ، ومع ذلك فانه يجب البحث عن حلول ملائمة اذا اردنا لمجتمع ما بعد التحضر الا ينتهى بكارثة محققـــة واذا اردنا الا تؤدى انجازاتنا التكنولوجية العظيمة الى زيادة هائلة فى الحجم الكلى للبـــؤس البشرى . ونحن لسنا بحاجة لتخصيص مورد عقلانى رئيسى لمواجهـــــة هذه المشكلة فنحن لن نقدم على هذا الاجراء . ولكننا بحاجة لان نزيد من معلوماتنا فى مجـــــال الفسيولوجيا والسيكولوجيا وعلم الاجتمـــاع وعلم الاقتصاد وعلم الاخلاق فى هذا المجال باكمله . وهناك اتجاه قوى نحـــــو « حكمة الجمـــاهير » التى ترفض مواجهة هذه المشكلة أو التى تحـــــاول التخلص منها عن طريق الحلول الجزئية . والغـــريب أن موقف كل من الشيوعيين والكاثوليكيين متشـــابه ازاء هذا الامر وأن كان لاســـــباب أيديولوجيـــة مختلفة وكلاهما يبدو وكانه غير قادر على التوصـــل الى تقييم واقعى لطبيعة المشكلة وضرورة التوصل الى حل لها . وفى هذه النقطـــة بالذات فان ادراكى لحقيقـــة الموقف يتطلب منى أن اقول أننى اعتقـــد

ان كلا من الشيوعيين والكاثوليكيين يعتبرون فى الوقت الحاضر أعــــداء لمستقبل البشرية وان كنت أعتقـــد أيضا أن بامكانهما تعـــديل موقفهمـــا واتخاذ موقف اكثر واقعية . كما أننى أعتقـــد أن الاتجاه « الليـــــبرالى » تجاه هذا الموضوع لم يســـاهم فى الحل الا بقـــدر ضئيل للغاية . ونحن جميعا نتصف بالجهل والطيش والرعونة والعمى وأصابع الاتهام التابعة لبلايين الاطفـــال الذين لم يولدوا تشـــير فى غضب نحونا .

ولدى الآن اقتراح ايجابى واحـــد ، وهو اقتراح يبدو الآن خيـــالى وغير طبيعى وقد لا يثير ســـوى التسلية والفكاهة . فأنا اقترح ضرورة صدور ترخيص لمن يريد انجاب أطفال لان هذا الاسلوب هو الاســــلوب الوحيـــد الذى يربط الحـــد الادنى للسيطرة الاجتماعية اللازمة لحل هذه المشكلة مع الحـــد الاقصى للحـــرية الفردية والاختيار المقبـــول ادبيا . فكل فتـــاة تقترب من النضج تعطى شهادة تصرح لها بأن تنجب — على سبيل المثال — ٢ر٢ طفل أو يوضح بشهادتها أى رقم من الاطفال يضمن لنـــا أن يكون معـــدل الانجاب هو واحـــد . وقد تكون الوحـــــدة التى ترتكز عليها هذه الشهادات هى « العشر من الطفل Decichild » وتجميع عشرة من هذه الوحدات عن طريق الشراء أو الميراث أو الهبة من شأنه ان يسمح لامرأة واحدة ناضـــجة أن تنجب طفـــلا واحـــدا شرعيا . وعندئذ يمكن لنا أن ننشىء سوقا فى هذه الوحدات بحيث تتمكن الفتيات الموسرات ومحبات التناســـل من شرائها من الفقيرات والراهبات والعمات والخالات العذراوات وهكذا . ولا يدخل الرجال فى هـــذه الترتيبـــات نظرا لان خصوبة المرأة هى فقط التى لها علاقة شـــديدة بمسألة التحكم فى عدد الســـكان . الا أنه قد تكون هنـــاك رغبة من الناحية الاجتماعية فى ادخال الرجال فى هذه الخطة وعندئذ يمكن اعطاء كل من الذكر والانثى شهادات « العشر من الطفل » عند الولادة أو لدى الوصول الى مرحلة النضـــج وبعدئذ يمكن للمرأة ان تجمع هذه الشهادات من خلال الزواج .

وهذه الخطة لها ميزة أخرى وهى انها على المدى البعيد تزيد من تعميق الاتجاه نحو المساواة فى الدخل ، نظرا لان الاغنياء سيصبح لهم عدد كبير من الاطفال ، وبالتالى يصبحون فقراء ، وكذلك الفقراء سيصير عندهم قليل من الاطفال وبالتالى يصبحون أغنياء . وثمن الشهادة الواحدة سوف يعكس لنا بالطبع مدى الرغبة العامة فى المجتمع فى الحصول على الاطفال . فاذا كانت الرغبة كبيرة سيرتفع الثمن واذا كانت الرغبة قليلة سينخفض السعر . وربما نصل الى الوضع المثالى عندما يصبح الثمن صفرا بشكل طبيعى ، وفى هذه الحالة فان أولئك الذين يرغبون فى الحصول على أطفال سيحصلون عليهم بدون تكلفة اضافية . واذا كان السعر مرتفعا الى درجة كبيرة فان هذا النظام ينبغى استكماله ببعض المنح وذلك لتمكين المستحقين من الفقراء من الحصول على الاطفال بالاضافة الى تخفيض رغبات الغير مستحقين عن طريق فرض الضرائب . ونظرا لان هذه الخطة غير مألوفة على الاطلاق فانها تبدو سخيفة فى الوقت الحالى . ولكنها تبدو سخيفة بسبب احجام البشرية كلها عن مواجهة أخطر المشكلات التى تواجهها على المدى البعيد .

الفصل السابع

الطـــاقة الكامنـــة (*)

الانتروبيا هو اصطلاح نشــأ فى علم الديناميكا الحرارية وهو يقيس مقــدرة الجهاز التنظيمى على القيام بالعمل او النشــاط فى المستقبل . ولقد تم تعريفه أصــلا فى البداية بطريقة سلبية تدعو للدهشة حيث تجعل الانتروبيــا تتزايد لدى تناقص المقــدرة الكامنــة للجهــاز التنظيمى . فالنظام الذى ليس به انتروبيا يكون به كميـــة كبيرة من الطاقة الكامنة والنظــام الذى به انتروبيــا عالية يكون به كميــة قليلة من الطـــاقة الكامنة . والقــانون الثانى الشهير فى الديناميكا الحرارية ينص على أن الانتروبيــا تتزايد أثناء تأدية الاعمال وانجازها — بمعنى ان الطـــاقة الكامنة اللازمة لانجــاز المزيد من الاعمال تتناقص . وبكلمــات أخــرى يمكن القول أن الطاقة تتناقص مقدرتها المتاحة تدريجيا على انجــاز . ويمكن بســـهولة تعميم هـــذا المبـــدأ على جميـــع الانظمــة . فجميع الانظمة تبـــدأ بطاقة كامنة للنشــاط . ولكن لدى تنفيذ النشـــاط فان هـــذه الطاقة الكامنة تستهلك تدريجيـــا ، وفى النهاية يصـــل النظام الى نقطة التعادل التى يتم عندها استهلاك كافة الطاقة الكامنة وعنـــدئذ يتعذر حدوث أى مزيد من النشاط .

ومن ثم فانه يمكن تعميم القانون الثانى فى علم الديناميكا الحــرارية تحت اسم مبـــدأ الطاقة الكامنة المتناقصة . وهذا المبـــدأ يتخذ اشكالا

(*) الانتروبيا : عامل رياضى يعتبر مقياسا للطاقة غير المســتفادة فى نظام دينامى حرارى .

(المعرب)

عديدة فى كل من الانظمة الفيزيقية والبيولوجية والانظمة الاجتماعية . ففى انظمة الديناميكا الحرارية يمكن — على سبيل المثال — انجاز العمل وتتحول الطاقة الحرارية الى طاقة ديناميكية وذلك فقط فى حالة اذا ما كان هناك اختلاف فى درجة الحرارة بين جزءين من النظام . إلا أن التحول من الطاقة الحرارية الى الطاقة الميكانيكية يقلل دائما من الفروق فى درجة الحرارة ، وبالتالى يقلل الطاقة الكامنة اللازمة للمزيد من العمل . فالمياه مثلا عند قمة الجبل بامكانها انجاز الاعمال عن طريق الانسياب لاسفل وتشغيل المصانع والطواحين والتربينات ، الا انها ما أن تصبح عند سفح الجبل حتى تتضاءل مقدرتها على القيام بالمزيد من الاعمال . كذلك نجد ان التيار الكهربائى يمكنه انجاز الاعمال لو كان هناك فقط اختلاف فى الطاقة الكامنة بين نقطتين . الا أن انجاز الاعمال يخفض هذا الاختلاف فى الطاقة الكامنة .

كذلك نجد ان عملية التقادم فى النظام البيولوجى تبدو شبيهة لاستهلاك الطاقات الكامنة . فالبيضة المخصبة بها قدر هائل من الطاقة البيولوجية الكامنة أما الشخص العجوز فيه قدر ضئيل للغاية . كذلك نجد أن النظام الاجتماعى يبدى ميلا نحو التضاؤل والهبوط والكف عن العمل . فالهيئات والمؤسسات والكنائس والامبراطوريات تبدأ بطاقات كامنة اجتماعية متفجرة نشطة فى شكل ملتزم أو نبى أو قاهر منتصر . ولكن مع مرور الايام نجد أن هذه الطاقة الكامنة تستهلك ، وفى النهاية يتفكك التنظيم الذى نبع من هذه الطاقة . والتشابه مع العملية الآخذة فى التقادم فى الكائنات العضوية البيولوجية هو تشابه كبير للغاية رغم أن هذا القياس التمثيلى — شأنه شأن جميع القياسات التمثيلية — ينبغى عدم التوسع فيه فاكثر من اللازم . ولذلك فان هناك نظرية كئيبة فى الديناميكا الحرارية تذهب الى ان الكون سينتهى فى شكل حساء متسق Uniform Soup وعندئذ يتعذر تماما حدوث أى نوع من

النشاط وذلك بسبب عدم وجود أى فروق مميزة وبسبب انتشار الاتساق الكلى فى كل مكان . فجميع الاشياء ستكون لها نفس درجة الحرارة والمادة كلها ستكون موزعة توزيعا متساويا ولا يمكن حدوث اى شىء آخر .

ان عملية التطور تبدو لاول وهلة أنها تسير ضد المبدأ العام الخاص بتناقص القوى الكامنة . ونحن عند هذه النقطة نقترب اقترابا خطيرا من بعض المخاطر الميتافيزيقية المحجوبة ، وينبغى علينا أن نبتعد بسرعة عن السؤال الجذاب الذى لا يمكن العثور على اجابة عليه والذى يدور حول بداية ونهاية الكون . ولكن ما نراه فى العملية التطويرية قد يوصف بأنه بمثابة استخدام الطاقة فى عزل الانتروبيا . ويمكن أيضا أن ننظر الى الانتروبيا على أنها مقياس للمادة اللامتشكلة التى يمكن تعريفها بأنها الحالة الاكثر احتمالا لأى نظام . ولذلك فانه يمكن النظر الى الانتروبيا السلبية على أساس انها قياس درجة التنظيم أو التشبيه أو عدم ترجيح حدوث نظام من الانظمة . ان التطور يحرك العالم نحو تنظيمات وأنماط أنظمة وبناءات سواء فى البيولوجيا أو فى المجتمع تعتبر أقل احتمالا وأكثر تعقيدا . ولذلك فرغم أن مبدأ القوى الكامنة يقوم بتحريك الكون ككل نحو أنتروبيا متزايدة ونحو مادة لا متشكلة متزايدة ، فان العملية التطويرية تعمل على خلق المزيد من النظام عند بعض النقاط على حساب خلق نظام أقل فى مكان آخر . وهذا هو ما أعنيه بعزل الانتروبيا .

ويبدو أن العملية التطويرية قد بدأت بنوع ما من انواع التخصيب أو الخلق للطاقة الكامنة فى الكون أثناء الانفجار الكونى الذى حدث منذ الازل ثم تقدمت نحو خلق العناصر والمركبات المتزايدة التعقيد والاحماض الامينية والبروتين والفيروسات وخلق الحياة فى النهاية . وتنشىء الحياة أشكالا متزايدة التعقيد ، وفى النهاية تنتج الانسان ،

ويخلق الانسان اللغة والمجتمع ثم يبدأ الانسان عملية التطوير الاجتماعى التى تتقدم مرة أخرى نحو تطوير وانشاء أشكال متزايدة التعقيد . ولذلك فانه ينظر الى الكون على أنه يشبه الانسان الذى ينفق رأسماله بحيث أن رأسماله الكلى الذى هو فى شكل طاقة كامنة يتناقص باستمرار ، ولكنه يضع رأسماله الآخذ فى التناقص باستمرار فى بناء المزيد من الاعمال الفنية المستفيضة . ولذلك فعندما يضع المثال تمثالا من قطعة من الحجر يكون هناك مزيد من التنظيم فى التمثال عما هو عليه الحال فى الحجر بمعنى أن شكل التمثال أقل توقعا بكثير من شكل الحجر . ولكننا اذا نظرنا الى النظام بأكمله : الحجر والتمثال ورقاقات الحجارة والنحات ذاته سوف ندرك أن تشكيل التمثال قد تم على حساب افساد النظام فى الرقاقات وربما على حساب احداث اختلال ونقصان فى القوى الكامنة للنحات .

ان مفتاح العملية التطويرية سواء فى البيولوجيا أو فى المجتمع يكمن فى مجموعة من الظواهر المترابطة المتعلقة بالتعليم والتعلم والطباعة . وهذا فى الواقع هو السر فى الطاقة الكامنة الهائلة التطويرية للحياة . فالجينة Gene (*) تعمل كعامل للطباعة له ثلاثة أبعاد ، لان لديها المقدرة على انتاج نسخ طبق الاصل من ذاتها فى العالم المادى . والطباعة (٤٥) هى عملية يمكن بواسطتها عمل عديدة من النظام ونشرها . وفضلا عن ذلك فان المدرس عندما يدرس فى الفصل فان التلاميذ يعرفون المزيد فى نهاية الساعة ولا تتناقص معلومات المدرس بل ان المدرس تتزايد معلوماته هو الآخر فى نهاية الساعة من خلال عملية تعتبر اكثر غموضا . ويظهر تأثير الانسان على العملية التطويرية بسبب مقدرة وطاقة صوره الذهنية — بمعنى مقدرة المعلومات

(*) الجينة وجمعها الجينات وهى التى تحمل الصفات الوراثية . (المعرب)

المتواجدة فى عقله — على النمو عن طريق نوع من رد الفعـــل التوالدى الداخلى : ألا وهو الخيـــال . فالخيال هو الذى أعطى الجهاز العصبى الانسانى مثل هذه الطاقة الكامنة الاجتماعية ، التطويرية الرائعــة الهائلة وهى طاقة هائلة ربما لم نستخدم منها سوى ١ ٪ فقط فى هذه الفــترة القصيرة من تاريخ الجنس البشرى .

واذا نظرنا الآن الى الانظمة الاجتماعية والاقتصادية نجـــد أن مشكلة الانتروبيا تظهر نفسها فى أشكال عديدة . وقد يكون أوضح هـــذه الاشكال هى انتشـــار أو تركيز المـادة . وباستطاعتنا التفرقة ما بين العملية الانتروبية التى تنشر المـــادة المركزة وبين العمليات المناهضـــة للأنتروبيا التى تركز المـــادة المنتشرة . والتعـــدين هو أفضـــل مثـــال للعمليات الانتروبية . وفى الوقت الحاضر يتكون جانب كبير من حياتنا الاقتصادية من أخذ مركزات المعـــادن الخام والوقود الناشىء عن الحيوانات والنباتات المتحجرة Fossil fuels والمواد المعدنية لتشتيتها ونشرها أو تشتيت ونشر المنتجات الناجمة عن احتراقها أو تصنيعها فوق سطح الارض والمحيطات وفى الهواء . فنحن نأخـــذ الفحم والنفط من باطن الارض ونقـــوم بحرقهما وبالتالى نحولهما الى مواد أقل توفرا كميائيا مثـــل ثانى أكسيد الكربون — الذى ينتشر عندئذ فى الهواء وفى المحيطـــات . ونحن نأخذ الحديد الخام من المناجم ونقـــوم بتصنيعه حيث نصنع منـــه الصلب والحديد وفى النهاية نقوم بنشر وتشتيت هذه المنتجات فى مقـــالب الزبالة التى لا حصر لها وتنتشر شـــظايا الصـــدا فوق سطح الكرة الارضية . كذلك نحن نأخذ الفوسفات والبوتاس من المناجم ومن التربة . ونضع هذه العناصر فى المواد الغذائية وأخيرا نلقى بهذه الفرازات فى الانهار ومن الانهار تصل فى النهاية الى المحيطات .

ومن الواضح أن عملية الانتشـار هذه لا يمكن أن تستمر للأبد ويمكن للمرء أن ينظر نظرة كئيبة للتنمية الاقتصادية لدى اقتراب اليوم المشئوم

الذى يتم فيه استنزاف الموارد الطبيعية تماما ، ومن حيث الوقت الجيولوجى يمكن القول أن جميع التراكمات المعروفة لنا من المواد الخام والوقود سوف تستنزف فى لمح البصر مبسرعة خاطفة . ومن حيث تاريخ البشرية ذاتهـا يمكن القول ان معدلات الاستهلاك الحالية سوف تؤدى الى استهلاك جميع المخزون الاحتياطى من المواد الخام المعروفة لنا فى خلال قرون قليلة . وهذا معناه ان الفترة الحالية سوف ينظر اليها على أنها فترة قصيرة لغاية تمكن فيها الانسان من خلق مجتمع على مستوى فوق جزء من الكرة الارضية وذلك على حساب حدوث زيادة هائلة فى عدد السكان الآدميين وعلى حسـاب الاستنزاف الشديد السريع للثروة الجيولوجية للانسان . وهذا معناه أيضا أن احفادنا — فى خلال فترة الف عام وهى فترة قصيرة فى التاريخ البشرى — سوف يسكنون فى كرة ارضية مستنزفة يسودها الخراب عقب استنزاف جميع موادها الرسوبية المعـدنية وجميع وقودها النـاجم عن النبـاتات والحيوانات المتحجرة Fossil Fuels للأبد . فالانسان عندئذ سيجد نفسه مدفوعا رغم انفه الى مجتمع منخفض المستوى ويشق حياته فى بؤس مرة اخرى بين الحقول والغابات .

ومن حسن الطالع أن هناك دلائل تشير الى أن هذه الرؤية تعتبر قاتمة وكئيبة اكثر من اللازم — وان هناك تكنولوجيا مضادة للانتروبيا قادمة على الطريق اى تكنولوجيا ستعمل على تركيز المواد المبعثرة المنتشرة ولا تعمل على بعثرة وانتشار المواد المركزة . وربما عندما يكتب تاريخ هذا القـرن اخيرا فان الحروب والثورات ستتراجع الى الظل على اساس انها مجـرد قلاقل عديمة الاهمية من وجهة النظر البعيدة المدى ، اما احداث القرن التى ستحظى بالاهمية الكبرى فستكون متمثلة فى التنميات العظمى مثل عملية هابر Haber التى تجمع النتروجين من الهواء المشتت وتحوله الى مخصب والى مواد متفجرة ، ومثل عملية داو Dow process التى تجمع المغنسيوم المعدنى من موارد البحر التى لا حدود لها .

وبالاضافة الى ذلك فان تكنولوجيا الفضاء ترغمنا على السير فى الاتجاه الذى أطلق عليه أنظمة الدائرة المغلقة البشرية حيث يتمكن مجموعة من الآدميين من الابقاء على أنفسهم وافراز صورة طبق الاصل من ذواتهم الى ما لا نهاية عن طريق دورة دائرة مغلقة للمواد . ففى سفينة الفضـــاء فى المستقبل بل وربما فى المنزل على سطح الارض سيصبح الانسان جزءا من دائرة مغلقة صغيرة لتدفق مادى ، بحيث ينبت طعامه من منتجات فضلاته وبحيث يمتلك كيانا من البيئات المادية المتوالدة ذاتيا . وحتى لو ثبت ان هذه المشكلة غير قابلة للحل بالنسبة للمجموعات الصغيرة ، فانه من الممكن تماما أن نتخيل الكرة الارضية مستقبلا وقد ظهر عليها تكنولوجيا راسخة قائمة على الدائرة المغلقة ومعتمدة على الجو والبحر كموارد أساسية يتم تجميع العناصر المشتتة منها وبحيث يعاد اليها فى النهاية كافة التجميعات . وعندئذ سيصبح الانسان غير معتمد على الثروة الجيولوجية . ولذلك يمكننا أن ننظر الى الفترة الحالية على انها فرصة فريدة فى تاريخ هذا الكوكب حيث أن الثروة الجيولوجية التى تم تجميعها عبر مئات الملايين من السنين فى شكل المعادن الخام والمحروقات يمكن انفاقها لانتاج معلومات كافية لتمكين الانسان من الاستغناء عن الثروة الجيولوجية التى يستنزفها .

ان مشكلة المواد ليست هى المشكلة الوحيدة . فهناك مشكلة أخرى وهى مشكلة الطاقة . فنحن بمقدورنا أن نتخيل دائرة اقتصادية مغلقة فى مادة تنتقل بكل بساطة من شكل لآخر . الا اننا لا يمكن أن نتخيـــل دائرة اقتصادية مغلقة فى الطاقة . فنحن بمقدورنا أن نمنع تزايد الانتروبيا وتزايد الاخلال فى النظام وذلك فقط عن طريق استيراد الطاقة من الخارج . فتنمية الطاقة النووية وخاصة امكانيات الطاقة النووية الحرارية قد وسعت آفاقنا فى هذا المجال الى حد كبير . وربما سيثبت لنا الانشطار النووى انه غير عملى كمصدر للطاقة على المدى البعيد وذلك بسبب الاخلال المترتب على انتاج النفايات ذات النشاط الاشعاعى . ويبدو أن الانصهار الاندماجى

لا يوجد به هذا العائق العائد بمثل هذا الحد وان كان من الصعب اكثر السيطرة على طاقة الانصهار الاندماجى . ومع ذلك فمن المؤكد أن مقدرة الانسان على السيطرة على الطاقة النووية بطريقة مفيدة سوف تتزايد وحتى اذا لم يؤد هذا الى حل المشكلة فان استجلاب الطاقة من الشمس الى الارض قد ينظر اليه على انه مورد لا ينضب طالما ان الارض فى حوزة الانسان وينبغى علينا أن نسارع الى زيادة قدراتنا على استخدام الطاقة الشمسية . ولذلك فان مشكلة الطاقة قد تكون أقل حدة من مشكلة المواد ولكن لا ينبغى علينا بأى حال من الاحوال أن نفترض أن مشكلة الطاقة قد قضى عليهـا بالفعل .

وهناك مشكلة اخرى دقيقة ينبغى أن نكون على علم بها بشكل اكيد وان كان من الصعب خلال الاوضاع الراهنة للمعرفة البشرية تحديد ما يمكن عمله ازاء هذه المشكلة . اما هذه المشكلة فهى امكان استنزاف الطـاقات الكامنة البيولوجية للانسان . فالكثير من الناس يفكرون فى قلق فيما اذا كان انشاء مجتمع على مستوى عالى وما يترتب على ذلك من الحفـاظ على العديد من الآدميين الذين بهم عيوب وراثيـة لن يؤدى الى التدهور الوراثى المتزايد للجينات البشرية . ونحن وفقا لما لدينا من معلومات حالية لا نعرف ما اذا كانت هذه المشكلة تعتبر مشكلة هامة أم لا ولذلك فانه من الصعب أن نجند قدرا كبيرا من الذكاء الانسانى لحلها . الا أنه ينبغى عدم التغاضى نهائيا عن أية نظرية كئيبة فى العلوم الوراثية . فعلى سبيل المثال قد يكون التحسن الدرامى الحالى فى الصحة الانسانية ومتوسط العمـر الانسانى المتوقع مجرد مكسب مؤقت وقد تظهر فى النهاية النتائج الوراثية غير الملائمة المترتبة على مثل هذا الاسلوب وتعيدنا بالقوة الى التوازن القديم مرة أخرى الذى يصل فيه متوسط العمر الانسانى المتوقع الى عمر يتراوح ما بين ٢٥ ، ٣٠ عاما فقط . وعلاقة على ذلك فانه يبدو أن الجنس البشرى قد استنزف طاقاته الكامنة البيولوجية الخالصة بحيث أن جميع التغيرات

الفجائية الممكنة فى البناء الوراثى للانسان أصبحت فى غير صالحه على ما يبدو .

الا أن الانسان لا يحتاج للجوء الى علم الوراثة لكى يدرك وجود مشكلة انتروبيا اجتماعية فى طبيعة الانسان وتكوينه وفى التنظيمات الاجتماعية التى يخلقها . فالانسان كائن غير متوقع حدوثه الى حد بعيد وهو يميل باستمرار الى الانزلاق نحو حالات اكثر احتمالا واقل تنظيما . وهذا فى الواقع هو المعنى الفيزيقى للموت . ولذلك نجد ان قدرة الجسم الانسانىعلى التحمل وكذلك المجتمعات التى يخلقها غير ثابتة ، بمعنى أن التعادل الخاص بهـا والحفاظ عليها وتنميتها تتطلب يقظة مستمرة وانتباها وجهـدا مستمرا . ومشكلة « ورطة السجين » الوارد ذكرها فى الفصل الرابع هى خير مثال فى الانظمة الاجتماعية لمبدأ الانتروبيا . فالامر يتطلب بذل الجهد للابقاء على النظام الاجتماعى فى حالة من السلم ومنعه من الانزلاق نحو التسابق على الاسلحة واللجوء الى العنف المتبادل المدمر .

ويمكن تصنيف الحركات الاجتمـاعية وكذلك حركات السلع على أنها أنتروبية الطابع أو مناهضة للانتروبيا . فهناك تلك التى تهدم وتلك التى تبنى وتشيد . مثال ذلك انه من السهل للغاية فى هذه الاوضاع الحالية التى تسود العالم أن تصبح القومية أو الحركات ذات الطابع القومى انتروبية الطابع — بمعنى أن تدمر نظام العالم فى سبيل الحفاظ على النظام القومى . كذلك نجد أن الحركات الدينية والسياسية من حيث أنهـا تلجأ الى اباحة الكراهية والاعتداء على الكافر والمنشق على العقيدة (٤٦) تعتبر هى الاخرى ذات طابع انتروبى . ونحن مازلنا لا نمتلك حتى الآن ابتكارات اجتماعية واجهزة قادرة على التعامل مع اخطار من هذا القبيل . ومازلنا نعيش فى عالم يمكن أن يظهر فيه اشخاص من أمثال هتلر وستالين (٤٧) الذين يقدرون على اغراق الجنس البشرى فى خضم من البـؤس الهـائل ، اذ ما زالت لنا دفاعات ضئيلة للغاية فى مواجهة مثل هذه الحركات الفاسدة الضالة .

والجدير بالذكر أن أعلى مبادىء الاخلاق وتلك الاتجاهات والمؤسسات التى قد نظر اليها على أنها تعبر عن مبادىء أخلاقية عالية تكون عادة ذات طابع مناهض للانتروبيا . وأول اقتراب من مشكلة القيمة الاخلاقية هو أن نفترض أن أعلى اختبار للقيمة ينحصر فيما اذا كانت تقوم بمهمة انتروبية أو مناهضة للانتروبيا فى المجتمع . واعتمادا على هذا المبدأ فان الحب على النحو الوارد فى اللاهوت الاغريقى يعتبر أكثر العلاقات الانسانية التى تناهض الانتروبيا . فهو يبنى ويشيد دائما ولا يمزق على الاطلاق ولا يقف عند حد انشاء جزر صغيرة للنظام فى المجتمع على حساب احداث اختلال فى مكان آخر . الا أنه من الصعب علينا أن نتعلم كيف نحب كما أننا مازلنا غير صالحين للقيام بتعليم الحب . فعملية التعلم الاخلاقى مازالت بمثابة تسلق طويل للجبل بحيث يبدو الجبل أشد انحدارا وانزلاقا أثناء تسلقنا له .

وهناك تساؤل صعب جدير أن نطرحه وان كنا لا نستطيع تقديم الاجابة عليه : وهو ما اذا كان الانسان يحتاج لقدر معين من المشقة والصعوبة والتحدى بل والآلام لكى يحثه نحو ذلك النشاط البناء الذى هو امر ضرورى لمنعه من التفتت والتحطم . وهذا — من وجهة نظر خاصة — هو النظير فى النظام الاجتماعى للمشكلة الواردة فى علم الوراثة والخاصة بالتحلل فى النظام البيولوجى . والمشكلة الاساسية التى ليس لدينا لها حتى الآن اجابات سليمة للغاية هى تتولد الطاقات الكامنة التطويرية . فهذا امر غير مفهوم لنا حتى فى مجال البيولجيا . مثال ذلك : لماذا تبدو بعض خطوط التنمية التطويرية كأنها تصل الى طريق مسدود عقب استنزاف جميع الطاقات الكامنة التطويرية بينما تستمر خطوط أخرى نحو تنويعات وتخليقات وتعقيدات متزايدة على الدوام ؟ ويبدو أن الطاقات الكامنة التطويرية تنبع دائما من نوع ما من أنواع الازمات دانه بدون حدوث من نوع ما سرعان ما تستنزف الطاقات الكامنة التطويرية .

ويبدو أن هناك صراع فى هذا الشأن بين القابلية للتكيف Adaptability

وبين المواءمة والتوفيق Adaptation . وهاتان الصفتان تتنافسان على ما يبدو الى حد ما فى كل من البناء البيولوجى والبناء الاجتماعى . فهناك بعض الكيانات العضوية وبعض التنظيمات الاجتماعية التى توائم نفسها الى اقصى حد مع بيئة معينة وبالتالى يتزايد ازدهارها طالما ظلت هذه البيئة متواجدة . ولو كانت جميع البيئات ثابتة لاصبحت الكيانات الجيدة التواؤم هى التى تسود على وجه الكرة الارضية وعندئذ تتوقف العملية التطويرية . ولكن فى فترات التغير البيئى نجد أن الشىء القابل للتكيف وليس المتوائم تماما هو الذى يبقى على قيد الحياة . فهذه هى الفترات التى يمكن ان يرث فيها الوديع الخنوع الكرة الارضية وبذلك نجد ان الوداعة والخنوع — اى القابليـــة للتكيف — هى التى تحصل على ما يبدو اعظم الطاقات الكامنة التطويرية . ولذلك فاننا قد نفكر فى قلق فيما اذا كانت النتـــائج النهـــائية للتحول العظيم لن تكون هى خلق بيئة للجنس البشرى راسخة للغـــاية وخالية تماما من الكوارث وخالية تماما من جميع أنواع التغييرات البيئية على نحو يؤدى الى تحطيم قابلية التكيف لدى الانسان ليس بسبب ان الانسان قد تواءم مع بيئته ولكن بسبب ان الانسان قد جعل بيئته متوافقة معه .

وقد نجد بعض التأكيدات لهذه التنبؤات التشاؤمية فى تاريخ الطبقات الغنية المرفهة المتنعمة بكثير من أوقات الفراغ فى العديد من الحضـــارات المختلفة . ويمكن لنا أن ننظر الى الطبقة المرفهة فى أى مجتمع متحضر على أنها بمثـــابة تلك النسبة الصغيرة فى المجتمع التى وصلت الى حد ما الى الى مستوى معيشة ما بعد الحضارة . ففى مجتمع ما بعد الحضارة ينتشر هذا المستوى المعيشى ليشمل جميع الناس بحيث يصبح أفقر الناس واكثرهم وضاعة لديه المقدرة على أن يعيش مثل امبراطور رومانى . الا أن الاباطرة الرومان نادرا ما كانوا يعيشون عيشة العفة والفضيلة رغم انهم كانوا جميعا يعيشون فى جو من الترف والرفاهية . ولذلك فمن السهل للغاية أن نتخيل مجتمع ما بعد الحضارة الذى يسوده اناس مؤمنين بمذهب اللذة الاحمق

حيث تجرى الاسلاك فى مراكز اللذة فى مخهم وحيث يستمتعون باحساسات النشوة والغبطة الهائلة والتى لا معنى لها فى بيئة ميكانيكية ثابتة تماما وخالية تماما من التحديات . ومثل هذا العالم من شأنه أن يفقد قابليته للتكيف بحيث يمكن أن يدمره أى تدهور بسيط فى البيئة الشاملة . فأكثر الطبقات المترفة نجاحا وكذلك الطبقات التى احتفظت بقوتها لأطول فترة قد وصلت على ما يبدو الى ما هى عليه عن طريق ممارسة مجموعة من التعاسات والعناءات الصناعية مثل صيد الثعالب وارتداء ملابس خاصة من أجل حضور وجبات العشاء وحفلات الاوبرا والاحتفالات الرسمية والالعاب الرياضية . ومن ثم اذا كان على الجنس البشرى أن يمنع نفسه من التحطم والتفكك بسبب الملل الشديد أو المجون والفسق فى مجتمع ما بعد التحضر فقد يصبح من الضرورى ادخال بعض المتاعب المصطنعة غير الحقيقية وقد يصبح من العسير فعل ذلك حيث سيكون من السهل للغاية الوصول الى الراحة والاستجمام . والوضع المثالى بالطبع هو أن نعثر على وسيلة تجمع ما بين الراحة والفضيلة الا اننا لم نتوصل على ما يبدو حتى الآن الى هذه الوسيلة الناجحة .

وقد يكون من الصعب حل هذه المشاكل ولكننى لا افترض أن هذه المشاكل غير قابلة للحل . فنحن فى الحقيقة قد نكون قريبين للغاية من حل مشكلة الانتروبيا المادية واستيراد الطاقة المستمر . ومما يؤسف له اننا لا نعرف فى الوقت الحالى شيئين يؤثران تأثيرا حيويا على مستقبل الانسان . فنحن لا نعرف حقا مدى بعدنا عن التكنولوجيا الراسخة الرفيعة المستوى ذات الدائرة المغلقة . كما اننا لا نعرف أيضا عدد الناس الذين يساندون مثل هذه التكنولوجيا الراسخة .

وقد نكون على وشك التوصل الى حل للمشاكل المادية والطبيعية . ولن يكون من المدهش اذا تحققت فى خلال الخمسين سنة القادمة انجازات عظمى فى مجال موارد الطاقة التى لا تنضب عمليا وفى مجال الطرائق المناهضة للانتروبيا التى تتعلق بتنظيم تدفق المواد الى داخل والى خارج العناصر

الفيزيقية لبيئة الانسان . ولكن عدم اليقين فى الاتجاه نحو تكنولوجيا راسخة رفيعة المستوى يزيد من استياء المرء بسبب الموارد التى تضيع هباء وسدى فى صناعة الحرب التى تكتنف العالم وفى الاستهلاك الطائش عديم الجدوى . وقد لا يكون أمام الانسان سوى فرصة ضئيلة لتحقيق تكنولوجيا راسخة رفيعة المستوى وقد يكون كل جرام من المادة وكل داين Dyne من الطاقة مستهلكة بدون أن نوجهــه نحو تحقيق التحول العظيم هو بمثابة تخفيض ملحوظ لاحتمالات التوصل الى التحول العظيم . ومن جهة اخرى فانه من المحتمل أيضا أن يكون من السهل التوصل الى تكنولوجيا راسخة رفيعة المستوى وأننا قد نتوصل الى هذه التكنولوجيا بينما لايزال أمامنا احتياطى غير مستخدم من أنواع الوقود والمواد الخام المعدنية .

الا أن نتائج الفشل قد تكون شديدة للغاية من وجهة نظر الانســـان والتطور فى هذا الجزء من العالم حتى أنه قد يبدو من الحكمة اتخاذ اشد الافتراضات التشاؤمية وبحيث يتعين على الانسان فى هذه المرحلة أن يبذل جهودا جماعية صادقة لتجنب الاسراف فى استهلاك الموارد القابلة للنفـــاذ فى مجالات الحرب والترف مع التركيز على استخدام هذه الموارد فى مجـــال التوسع فى المعرفة التى تؤدى الى تحقيق أسلوب رفيع المستوى له دائرة مغلقة . وطالما أن الحضارة الكلاسيكية تركز الى حــد ما على الزراعة المستديمة فانها تمثل اقتصادا منخفض المستوى أو اقتصادا متوسط المستوى ذا دائرة مغلقة ومن ثم يمكن لنا أن نفترض دائما أننا نعود اليه . وما أن تستنزف الموارد القابلة للاستهلاك حتى يتعذر على الانسان الافلات من هذا الاقتصاد المتوسط المستوى وعندئذ ستكون العملية التطويرية قد وصلت الى نهايتها . فنحن لا نقدر على مجرد الحصول على فرصة فشل ضئيلة تكون لها نتائج على مدى ملايين السنين القادمة ".

وفرصتنا فى حل هذه المشكلات تتوقف أساسا على الطاقة الكامنة التطويرية التى تتواجد فى المنهج العلمى على النحو الوارد فى الفصل الثانى

من هذا الكتاب . فالمنهج العلمى هو اساسا عبارة عن تغيير فجائى تطويرى فى الوسائل التى يستخدمها الانسان للحصول على المعرفة . فهذا التغيير الفجائى التطويرى يحمل فى طياته طاقات كامنة هائلة . ومن المحتمل ألا تكون هذه الطـــاقات الكامنة غير محدودة بحيث يجيىء يوم تستنزف فيه كافة الطاقات الكامنة للمنهج العلمى حتى أن كل ما يعرفه الانسان عن طريق هذا المنهج العلمى سيكون معروفا . ولكن مجيىء مثل هذا اليوم مازال بعيدا جدا على ما يبدو . وينبغى أن اندهش تماما اذا عرفت أننا قد استهلكنا شريحة ضئيلة من هذه الطاقة الكامنة .

وربما أن كثيرا من المشكلات المتعلقة بالطاقة والبيئة المادية للانسان ستحل اثناء الثورة التى بدأت تشق طريقها الآن فى مجال المعرفة البيولوجية وهى الثورة التى مازالت فى الواقع فى مراحلها الاولى المبكرة . فنحن الآن قد وصلنا على ما يبدو فى مجال البيولوجيا الى نفس المرحلة التى وصلنا فيها فى مجال الطاقة النووية فى عام ١٩٠٠ ميلادية . ففى عام ١٩٠٠ كنا ندرك أن الطاقة النووية موجودة بالفعل ولكن لم تكن لدينا أى معرفة عن طريقة اطلاقها . فنحن فى الوقت الحالى ندرك ان الحياة تنقل عن طريق « شفرة Invitro موجودة فى التركيب الجزيئى للجينات ، ولكننا نعرف فقط الاصول اللغوية لهذه « الشفرة » ولا نعرف كيفية التعبير عنها . اى اننا لا نستطيع أن نعالج بمهارة البنيان الجينى بهدف خلق اشكال جديدة من الحياة اللهم العثور على المعرفة الاساسية فان التطبيق العملى المعرفة سيعقبها حتما الا اذا كانت الجينات فى أكثر حالاتها البدائية الاوليـــة . ولكن ما أن يتم فى خلال جيل واحد أو جيلين . ولذلك فانه من المحتمل أن نكون على وشك الوصول الى ثورة بيولوجية تجعل من اعاجيب واهوال الثورة النووية أمورا لا اهمية لها اذا ما قورنت بما سينجم عن الثورة البيولوجية .

ولذلك فان الحل لمشكلة التكنولوجيا الراسخة الرفيعة المستوى ذات الدائرة المغلقة سيتم العثور عليه متمثلا فى تنمية العمليات البيولوجية العظمى

واشكال الحياة الصناعية . فميكانيكية الحياة تعتبر اكثر دقة وكفاءة فى تفصيلاتها من ميكانيكية الاجهزة والماكينات التى لا تدب فيها الحياة ، ومعالجة ميكانيكية الحياة بمهارة من شأنه ان يزيد من القوى البشرية زيادة هائلة . فقد نتمكن فى خلال العشر سنوات القادمة او نحو ذلك من أن تطور أجناس جديدة لكائنات عضوية من ذات الخلية الواحدة تكون مفيدة للانسان اكثر من الكائنات العضوية الموجودة بالفعل . فقد يصبح بامكاننا أن نحقق زيادات هائلة فى امدادات الطعام وفى استخدامات الطاقة الشمسية عن طريق كائنات عضوية من هذا النوع . وعندما نوغل ببصرنا قليلا فى المستقبل فلن يكون من السخف أن نفكر فى « حصان متميز » وفى نسيج حى موجود فى داخل الاجهزة الميكانيكية وفى رجال لهم جوانب صناعية « محسنة » وفى عقول الكترونية مصنوعة من انسجة المخ Invitro . وعندئذ سنعتبر الماكينات المعروفة لنا فى هذه الايام مجرد تقليد بدائى للغاية لماكينات الحياة . فالسيارة — على سبيل المثال — هى بمثابة امتداد فج للجسد الميكانيكى للانسان وأى زائر قادم من الفضاء الخارجى فى هذه المرحلة من تاريخ العالم قد يستنتج أننا نعمل على تطوير نوع من انواع البق الكبير الذى يسير على اربع عجلات كبيرة والذى له ذهن يمكن فكه وفصله عن باقى الجسد ! ونحن هنا نقع فى شراك عملية ستثير أسئلة جوهرية عن طبيعة الانسان ومصيره وعن مثله العليا فيما يتعلق بشخصه فى حد ذاته وعن ما يمكن أن يكون عليه خليفته على الارض . وحقيقة الامر أن فكرة أن الانسان قد يخلق خليفته على الارض لم تعد فكرة خيالية للغاية على النحو الذى بدت عليه منذ ٢٥ عاما مضت .

وبالاضافة الى البيولوجيا فان تطوير العلوم الاجتماعية سيقدم بعض الحلول المفيدة — أو سيقدم بعض العون والمساعدة فى تقديم الحلول — وذلك من وجهة نظر اكثر الناس تشاؤما — لأن مشكلات الانثروبيا والاخلال المرتبطة بطبيعة الانسان وتنظيمه الاجتماعى . والمشكلة النظرية الحاسمة هنا هى فهم عملية التعليم الانسانى . فنحن هنا لم نصل على ما يبدو الى

مرحلة الاختراق النظرى التى حققناها فى مجال البيولوجيا . فكل ما نعرفه عن التعلم الانسانى هو معلومات جزئية ناقصة وقد حققنا حتى الآن تغييرا ضئيلا للغاية وربما لم نحقق أى تغيير نحو الافضل فى العمليات التى نكتسب بها المعرفة والقيم والتى نختبر بها صورنا الذهنية عن العالم المحيط بنـــا وخاصة فى مجال الانظمة الاجتماعية . ومع كل مما أن ندرك ان هناك شيء ما لا نعرفه حتى يكون هناك اتجاه قوى نحو البحوث التى توجه نحو ذلك الشيء . فمشكلة التعلم الانسانى تعتبر غاية فى الاهمية لانها تؤدى الى حل جميع المشاكل الاجتماعية . ولذلك سيكون من المدهش حقا اذا لم توجه بعض الجهود الصادقة نحو هذه المشكلة وسيكون من المدهش ايضا اذا لم يتم التوصل الى بعض الاكتشافات النظرية الجوهرية فى هذا الشأن .

ومن المؤكد أن تزايد القوة لدينا والتى ستنجم عن مثل هذه الاكتشافات سيكون لها طاقات هائلة نحو كل من الخير والشر . فنحن — كما سبق ان اوضحنا من قبل — قد نتردى الى عالم يسوده مذهب اللذة التى لا طائل تحتها . ومن ناحية اخرى قد يتخيل امرؤ أن العالم الجديد ستصبح فيه الامور العبقرية التى نشهدها اليوم أمورا عادية وتصبح فيه عناصر الشخصية الانسانية التى نعتبرها اليوم سامية ونادرة من الامور السائدة المنتشرة فى كل مكان . فمن الواضح اليوم أن معظم الناس لم يبدأوا فى الاقتراب من استغلال طاقاتهم الكاملة فى مجـــال المعـــرفة أو حتى فى مجال الاستمتاع بجهازهم العصبى . وأى زيادة فى المعرفة الانسانية تمكن عددا اكبر من الناس من العيش على نحو أوثق مع طاقاتهم تعتبر على ما يبدو نتيجة طبيعية للعمليات الحالية الخاصة بالتنمية العلمية . فمأساة الجنس البشرى هى انه ابتعد كثيرا عن طاقاته ومن المؤكد أن اكبر أهداف عملية التنمية بأسرها هو تمكين الانسان من أن يدرك الطاقة التى اعطيت له عن طريق جهازه الجينى . بل اننا قد ننظر الى ما هو ابعد من هذه النقطة بحيث نرى المعرفة البشرية وهى

تطبق على تحسين الجهاز الجينى للانسان نفسه وان كان ما سيفعله هذا بخلفائنا غير المحسنين قد يترك لكتاب القصص العلمى الخيالى .

ومن المستحيل أن نتنبأ بالتغير الفجائى فى السلالة وبما سيحدث من ابتكارات لاننا اذا استطعنا التنبؤ بمثل هذه الامور فاننا سنتمكن بالفعل من تحقيقها . ولكننا أثناء دراستنا للعملية التطويرية نرى كيف أن تطويرات المستقبل تشير الى حد ما الى الاشياء فى أشكالها المبكرة قبل حدوثها . فالكثير من الامور التى تجعلنا آدميين توجد فى الاميبا Amoeba ذاتها . وأول هيكل فقرى أنذر بوجود طاقة تطويرية هائلة فى مجال تحرير الحياة من تحديدات الهيكل الخارجى . فصيحات الحيوانات ورقصات النحلة تشير الى اللغة فى أشكالها المبكرة قبل حدوثها وأنغام الطائر المغرد والفأر قد تشير الى الفن فى أشكاله المبكرة قد حدوثه . والتجارة الصامتة للبدائى تشير الى الاشكال المبكرة للاسواق البالغة التعقيد فى هذه الايام . والاسرة البدائية ما هى الا جذور للأعداد الكبيرة من التنظيمات الاجتماعية .

ونحن اذا نظرنا فيما حولنا الآن لكى نبحث عن الامور الموجودة فى خبرة الانسان والتى تشبه الامور التى يتوقع حدوثها فاننا قد نجدها فى خبرة المتصوفين وفى تلمسات الانسان فى أغوار الدين . وسيكون من المدهش حقا اذا كان الانسان كما نعرفه اليوم قد أصبح يمثل الاستنزاف الكامل لجميع الطاقات الكامنة التطويرية . وكما أن معرفتنا عن الحقيقة تتزايد فان جهلنا يتزايد أيضا وسيكون من المدهش أيضا لو كان الانسان فى هذه المرحلة المبكرة من التطور الانسانى قد استنزف جميع وسائله فى الاتصال بالحقيقة . ولذلك فرغم أن الميكانيكية هى التى تولد التحول العظيم الا أن النتائج النهائية قد تكون مجتمعا يتخصص فى تجارب روحية من نوع ندركه الآن فقط فى لحظات نادرة من الحدس .

الفصل الثامن

دور الأيديولوجية فى التحول العظيم

ان ديناميكيات المجتمع تتحكم فيها مجموعتان من الظروف . وهاتان المجموعتـان من الظـروف قد سماها العـالم الاجتماعى روبرت ميرتون Robert Merton مجموعة الظروف « الكامنة » ومجمـوعة الظـروف « الواضحة » . والقوى الكامنة هى تلك التى لا نعلم عنها شيئا أو نعلم عنها قدرا ضئيلا للغاية من المعرفة أو هى تلك التى يلعب فيها الادراك الواعى دورا ثانويا للغاية . أما العمليات الواضحة الجلية فهى تلك التى يلعب فيها الادراك الواعى للعملية ذاتها — أى التصور الذهنى لطبيعـة المجتمـع والعمليات الاجتماعية فى عقول الناس — — دورا هاما فى تحديد سـلوك الناس ومجرى الاحداث الاجتماعية .

وفى التطور البيولوجى نجد أن العملية بأسرها تقريبا كامنة بهـذا المعنى . فالمشتركون فى العملية هم أنفسـهم غير مدركين لما يدور حولهم أو اذا كان لديهم شىء ضئيل من الادراك الواعى فان هذا القدر الضئيل لا يلعب دورا فى العملية . فالحيوان مثلا قد يكون مدركا لبيئته الخاصة المحيطة به الا انه ليس لديه معرفة عن عملية الحياة الخاصـة به ولا عن العمليـة التطويرية العظمى التى هو جزء منها . وتتمثل عظمة الانسان ومجده فى أنه قد اكتسب معرفة ببيئته الخاصة المحيطة به بل واكتسب معرفة بالعمليات الكبرى التى يلعب فيها دورا . وبقدر ما يطور الانسان أدراكه الواعى بقدر ما تغير العمليات ذاتها . فالتصور الذهنى عن العالم فى عقول الناس يصبح عندئذ عنصرا جوهريا فى عملية العالم فى حد ذاتها . ومع تطور الادراك الواعى فانه ينفذ الى جميع مظاهر نظام الكون . لقد اعتادت الكواكب على

اتباع مساراتها فى غير وعى وبدون ازعاج من جانب الادراك الواعى . ولكن الانسان أدخل كواكب جديدة الى النظام الشمسى ومهما كان صغر حجم هذه الكواكب التى ادخلها الانسان فان النظام الشمسى لن يعود مرة اخرى الى ما كان عليه . لقد ابتكر الانسان الآن عناصر جديدة ومصادر جديدة للاشعاع وهو يحاول الآن بذل جهود مكثفة للتوصل الى مفتاح الحياة ذاتها ومن هنا يمكن القول ان الادراك الواعى قد بدأ يدخل عملية التطور البيولوجى ذاتها .

لقد دخل الادراك الواعى الى الانظمة الاجتماعية للانسان منذ البداية وان كان قد اتخذ فى الايام الاولى صورا بدائية وخاطئة فى معظم الاحيان . ونفس عنصر الادراك الواعى بالنظام الاجتماعى هو فى حد ذاته الذى يفرق ما بين الانظمة الاجتماعية للانسان وبين الانظمة الاجتماعيــة الخاصــة بالحيوانات الثديية او الحشرات . ان النمل والنحل لديها انظمة اجتماعيــة دقيقة ومستفيضة او لديها أمور لها المظهر الخارجى للانظمة الاجتماعية . ومع ذلك فالنمل والنحل ليس لديها خاصية الوعى الذاتى بطبيعة النظــام الاجتماعى نفسه ، ومن ثم فالانظمة الاجتماعية الخاصة بالنمل والنحــل مختلفة تماما فى نوعيتها عن الانظمة الاجتماعية للانسان . وحقيقة الامر أن خلية النحل أو بيت النمل يمكن اعتباره أمرا أقرب الى الترابط العضــوى السامى Super organism منه الى النظام الاجتماعى . فالنحلة الواحدة أو النملة الواحدة هى أقرب الى عضو فى كيان عضوى مما هى مثل شخصى فى مجتمع . وبسبب هذا فان الانظمة الاجتماعية للنمل والنحل تعتبر ثابتة أساسا ولا تقدم تكيفا مع البيئة بخلاف ما يمكن ان تقدمه التغييرات الفجائية فى السلالة . ولكن مع الانسان يجيىء الوعى بالذات وليس فقط الوعى بالذات وانما الوعى بنظام كامل تدخل فى نطاقه الذات الانسانية كجزء لا يتجزأ منه . وهذا الوضع يمكن أن ينتج مجهودا واعيا نحو احداث تغيير فى نظام العالم البيولوجى أو الفيزيقى أو الاجتماعى . ولذلك ففى اى نظام اجتماعى انسانى تعتبر الصورة الذهنية عن العالم والتى يمتلكها الآدميون عنصرا

حيويا فى الديناميكيات الشاملة للنظام . ولا يمكن لنا أن نعرف ما سيفعله النظام اذا لم نكن نعرف رأى الناس المندرجين فى هذا النظام فيه ، لان آراءهم تؤثر على سلوكهم وسلوكهم يؤثر على النظام .

ولا يقتضى الامر بالطبع أن يكون ما يعتقدونه صحيحـــا . فنحن قد تفحصنا بالفعل بعض المشكلات المتضمنة فى مفهوم حقيقة الصورة الذهنية ولسنا بحاجة للانزلاق الى هذه الصعوبات الفلسفية مرة أخرى . اذ يكفى أن نشير الى أن تواجد اى صورة ذهنية سوف يؤثر على النظام بطريقـــة معينة . فبعض الصور الذهنية تحرك النظام فى اتجاهات تعتبر أفضـــل من حيث القيم الخاصـة به وبعضها الآخر يحرك فى النظام فى اتجـــاهات تعتبر أسوأ . ومما يدعو للدهشـة أن الشىء الذى يمكن اختياره ليس هو حقيقة الصورة الذهنية او مدى صدق الصورة الذهنية وانما هو مدى ما تنطوى عليه من الخير سواء اكان ذلك من زاوية مجموعة القيم الخاصة به أو من زاوية مجموعة قيم أخرى نفرضها عليه . والمشكلة هنا هى كيفية حـــدوث التغييرات فى مجموعات القيم حيث ان تلك التغييرات تحدث باستمرار . واعتقد أنه ينبغى علينا فى الوقت الحالى ان نتقبل هذه الحقيقة بدون ان نفهمها فهما جيدا .

ويمكن تعريف الايديولوجية بأنها ذلك الجزء من الصورة الذهنية من العالم الذى يحدده شخص ما على أنه ضرورى لهويته وكيانه الذاتى أو لصورته الذهنية عن نفسه . والجانب الاكبر من صورتنا الذهنية عن العالم ليس عادة جزءاً من الايديولوجية . فنحن لدينا فى اذهاننا — على سبيل المثال — صورة ذهنية عن المدينة التى نعيش فيها على هيئة خريطة للشوارع وخطوط الاتوبيسات وغير ذلك من الامور التى تمكننا من أن نشق طريقنا فى المدينة . الا ان هذه الصورة الذهنية عن المكان ليست هامة للغاية من حيث خلق الهوية الشخصية الخاصة بنا حتى ولو كان المكان الذى نعيش فيه بالتأكيد جزءاً من هويتنا . ولكن عندما يقول شخص ما « أنا شيوعى »

أو « انا بوذى » أو « انا أمريكى » فان مجموعة كاملة من الصور الذهنية عن العالم تكون متضمنة فى تلك العبارة على اساس ان تلك الصور الذهنية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالهوية الشخصية للفرد . ومن ثم فان أيديولوجية الفرد تعتبر جزءا من الصورة الذهنية لدى الفرد من العالم والتى تعتبر شيئا هاما وقيما بالنسبة له مما يجعله مهتما بالدفاع عنه والترويج له ونشره . ولدى العديد من الناس بل ولدى معظم الناس نجد أن العنصر الايديولوجى للصورة الذهنية ضعيف او لا وجود له . ومثل هؤلاء الناس يبنون هويتهم حول عدد قليل من العلاقات الشخصية فى الاسرة أو الحى السكنى أو حول هويتهم الوظيفية . فاذا سألت رجلا عمن « يكون » فقال لك أنه « فلاح » أو اذا قالت امرأة عن نفسها أنها « مجرد ربة بيت » فاننا نستنتج من ذلك أن العنصر الايديولوجى ضعيف . ولكننا عندما نزداد قربا من مواقع السلطة والنفوذ وخاصة النفوذ السياسى أو الدينى فان العنصر الايديولوجى يصبح أكثر قوة ولهذا السبب فان المّوجات الايديولوجية التى اكتسحت وجه التاريخ كانت لها نتائج عميقة على الجنس البشرى . وحقيقة الامر أن تاريخ الانظمة الاجتماعيـــة قد كتب معظمـــه بلغة هذه الموجات الايديولوجية فالبوذية والمسيحية والاسلام والشيوعية والقوميات المختلفة وانواع الاستعمار المختلفة التى اكتسحت العالم من وقت لآخر قد تقهقرت وتقدمت واحدثت تأثيرا عميقا على حياة الناس .

وفى بعض فترات التاريخ أوجبت الايديولوجيات حدودا جغرافيـــة حادة وهيمنت على مناطق معينة ولم تتواجد فى الغالب خارج تلك المناطق . وبسبب هذا الوضع فان المنافسة بين الايديولوجيات كانت فى معظم الاحيان خطيرة وباهظة التكاليف لأن الاسلوب السائد فى تغيير الحدود الجغرافية هو اللجوء للحرب . وعلى النقيض من ذلك نجد أن الايديولوجيات عنـــدما كانت مشتتة جغرافيا على نحو يجعـــل المنتمين للايديولوجيات متداخلين جغرافيا كان التسامح أمرا مفروضا عليهم بوجه عام بسبب التعايش الفيزيقى

كحقيقة مجردة ومن ثم كان الصراع بينهم معتدلا بعض الشيء . وخير مثال على هذا النوع من الصراع ما نجده بين الكاثوليكية والبروتستانتية . ففي القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر عندما كانت هاتين الايديولوجيتين مرتبطتين بأمم ودول معينة كان الصراع بينهما دمويا بالفعل وباهظ التكاليف . وعقب ابرام السلام بينهما في وستفاليا Westphalia في عام ١٦٤٨ (٤٨) سرعان ما نشأ بينهما نوع من التعايش تدريجيا وبدأت هاتين الايديولوجيتين تتنافسان سلميا وذلك رغم أن هناك بعض الدول التي تسودها تماما الكاثوليكية وبعض الدول الاخرى التي تسودها تماما البروتستانتية . وفي العديد من الدول يمتزج البروتستانت والكاثوليك في نفس المجتمع الواحد ولا توجد هناك حدود جغرافية حادة تعمل على تقسيمهم .

ومن هنا يمكن أن نلحظ على الفور ان الانفصال الجغرافي الحاد بين العالم الشيوعي او المعسكر الاشتراكي وبين العالم الحر يعتبر بمثابة خطر في هذه الظروف الراهنة . فكل ايديولوجية لا تتسامح على الاطلاق مع الاخرى والمتمسكون بكل ايديولوجية يشكلون اقلية معزولة عند احد جانبي الحدود ويشكلون القوة السائدة عند الجانب الآخر . ولذلك فان اخطار الصراع الايديولوجي تعتبر كبيرة للغاية تحت هذه الظروف ، وكما رأينا من قبل فان الحرب تشكل اكبر تهديد مباشر لانجازات التحول العظيم . ولذلك فان اى شيء بامكانه ان يخفف أو يهدىء من الصراع الايديولوجي في الظروف الراهنة يعتبر مكسبا كبيرا للغاية واى شيء من شأنه ان يزيد من حدة هذا الصراع يعتبر تهديدا لمستقبل الانسان . ومن ثم فان فهم الايديولوجيات وفهم احتياج الانسان لها وفهم الظروف التي يمكن فيها ادخال تعديلات على الايديولوجيات يعتبر عنصرا حاسما في تحقيق التحول العظيم .

اذن فما هو ذلك الذى يضفى على الصورة الذهنية عن العالم قوة بالاضافة الى عقل الانسان مما يجعل الانسان يبني هويته الشخصية الذاتية حولها . والاجابة على ما يبدو هى أن الصورة الذهنية عن العالم تصبح

ايديولوجية اذا ما خلقت فى ذهن الشخص المتمسك بها دورا هاما لنفسه يقدره حق التقدير . لذلك فانه من المحتمل أن تنشأ الايديولوجيات الجديدة اذا ما شعر الناس أن الادوار التى يقومون بها فى المجتمع القائم غير كافية وغير مرضية لهم او محتقرة من جانب الآخرين . ولكن لكى يتم خلق دور يجب على الايديولوجية أن تخلق موقفا دراميا . ولذلك فان أهم الصفات الجوهرية للأيديولوجية هى تفسير للتاريخ يكون درامى ومقنع للغاية بحيث يجعل الفرد يشعر أن باستطاعته ان يطابق شخصيته معه مما يعطى الفرد بالتالى دورا فى الدراما التى يرسمها .

فالمسيحية تصور التاريخ على أنه دراما عظمى تتناول خلاص الانسان عن طريق تدخل الرب فى المسيح . والفرد عندما يصبح مسيحيا يطابق هويته مع هذه الدراما ويقبل القيام بدور فيها . والشيوعية هى الأخرى تصور التاريخ على أنه دراما عظمى تتناول الصراع الطبقى وسيكون النصر فى النهاية لطبقة البروليتاريا التى ستشهدها نهاية هذه العملية وارساء العدالة على وجه الارض . وعندما يصبح الفرد شيوعيا فانه يرى نفسه أيضا كانسان يقوم بدور فى دراما ذات أبعاد كبرى . والشيوعية تعتبر بذلك ترجمة على نطاق صغير للدراما الكونية للعقيدة المسيحية .

وعادة ما يكون التوافق مع تفسير ما للتاريخ بمثابة رؤية ما لطبيعة الحقيقة ومصادر للمعرفة التى يستقى منها تفسير التاريخ . بل واذا كان على الفرد أن يلعب دورا يجب أن يكون هناك جهاز قيم قادر على انشاء مبادىء للعمل الأخلاقى ومعيارا لانتقاد السلوك . وينبغى أن يكون الفرد قادرا على الانتقاد واصدار الاحكام عندما يقوم بالدور جيدا وعندما يقوم بالدور بشكل ردىء . وتفسير التاريخ المطبق على الانظمة الاجتماعية يعنى ضمنا وجود نظام للقيم يطبق على السلوك السياسى والقرارات السياسية وصاحب الايديولوجية يأكل من ثمار شجرة المعرفة ومن ثم يكون قادرا على التمييز بين الخير والشر ، فهو يعرف من هو الشخص السيىء ومن

هو الشخص الحسن وبالطبع يتحالف مع الاشخاص الطيبين . وكل ايديولوجية يجب أن تكون جميع هذه العناصر متواجدة بها الى حد ما وان كانت هناك بعض الايديولوجيات التى تركز على تفسير التاريخ كما أن هناك أيديولوجيات أخرى تركز على الدور الشخصى الذى يقوم به الافراد .

ومن ثم فان الايديولوجية أقرب الى أن تكون مجموعة الاعراض المتزامنة فى الصورة الذهنية عن العالم اذا جاز للمرء استخدام اصطلاح متداول فى علم الطب . فالأعراض المتزامنة هى مجموعة من الاعراض والاحوال المدعمة والتى تميل جميعها الى التوافق مع بعضها البعض . ونفس الشىء بالنسبة للايديولوجية : فكل جزء سيدعم الجزء الآخر فى شىء من التوافق والمنطق الداخلى . وهذا يكون له تأثير قوى من حيث تدعيم الاعتقاد الراسخ لأنه بينما يفكر المرء فى أحد جوانب الايديولوجية يتدعم اعتقساده فى الجوانب الأخرى لها . ولذلك فان أى أيديولوجية تنص على أن العالم لا معنى له أساسا ولكن ينبغى علينا أن نكافح ونناضل ونقاسى ونحارب من أجله لا تكون أيديولوجية راسخة وذلك بسبب التناقض الجوهرى الموجود فى عناصرها . واذا نص تفسير ما للتاريخ على أن العالم لا مغزى له عندئذ يحتمل أن يكون نظام القيم لدينا هو مذهب اللذة الخالصة المتمثل فى « عليك بتناول الطعام والشراب والعيش فى مرح لأننا سنموت غدا » أو قد تؤدى هذه الايديولوجية الى عدم الاكتراث واللامبالاة أو قد تؤدى الى الاذعان والرضوخ الرواقى .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الايديولوجية التى لها صورة ذهنية واضحة عن مستقبل مثير وهام والتى لها تصور واضح عما ينبغى أن يفعله الناس لكى يتوصلوا الى تحقيق هذا المستقبل تعتبر أيديولوجية قوية سواء أكانت صحيحة أو غير صحيحة . وهناك فى الواقع ارتياح كبير ازاء الفكرة التى أوردها فريد بولاك (*) والتى تنص على أن مقدرة الايديولوجية على تنظيم

(*) فريد بولاك ، صورة المستقبل . نيويورك . مطبعة أوشنا — عام ١٩٦٠ .

المجتمع تتوقف على أن مقدرة الايديولوجية على تنظيم المجتمع تتوقف الى حد كبير على مدى تفاؤل او تشاؤم الصور الذهنية الخاصة بها عن المستقبل كما تتوقف على مدى ايمانها بامكان تغيير المستقبل عن طريق النشاط النسائى .

ومن ناحية أخرى اذا كانت الصورة الذهنية عن العالم شديدة العقلانية والرسوخ فانها لا تصبح أيديولوجية نظرا لأنها لا تفرق ما بين هوية الشخص الذى يؤمن بها وبين هوية اى شخص آخر . فمن الصعب تكوين ايديولوجية حول جدول الضرب لأن احدا لن يعارض جدول الضرب . فالصور الذهنية عن العالم والتى تشتمل على حقائق واضحة تماما للجميع لا تصبح أيديولوجيات . ولكن أنصاف الحقائق او على الاقل الحقيقة غير الراسخة التى تروق لبعض الناس ولا تروق للآخرين هى أفضل الامور لتكوين أيديولوجية . فكثيرا ما تكون الرموز التى تجمع بين متضادين هى التى لها أكبر تأثير علينا . فنحن نرفض بكل بساطة الاوور الرديئة بشكل واضح . ونتقبل بكل بساطة الامور الحسنة . ولكن الامور التى تجذبنا وتصدنا فى نفس الوقت هى التى تستحوذ على انتباهنا . فسيطرة الشيوعية على أتباعها — وهذا على سبيل المثال — تنشأ الى حد ما بسبب أنها تجمع ما بين المثالية السامية والاهتمام الشديد برفاهية ورعاية الجنس البشرى وبين أشد أنواع الخداع والاحتيال والعنف والاكراه وكلها أمور لا مبادىء لها . والدعوة الى القومية هى الاخرى ترتكز على موقف مشابه يجمع بين أمرين متضادين . فالأمة هى الحامية للأرامل وهى فى نفس الوقت التى تقوم بشوى الاطفال — الامن الاجتماعى وهيروشيما مجتمعان فى كيان واحد .

وهناك عنصر هام من عناصر ديناميكيات التفاعل الايديولوجى الا وهو مقدرة الايديولوجية على التغير بدون تهافت أو تداعى . فالايديولوجيات دائما ما تتعرض لضغوط من نوع ما وذلك بسبب التناقضات التى تبدو مرتبطة بها بالضرورة . فعلى سبيل المثال لو أن التوقعات التى تنجم عنها أصابها الاحباط باستمرار فان صدق

الايديولوجية سيصبح عرضة للشك والريبة وما أن يحدث هذا الشك حتى تتعرض قوة الايديولوجية حتما للضعف والوهن . ولقد قيل — فى شىء من التهكم — أن الايديولوجية تسير فى ثلاثة مراحل . ففى بادىء الامر يؤمن الناس بها وبعدئذ يعتقدون انهم يؤمنون بها واخيرة يتوقفون عن الايمان بها . ومع ذلك فالمرحلة الثانية يمكن أن تدوم لفترة طويلة . والايديولوجية التى تثبت نجاحها فى مجال تنظيم المجتمع والتى ترتبط فى عقــول المتمسكين بها بأشخاص أو أحداث تثير اعجابهم لأسباب لا تتعلق بالمرة بالايديولوجيـــة قد تدوم فترة طويلة خلال المرحلة الثانية رغم ان الحماس الاصلى ربما يكون قد انطفأ منهـــا . وهناك دلائل تشير الى أن الشيوعية فى روسيا — على سبيل المثال — قد وصلت بالفعل الى المرحلة الثـــانية بينما الشيوعية فى الصين لم تصل بعد الى تلك المرحلة بشكل مؤكد .

واحيـــانا ما تنهار الايديولوجيـــات بشكل درامى . فالايديولوجيـــة البريطانية الاستعمارية — على سبيل المثال — على النحو الذى قدمه لنا روديارد كبلنج «Rudyard Kipling» قد انهارت بشكل درامى فى الفترة ما بين عام ١٩١٠ وعام ١٩٢٠ ربما كنتيجة للحرب العـــالمية الاولى . كمـــا أن ايديولوجية « حرية التجـــارة Laissey faire » فى الولايات المتحـــدة الامريكية قد عانت من انهيار معين كنتيجة لفترة الكساد الكبير الذى ســـاد فى الفترة من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٣ . ومن جهة أخرى نجد أن تغير الايديولوجية هو أمر يختلف عن بعض الامور الاخرى مثل سقوط المجتمع او حتى موت التنظيم المتضمن فى المجتمـــع . فايديولوجية كل من الدولتين والكنيستين تتغير باستمرار ولكن التنظيمات تستمر . ويمكن أن يحدث هذا وفق عملية شرعية وقانونية وضرورية لاختبار الحقيقة .

والايديولوجيات فى المجتمع يمكنها أيضا أن تتغير فى بطء بدون حدوث انهيارات وبدون حدوث صراعات مدمرة . ويمكن أن يسمى هذا بعمليـــة الديالوج التى تتعارض مع الجدلية الهجلية . ففى عملية الحوار او المناقشة

نجد ان الصورة الذهنية لدى كل شخص مشترك فى الحوار تتعدل باستمرار نتيجة للمعلومات التى يتم الحصول عليهـــا من الاشخاص الآخرين اثنـــاء الحوار . فلا أحد « يكسب » المناقشة ومع ذلك فان الصور الذهنية عن العالم قد يطرأ عليها تعديلات عميقة اثناء النقاش . ولذلك فكلما استطعنا اقامة حوار بين الايديولوجيات كلما قلت خطورة الصراع الايديولوجى ممـــا يؤدى بالتالى الى تطوير وتنمية عملية تعلم حقة .

وتكمن خطورة الايديولوجية فى انها تكبت عملية التعلم . فالرجل الذى لديه أيديولوجية تفسر له كل الامور التى تحدث له فانها تجعله فى غير حاجة للتعلم . فهو من وجهة نظره يعرف كل شىء بالفعل . ولذلك فان الورطة الكبرى التى تقع فيها الايديولوجية هى على النحو الآتى : بينما نجـــد ان الايديولوجية تكون قادرة على حل الصراع الداخلى فى كل من الفرد والمجتمع ولذلك تكون قادرة على توليد قوة أساسية وقوة دافعة ، فانها اثناء توليد هذه الماكينة القوية قد تدمر عجلة القيادة والبوصلة . بمعنى انهـــا تفسد عملية التعلم وعملية اختبار الحقائق اللتان تعتبران الموجهان نحو توجيـــه التنمية . والوضع المثالى بالطبع هو أن نربط الماكينـــة القوية بالبوصلة الحساسة وأن نكون صورة ذهنية عن العالم يكون باستطاعتها تقديم الحث والتحريض بدون افساد المقدرة على تعلم افضل الاتجاهات نحو التغيير .

وبعد أن وضعنا هذه الاعتبارات فى أذهاننا علينا ان نلتفت الآن الى الصراع الايديولوجى السائد فى هذه الايام بين المعسكر الاشتراكى تحت قيادة الاتحاد السوفيتى وبين اقتصاديات السوق تحت قيادة الولايات المتحدة الامريكية . ففى نطاق هذين المعسكرين يوجد بالطبع تنوع كبير فى الاعتقاد الايديولوجى والتعبـــير الايديولوجى . وهذا التنوع قد تزايد فى السنوات الاخيرة وخاصة فى نطاق المعسكر الاشتراكى الا انه مازلت هناك فجوة هائلة حتى بين الرأسمالية الاشتراكية بالدول الاسكندنافية والاشتراكية الرأسمالية بيوجوسلافيا .

فالفجوة الايديولوجية هى فجوة عميقة وحقيقية وتنجم عنها مجتمعات متباينة تماما فى الاسلوب والصفات المميزة ونوعية الحياة الانسانية . ففى المعسكر الاشتراكى نجد أن الايديولوجية مصاغة فى مزيد من الوضـــوح وتميل اكثر نحو اتخاذ الطابع الرسمى كجزء من المجتمع . اما الايديولوجية فى الغرب فهى أكثر غموضا واكثر تشتتا . ومن هذه الناحية يمكن القول ان الغـــرب « بروتستانتى » بينمـــا الشرق « كاثوليكى » ومن ناحيـــة تأثير الايديولوجية على الحياة الفردية نجد أن الاتحاد السوفيتى هو أقرب الى اسبانيا منه الى الولايات المتحدة ومن جهة اخرى نجد ان الاتحاد السوفيتى — من حيث تنظيمه العملى لموارده ومن حيث الشخصية العامة لشعبه — هو أقرب الى الولايات المتحدة الامريكيـــة منه الى اسبانيا نظرا لانه يسير بخطوات راسخة نحو التحول العظيم .

وفى ضوء الكتابات الهائلة التى كتبت فى هذا الموضوع فاننى لا أجرؤ على تلخيص الخلافات والفوارق بين هاتين الايديولوجيتين فى صـــفحات قليلة . الا أ الفوارق الجوهرية تبدو لى بسيطة الى حد ما . فحقيقة الامر اننا نجد لدى الوصول الى القيم والاهداف النهائية لكلا الايديولوجيتين انهما متشابهتان كثيرا على عكس ما يبدو لنا من اول وهلة . فالفوارق تنشأ أساسا بسبب الاختلافات فى الصورة الذهنية عن المجتمع والسببية الاجتماعيـــة وبســبب الاختلافات فى تقييم بعض القيم الفعالة والتنظيمات الدستورية . وكما سبق أن لاحظنا من قبل فان الخلافات الايديولجية لكل منهما يمكن أن تكون على مستوى القيم الاساسية وعندئذ يصعب للغاية حل تلك الخلافات ، ويمكن أيضا أن تكون على مستوى القيم الذرائعية — بمعنى الاشياء التى تقيم بسبب انه يعتقد فيها انها ضرورية للتوصل الى القيم الاساسية . وفى هذه الحـــالة الاخيرة فان النزاع ينبغى ان يكون أكثر مرونة مع الاختبـــار العلمى .

وهناك قيمة اساسية مشتركة بين كل من الشرق والغرب فى هذه

الايام ويمكن أن توصف هذه بأنها عدم التفريق Disalienation بمعنى تطوير المجتمع على نحو لا يفسح المجال أمام أحد افراده للشعور بالعزلة او الاغتراب وبحيث يحصل جميع أفراد المجتمع على حقوق متساوية وامتيازات متساوية فى واحد على الاقل من المعانى العديدة لكلمة مساواة . والجدير بالذكر أن الاماكن النائية فقط فى المجتمع الغربى مثل جنوب امريقيا والاباما والبرتغال هى التى يجد بها المرء فى هذه الايام اى مدافعين واعين عن مجتمع يتسم بالطوائف الجامدة والتكوينات الطبقية الثابتة فالمبدأ الاخلاقى الذى ترتكز عليه الايديولوجية الاشتراكية والذى يعطى الاشتراكية قدرا كبيرا من القوة يمكن أن يسمى بمبدأ « العائلة Familism » : وهى الفكرة التى تقول ان جميع اعضاء المجتمع وفى النهاية جميع افراد الجنس البشرى هم جزء من اسرة واحدة وبالتالى فكل فرد فى المجتمع مسئول عن الجميع . ولكن هذه الفكرة هى نفس الفكرة التى تنادى بأخوة الانسان لأخيه الانسان والتى نادت بها جميع الاديان العظمى فى العالم منذ فترات طويلة ولم تمارس الا فى حدود ضيقة . فهى عامل مشترك حيوى تقوم عليه الايديولوجية فى الغرب والشرق على حد سواء .

ولكن الايديولوجيات تبدأ بعدئذ فى التباعد والانقسام عندما تصل الى المستوى التجريبى الذرائعى فالشيوعية تعتبر الصراع الطبقى هو المفتاح الذى يفسر لنا التاريخ وينتهى الصراع الطبقى لدى تحقيق البرولتاريا النصر النهائى ولدى قيام مجتمع اللاطبقات تحت قيادة حزب يضم صفوة مختارة متميزة بالوعى الاجتماعى.فالشيوعية ترى أن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هى التى تخلق اغتراب البروليتارى عن المجتمـــع الذى يديره ذوو الاملاك ولصالح ذوى الاملاك . والعلاج الوحيد من وجهة نظرهم هو قيـــام ثورة عنيفة تنتزع فيها ملكيات الطبقات التى تضم ذوى الاملاك وتصبح الدولة من حيث هى الممثل الشرعى للمجتمع بأكمله هى المالكة لجميع وسائل الانتاج والقائمة باعمال الادارة لها .

وهذا التفسير للتاريخ يرتكز على مبـدأ اخلاقى ذرائعى يرفض كل شرعية فى الملكية الخاصة والربح الخاص والملكية الخاصة لرأس المال وهو مبدأ اخلاقى قد حصل على الاقرار العلمى الزائف من جانب نظرية فائض القيمة التى نادى بها كارل ماركس . فالاشتراكيون بانكارهم شرعية الربح الخاص قد حرموا انفسهم من احتمال تنظيم المجتمـع عن طريق انشـاء السوق . ولذلك فهم مضطرون لتنظيم المجتمع عن طريق وضع الميزانية أو الخطة . ومن ثم يصبح المجتمع الاشتراكى دولة يتركز فيها السيطرة على جميع الانشطة الاقتصادية فى يد تنظيم جماهيرى واحد .

وهذه الايديولوجية لا تروق للدول المتطورة فى الغرب حيث لا يؤمن بها سوى جماعات طائفية صغيرة الى حد ما . ومع تقدم التنمية يصبح البنيـان الطبقى للمجتمع أكثر تعقيدا والتنبؤات الماركسية التى تقول ان الاغنيـاء سيزدادون غنى » والفقراء سيزدادون فقرا اتضح انها كاذبة وغير صحيحة . فالملكية الخاصة للاموال والعقارات فى مثل هذا المجتمـع تصبح واسعة الانتشار للغاية رغم ان غالبية الملكيـة مازالت مركزة فى حوالى ١٠٪ من السكان . وتحت هذه الظروف فان صراع الطبقات بالمعنى الماركسى يصبح لا معنى له الى حد ما . والصراعات السياسية فى المجتمع تميل لأن تكون ما بين الجماعات المهنية أو الحرفية أو الاقليمية وليس بين الطبقات . وحقيقة الامر ان الطبقة العاملة تصبح خرافة لا تتضمن اية حقائق سواء فى المشاعر العامة أو فى التنظيم المشترك . فالطبقة العاملة موزعة على جماعات مهنية أو اقليمية لا حصر لها والوعى القومى يصبح أقوى بكثير من الوعى الطبقى . ولذلك فان التحرك نحو مجتمع منعدم الطبقات أو على الاقل نحو مجتمع اندماجى يحدث ليس عن طريق ثورة أو من طريق أى عملية ديالكتية وانما عن طريق عملية من عمليات الحوار السياسى والتسويات السلمية والتخلص من النتائج الاجتماعية الناجمة عن عمليات التنمية الاقتصـادية المستمرة لفترات طويلة . ومازال الشخص البروليتارى الحقيقى متواجد فى الدول الرأسمالية المتطورة الا انه يشكل اقلية بل واصبح اقلية عاجزة .

وتحت هذه الظروف لم يعد للتفسير الماركسي للتاريخ معنى ، ومحاولة اقحام التاريخ في الصيغة الديالكتية يؤدي فقط الى الجدل اللفظي وعدم الامانة الفكرية . والحزب الشيوعي ينزع الثقة من نفسه لأنه لا يتناول احتياجات المجتمع فيما حوله . فهو يستخدم نموذجا قد يكون صالحا للتطبيق في بعض الاماكن والازمنة ولكنه ليس نموذجا عالميـــا بأى حال من الاحوال . فهو لا يصلح للتطبيق بصفة خاصة على مجتمع يستمتع بالتنمية السريعة في ظل مؤسسات السوق .

ومثلما أن صراع الطبقات والتفسير الديالكتيكي للتاريخ يثير ردود فعل ضئيلة في مجتمع يسلك في وضوح طريقا آخر ، فان نظرية فائض القيمـــة وشن الحملات على الربح في حد ذاته او على الملكية الخاصة لوســـائل الانتاج في حد ذاتها لا تلقى آذانا صاغية . فالطبقة العاملة المنظمة تدرك أن خطهـــا الرئيسي في التقـــدم يكون عن طريق ممارسة سلطات الســـوق Market Power وهذا هو جوهر ما نسميه بالمبادىء النقابية للاعمال التجارية Business Unionism . فحقيقة الامر ان العامل الصناعي الذى كان ماركس يرى فيه رجل المستقبل سرعان ما يصبح رجل الماضي . . لأن اى تزايد في الكفاءة التكنولوجية تقلل من النسبة العددية للناس المنتظمين في هذه الفئة وتزيد من نسبة الوظائف المهنية والادارية والخدمية . ومن ثم يصبح العامل الصناعي غنيا للغاية ونادرا للغاية بحيث لا يمكنه أن يزاول عمله كبلوريتاري ماركسي وبحيث يكون لديه حافز ضئيل للغـــاية أو فرصة ضئيلة جدا لتفجير الثورات . ولكنه اذا ما ادرك أن الطريق الرئيسي نحو التقدم هو تحقيق ارتفاع في الاجور فانه يصبح منتميا لنظام السوق ونظام السوق لا يمكن تطبيقه بدون وجود ملكية خاصة وربح خاص . ومن ثم تصبح الحركة العمالية قوة محافظة ومدافعا قويا عن اقتصاد السوق حتى ولو ادى هذا الى مساندة المؤسسات الرئيسية للراسمالية .

وتحت الظروف التى يقوم فيها دائمـا اقتصاد السوق بتقـديم دخلا حقيقيا متزايدا للجميع ، عنـدئذ فان « الحالة الراسخة الواحدة » للرجل الاشتراكى تبدو كأنها تركيزا هائلا للقوى الاقتصادية والسياسية التى يقصد بها أساسا استغلال الطبقة العاملة لصالح الدولة فى حد ذاتها وتتعـرض للوقوع فى أيدى دكتاتوريين لا رحمة فى قلوبهم . ووصف ماركس للدولة بأنها بمثابة لجنة من البرجوازية هو وصف غير لائق بالنسبة لحكومة مثل الحكومة الفدرالية الامريكية كما نعرفها فى القرن العشرين . فالقومية الشعبية قد اثبتت انها قوى ادماجية فى المجتمع اشد رسوخا من اتحاد الطبقة العاملة فى ظل الاشتراكية بل واشد رسوخا من المسيحية او أى دين آخر والدليل على ذلك هو ذلك الشقاق بين روسيا والصين (٤٩) . فالاتحاد السوفيتى لم يكن على اسـتعداد للتضـحية بالتنميـة الخاصـة به من اجـل مسـاعدة التنميـة الصـينية . ومن الواضح ان اتحـاد الطبقة العاملة هو مجرد خرافة حتى فى داخل نطاق المعسكر الاشتراكى (٥٠) . فلو كان هناك بالفعل اتحاد للطبقة العاملة لكان الاتحاد السوفيتى قد قدم تضحيات هائلة من اجل مساعدة الصينيين على تحقيق التنمية الخاصة بهم . ولكن كل ما فعله الاتحاد السوفيتى للصين هو تقديم قرض بفوائد تصـل الى حوالى ١٠ ٪ سنويا بالاضافة الى ارسال عدد قليل من الفنيين وسرعان ما تم سحب هؤلاء الفنيين ممـا أسفر عن نتـائج وخيمة فى عام ١٩٦٠ . فالروس هم روس والصينيون هم صينيون وظلوا كذلك لفترات طويلة قبل أن يكونوا بلوريتاريين أو اشتراكيين . والفجوة بين الدول الغنيـة والدول الفقيرة تعتبر أكثر اتساعا وأكثر اهمية من اى فجوة بين الاغنياء والفقراء فى داخل نطاق اى دولة واحدة وخاصة فى داخل نطاق اى دولة واحدة متطورة .

وحالات النجاح التى احرزتها الشيوعيـة ترجع الى أحد مظـاهر الايديولوجية الشيوعية التى يمكن فصلها تماما عن المظاهر السابق ذكرها . وهذا المظهر هو اعترافها صراحة بطبيعة التنمية الاقتصادية وميلها الواعى

نحوها . والتحول العظيم فى الغرب قد حدث نتيجة للقوى الايكولوجية الى حد بعيد وبدون وجود قدر كبير من التخطيط الواعى حتى وقت قريب . فمن المؤكد أن الثورة الصناعية (٥١) بدأت فى انجلترا وشقت طريقها لا كنتيجة لأى جهود واعية من جانب الحكومة أو حتى من جانب اى فرد ممن شاركوا فيها وانما بسبب تفاعل القرارات الفردية وبعض القوى الكامنة فى المجتمع .

واذا ما تتبعنا ما نشر فى« ثروة الامم Wealth of Nations » بقلم آدم سميث فى عام ١٧٧٦ نجد أن الدول الاوربية الغربية والولايات المتحدة بصفة خاصة قد أصبحت أكثر وعيا فيما يتعلق بعملية التنمية الاقتصادية . وحقيقة الامر انه منذ ذلك التاريخ أصبحت التنمية فى هذه الدول لا تتم بطريقة عرضية أو بطريق المصادفة . فالتنمية فى الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت تسير وفق سياسة غاية فى الوعى الذاتى حيث تركز على دور ميكانيكية السوق أيضا ولا تعارض ايضا التداخل مع تلك الميكانيكية عن طريق تعريفات وقائية لصالح التنمية الاقتصادية . الا انه من العدل أن نقول أن الشيوعيين كانوا اكثر وعيا بالتنمية الاقتصادية من الدول الغربية وأن نجاح الشيوعية فى البلاد التى أحرزت فيها نجاحا يرجع بالدرجة الاولى الى رغبة هذه المجتمعات فى تخصيص كميات كبيرة من الموارد من اجل صناعات التنمية وخاصة التعليم والصناعات الرئيسية . وكثيرا ما كان يتم هذا فى غير كفاءة وبتكلفة بشرية عالية وذلك بسبب تحيز هذه المجتمعات ضد ميكانيكية السوق . واذا خصص مجتمع ما قدرا كبيرا من موارده لصالح التنمية فانه من المحتم أن ينمو ذلك المجتمع حتى لو تم ذلك بدون كفاءة على الاطلاق .

ويهمنا هنا أن نعرف ما اذا كانت ميكانيكية السوق أو ميكانيكية الميزانية هى الشكل الاكثر تطورا فى مجال التنظيم الاجتماعى ، وتبدو هذه قضية واضحة يكون فيها الحوار أكثر فائدة من المواجهة الدياليكتيكية . والتبلور الايديولوجى فى كلا المعسكرين يميل الى منع اجراء مناقشة عقلانية لهذه

المشكلة ... مناقشته تنصب على المزج الامثل ما بين ميكانيكيـــة السوق وميكانيكية الميزانية فى . اى مجتمع . ويبدو انه من المتعذر الدفاع عن الحالات المتطرفة لدى كلا الجانبين . فما يدعيـــه الانصـــار المتطرفون لمبدأ « حرية التجارة Laissey faire » (٥٢) فان ميكانيكية السوق كافية لانجاز جميع المهام المطلوبة للمجتمع قد تزعزع حيث اتضح ان ميكانيكية السوق غير كافية فى كثير من الاوقات والمناسبات . فهناك بعض الحاجات مثل الحاجة للاشباع الجنسى تعتبر فيها ميكانيكية السوق غير شرعية ، وهناك بضائع وســلع عامة يكون تقديمها من خلال ميكانيكية السوق غير ملائم ، كمـــا أن الامر يستلزم ضرورة الاشراف الدقيق على ميكانيكية السوق للتاكد من انها لا تفلت من بين أيدينا وتسبب لنا حالات الكساد الاقتصادية أو التضخم او توزيعات الدخل التى لا يمكن قبولها . هذا بالاضافة الى ان مطالب المبادىء الاخلاقية الاسرية حتى فى مجتمع السوق تستلزم تواجد اقتصاد المنح والهبات لتقدم للناس الذين لا يقدم اهم السوق المؤونة الكافية .

ومن ناحية اخرى نجد أن الاقتصاديات الاشتراكية تتعرض للاعاقات الشديدة بسبب رفضها الاستخدام العقلانى لنظام الاسعار وللملكية الخاصة والربح الخاص . ومما لا شك فيه ان تقبـــل هذه النظم على مضض على هامش المجتمع مثلما حدث على سبيل المثال فى السياسة الاقتصادية الجديدة فى العشرينات من هذا القرن العشرين أو فى أراضى الفلاحين المقسمة الى قطع واسواق المدن فى الفترات التالية قد ساهم فى الابقاء على حياة مجتمع السوفييت ، الا ان تحيزات الايديولوجيـــة تمنع أى فحص عقـــلانى للدور الاجتماعى السليم الذى تقوم به الاسواق الحرة . وفى المجتمعات الاشتراكية الفاترة مثل سيلان وبورما واندونيسيا نجد أن « الخلط » يكاد يكون أســـوأ الامور الممكنة حيث يجمع ما بين عدم التنظيم الاشتراكى لاقتصاد السوق وبين عدم التنظيم الاشتراكى لاقتصاد السوق وبين مبدأ « حرية الســـوق Free Market » فى مسالة تخصيص الموارد من اجل النمو .

وفى ضوء التحول العظيم نجد ان كافة الصراعات الايديولوجية بين الراسمالية والشيوعية تتخذ طابع المناقشات التى لا صلة لها بالموضوع . ومن الواضح فى هذه الايام ان التنمية يمكن ان تحدث فى ظل الاشتراكية . ومن الواضح ايضا انها يمكن ان تحدث فى ظل الراسمالية ، وانها اذا حدثت بنجاح فى ظل الرأسمالية ، عندئذ ستصبح الاشتراكية لا علاقة لها الى حد كبير بهذه المجتمعات على الاقل بمفهوم الاشتراكية الشمولية التى نعرفها فى الدول الشيوعية . ولقد عبرت عن هذا بما أسميه نظرية الاتوبيس الذى لم يلحقه أحد . فالاتوبيس المتجه نحو الاشتراكية يحضر فقط فى مرحلة واحدة من مراحل التنمية الاقتصادية . وهى المرحلة المبكرة من التنمية الراسمالية حيث لاتزال هناك طبقة كبيرة من العمال البروليتاريين وحيث لا تزال هناك فوارق كبيرة فى الدخل وحيث تكون التنمية متركزة فى مدن معينة او فى مناطق معينة من المجتمع مما يؤدى الى ظهور فوارق Disparities حادة فى الدخل بين القطاعات النامية وبين القطاعات المتخلفة ، وحيث تكون هنساك بقايا كبيرة من الاتجاهات والمؤسسات الاقطاعية مما يجعل مفهوم البنيسان الطبقى والصراع الطبقى من الامور الطبيعيسة الى حسد ما . وتحت هذه الظروف يكون للايديولوجية الماركسية اغراء كبير ، فاذا وقعت مجمسوعة صغيرة من المفكرين الذين ينتظمون فى شكل حزب فى حبائل هذا الاغراء فقد يتمكن هذا الحزب — وخاصة اذا ما حدثت اضطرابات داخلية مثل نشوب ثورة تلقائية — من الاستيلاء على الثورة ودفع المجتمع الى داخل الاتوبيس الاشتراكى ثم ينطلق الاتوبيس . وما أن يصبح المجتمع فى داخل الاتوبيس الاشتراكى حتى يصبح من الصعب عليه الى حد ما النزول منه وعندئذ تسير التنمية الخاصة به فى مسار مختلف منذ ذلك الوقت فصاعدا .

ولكن اذا المجتمع فاته الاتوبيس لسبب أو لآخر اما بسبب عدم نشوء موقف ثورى على الاطلاق او بسبب نشوب الثورة قبل ظهور الحزب الواعى واذا كان المجتمع آنئذ يسير فى تنمية رأسمالية ناجحة او تنمية سوق ناجحة

فان الاتوبيس الاشتراكى لن يجيىء مرة اخرى على الاطلاق ويتضاءل الحل الاشتراكى تدريجيا ويصبح لا صلة له بالموضوع . ففى الدول الاوربية الغربية ربما كان عام ١٨٤٨ هو اللحظة المناسبة لان يتولى حزب شيوعى السلطة لو كان هناك حزب شيوعى فى ذلك الوقت . الا ان هذا التاريخ كان مبكرا للغاية . فالبيان الرسمى الشيوعى Manifesto لم يكن كافيا لخلق حزب . وكان الامر يتطلب الانتظار لحين صدور كتاب راس المال Le Capital ولحين انقضاء جيلين من الاشتراكيين . اما فى الولايات المتحدة فانه من المشكوك فيه أن يكون الاتوبيس قد وصل اليها . وكانت هناك تلك اللحظات من عام ١٩٣٢ التى ربما قد شوهد فيها الاتوبيس على مسافة بعيدة فى غياهب الشارع . بل وحتى فى اشد الفترات العصيبة من الكساد الاقتصادى لم يصبح الشيوعيون قوة تهديدية بمعنى الكلمة . كما انهم فشلوا فى السيطرة على هجرة الزنوج الذين كان من المتوقع تحقيق بعض النجاح معهم . وسرعان ما ادى سلوكهم الى نزع الثقة منهم فى الحركة العمالية التى طردوا منها فى نهاية الامر .

وهذا الصراع الايديولوجى خطير للغاية فى هذه الايام والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن جزءا كبيرا من العالم مازال فى المرحلة التى لم يصل فيها بعد الاتوبيس الاشتراكى ولذلك فمازال الاستفسار قائما عما اذا كانت هذه المجتمعات سوف تشق طريقها فى التنمية من خلال خطوط اشتراكية شمولية أو من خلال خطوط اقتصاد السوق الموجه . فاذا كان الاختيار هو حل وسط ما بين الاشتراكية الشمولية وبين التنمية وفق اقتصاد السوق الموجه (٥٣) فان الاجابة ستكون واضحة الى حد ما . فالتنمية الشمولية الاشتراكية هى شكل من أشكال التنمية الباهظة التكاليف . فهى باهظة التكاليف اذا نظرنا الى الامور من زاوية اللاجئين ومن زاوية الرعب والعنف ومن زاوية الدعاية والتلاعب والكذب وافساد الحياة الثقافية والفنية . أما التنمية الاشتراكية غير الشمولية فليست أمرا لا يصدق اى انها من الامور التى يمكن أن نتخيلها

وأن نصدقها . ومما لا شك فيه أن بولندا هى أقرب مثال يدل على ذلك حيث نجد بها قدرا كبيرا من الحرية الثقافية والفنية يتمايش مع التخطيط الاشتراكى (٥٤) . ولكن حتى يومنا هذا تتمثل الحقيقة المرة فى جميع الدول الاشتراكية تقريبا فى أنها كانت ومازال شمولية وأنها قد تكونت بتكاليف باهظة للغاية من المعاناة البشرية والفساد الانسانى .

الا أنه ينبغى علينا الا نغمض اعيننا عن الحقيقة التى تقول أن جميع انواع التنمية لها تكلفتها وأن التنمية الراسمالية غير الناجحة مثل ذلك النوع الذى نجده فى افريقيا أو آسيا او بعض دول أمريكا اللاتينية هى أيضا تمت بتكلفة انسانية عالية — ربما فى نفس حجم التكلفة الانسانية للاشتراكية الشمولية او يزيد . وعلى العموم فانا اميل الى اعتبار هذه الحالات تنمية راسمالية شمولية وجميع الدلائل تشير الى ان العنصر الشمولى فى المجتمع والاعتماد على وسائل العنف والفساد هو الذى يؤدى الى ارتفاع التكلفة . ولكن الشىء المعقول الذى ينبغى السعى اليه هو التنمية بأقل تكلفة ، واقل تكلفة فى اى مجتمع هى العمل على تأدية وظيفة مؤسساته السابقة . فنحن لا يمكننا ان نضع اية قواعد صارمة وراسخة تتعلق بما ينبغى أن يكون عليه المزاج بين عنصرى السوق والميزانية . وانا شخصيا اميل الى الفكرة التى تحمل تناقضا ظاهريا والتى تقول بأن المجتمع الذى تكون فيه العناصر غير الاقتصادية فى الحياة لهـا طابع أسرى قوى أو طابع اشتراكى قوى فان مؤسسات الراسمالية ومؤسسات اقتصاد السوق ستعمل على خير ما يرام « الاشتراكية » . وخير مثال على ذلك هى الولايات المتحدة . ومن جهة لانهـا تتعرض باستمرار للتوجيه والمراجعة من جانب الاخلاقيات اخرى ففى المجتمعات التى يكون فيها الاحساس بالجماعة ضعيفا والتى يكون فيها احساس كل فرد بالمسئولية تجاه الجماعة ضعيفا فان مؤسسات الراسمالية يمكن ان تكون غاية فى الافساد . وخير مثال على ذلك هى الصين قبل قيام الثورة بها . واذا ما كان علينا ان نحقق تحولا بأقل التكاليف الممكنة

فانه يجب علينا أن نكف عن تقسيم العالم الى مجموعتين ونبادر الى تنـــاول المشكلة بأسلوب علمى واجتماعى وعملى .

لذلك لو كانت هناك أية أيديولوجية تتلاءم بصفة خاصة مع تحقيق التحول فانها ليست الايديولوجية الراسمالية ولا الايديولوجية الاشتراكية وانما هى الايديولوجية العلمية التى تنطبق على المجتمع . والايديولوجية اللازمة للتحول العظيم ينبغى أن تكون استراتيجية أكثر مما هى ايديولوجية . وهذا هو ما سأتناوله فى الفصل التالى .

الفصل التاسع

الاستراتيجية اللازمة للتحول

مما لاشك فيه أن هناك تحول عظيم ، وهذه حقيقة لا جدال فيهـا . فأى فرد فى منتصف العمـر فى هذه الايام عليه أن يعود بفكره الى فترات طفولته او يعود بفكره الى ايام آبائه واجداده ليدرك على الفور اننا نعيش فى عالم يتواجد به معدلات تغير هائلة للغاية . فاذا ما قدر لشخص فى مجتمع متقدم فى هذه الايام أن يعود فجاة الى الوراء ليعيش فى ظروف العالم التى كانت متواجدة منذ مائة عام فقط فانه سيشعر بالغربة والاغتراب الى اقصى الحدود . اذ سيكتشف أن قدرا كبيرا من مفردات اللغة عنده لا معنى لها لدى الناس الذين يعيشون حوله . وسيدرك انه من الصعب عليه ان يوائم نفسه مع العوائق الموجودة ومع الحياة الصارمة المقيدة التى يتحتم عليه ان يعيشها . سيشعر انه فى مجتمع غريب بالنسبة له .

ويتناول هذا الفصل المواقف التى قد تتخذ نحو التحول بالاضافة الى تحديد الاستراتيجية التى يمكن اتخاذها بهدف تحقيق التحول باقل تكلفـة بمعايير البؤس البشرى والفساد الانسانى . ويمكن أن تتراوح الاتجاهات نحو التحول ما بين الرفض والتقبل على مضض والتقبـل الحذر النقـدى والقبول الحماسى الخالى من الانتقاد . وسيتضح على ما اعتقد اننى اميل الى الاتجاه الثالث من تلك الاتجاهات . فانا أرحب بالتحول من حيث هو حدث ضخم ذو امكانيات تطويرية هائلة يتمشى مع التنمية العـامة للكون كمـا نعرفه . ومن ناحية أخرى فان للتحول امكانيات عظمى نحو الشر ونحو الخير ايضا .. فالتحول فى حد ذاته يحمل فى طياته أخطارا هائلة تهدد الجنس البشرى بشكل غير مقبول . لذلك ينبغى فحص جميع الاتجاهات الاربعـة سالفة الذكر ولا ينبغى المبادرة الى رفض اى منها على الفور .

وعادة ما يرفض مجتمع ما او شكل ما من أشكال الحياة خطوة تطويرية جديدة . ويبدو هذا أمرا ضروريا الى حد ما . فالعالم كما نعرفه فى هذه الايام يتضمن نماذج لا حصر لها من الاشكال والانواع التى مازالت متواجدة والتى تمثل مراحل من التنمية التطويرية . فما يزال يوجد حولنا قدر كبير من الهيدروجين الذى ربما كان العنصر الاول الذى يتم تطويره . ومازالت المادة غير العضوية تسيطر على الكون بالمعنى الكلمى . والفيروسى والأميبا وعدد كبير للغاية من اشكال الحياة الدنيا مازالت ممثلا . وانسان العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث مازال يعيش بيننا فى بعض الاماكن النائية بالعالم . لذلك فمن المعقول أن نفترض ان المجتمع المتحضر بمكنه أن يتعايش لفترة طويلة للغاية مع مجتمع ما بعد التحضر وأن هذا يمكن أن يحدث بسبب عدم المقدرة على صنع التحول بل وبسبب عدم الرغبة فى صنعه . وحتى فى نطاق مجتمع متقدم مثل الولايات المتحدة نجد أنه يوجد به جماعات صغيرة مثل الاميش Amish الذين يحتفظون بثقافة القرن الثامن عشر . وفى اسبانيا والبرتغال نجد أنهما تعمدتا رفض التواؤم مع روح العصر والتمدن وذلك حفاظا على اسلوب قيم « متحضر » يعتقدون فيه انه أسمى من اى شىء يمكن أن يقدمه مجتمع متقدم . ويبدو أن تايلاند وبورما قد اتخذتا موقفا مماثلا . والهند ترفض تماما التخلى عن بعض مظاهر ثقافتها الحضارية القديمة التى تعتبر غير متوافقة حاليا مع التنمية الاقتصادية . ومن هنا يتضح لنا أن الاتجاه الذى يركز على رفض التحول العظيم له جذور فى مجتمعات عديدة ومن ثم يمكن أن يسير الاختيار متعمدا فى اتجاه ما . وفى ضوء المنظور التاريخى الطويل يمكن لنا أن نلحظ أن الدول الاشتراكية تتشبث بالاتجاهات العالمية والعلوم الاجتماعية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر ولذلك فانهم سيقطعون نصف المسافة فقط على طريق التحول العظيم . ونحن غير متأكدين تماما من هذا ولكنه أمر يدعو للأسف بالنسبة للمجتمع الاشتراكى .

ونحن لا نعرف على وجه الدقة الظروف التى يكون فيها باب الاختيار برفض التحول العظيم والبقاء فى الحالة الحضارية مفتوحا بالفعل . فالأميبا تظل باقية معنا عقب مئات الملايين من سنوات التطور ولكن هناك اشكال للحياة أكثر قدما ولا حصر لها لم تتمكن من البقاء على قيد الحياة . وأحيانا ما يكون باب الاختيار ما بين المساهمة فى تنمية تطويرية أو عدم المساهمة فيها غير مفتوحا . وتلك الاشكال التى لا تساهم فى التنمية لا تبقى على قيد الحياة . وهذه العملية واضحة فى مجال التطور الاجتماعى مثلما هى واضحة فى مجال التطور البيولوجى . واذا ما كان الامر يقتضى بالفعل رفض تنمية جديدة ناجحة فان الانواع أو المجتمع الذى يرفض التنمية ،جب أن يكون له نوع ما من البيئة الملائمة فى نظام التعادلية الايكولوجية الذى يشتمل على الانواع المتطورة . واما أن هذه البيئة تنجم عن العزلة الجغرافية مثل تلك التى سمحت ببقاء الحيوانات الجرابية Marsupial بل وبقاء انسان العصر الحجرى القديم فى استراليا ، واما ان الانواع الاكثر قدما تكون قادرة على العثور على مكان فى التعادلية الاجتماعية أو الايكولوجية مما يمكنها من التناسل بقدر يكفى لبقائها على قيد الحياة . وقد يتطلب هذا بعض التكيف من جانبها .

من الممكن أن تنعزل ثقافة فرعية صغيرة نسبيا فى عالم عصرى حديث وان كان من الصعب أن يتم ذلك ، والامثلة على ذلك : الاميشى Amish فى الولايات المتحدة والمعمدانيين Baptists والمؤمنين القدامى Old Believers فى الاتحاد السوفيتى . كذلك نجد أن المجتمعات القومية التى ترفض التحول العظيم أو التى تجد نفسها غير قادرة على تحقيقه قد تظل ايضا على قيد الحياة فى عالم ما بعد التحضر طالما انها لا تشكل تهديدا ولا اغراء للمجتمعات الاكثر تطورا الموجودة حولها . وبالاضافة الى ذلك ففى العالم الذى يوجد فيه خوف مميت من الحرب بل ويوجد به الخوف من ان تؤدى الحروب الصغيرة الى تفجير حروب كبيرة ، فانه يكون به ميل قوى

نحو تجميد الحدود القومية القائمة ، ومن ثم فان الدول التى تعتمد حياتها على النواحى الحربية فقط فانهـا قد تظل غير متعرضة للقـلاقل لفترة طويلة من الوقت .

الا أنه توجد هناك مجادلات قوية على الجانب الآخر ، وقد يكون باب الاختيار بين الحضارة وما بعد الحضارة بالنسبة للعديد من المجتمعات غير مفتوح بالفعل . والاختيار المفتوح قد يكون اختيارا أشد صرامة وقسوة لانه اختيار ما بين التقدم المؤلم والشاق فى أغوار ما بعد الحضارة وبين التقهقر المؤلم نحو الفوضى والفقر القاتل للاحاسيس . ولقد شاهدنا العديد من الامثلة فى التاريخ التى أوضحت لنا تأثير المجتمعات المتحضرية على مجتمعات ما قبل التحضر وهو تأثير كان مهلكا بالنسبة لمجتمع ما قبل التحضر اللهم الا اذا كان قادرا على اعادة تنظيم نفسه بنجاح . ومعنى هذا أنه عنـدما تضرب الحضارة مجتمعا من مجتمعات ما قبل التحضر فان ذلك المجتمـع لا يمكنه البقاء على النحو الذى كان عليه . لانه اما أن يتوافق مع الحضارة واما أن يتفكك ويتحطم . ومنطقة السهول الهندية Plains Indians بالولايات المتحدة هى مثال على الفشل الذريع فى التوافق مما أدى الى انهيار المجتمع القديم . وبعض الهنود الذين يقطنون فى الجنوب الغربى مثل قبائل الهوبى هم بمثابة الحالات التى توافقت توافقا جزئيا . أما هنود هاوايى Hawaii فهم يشكلون على ما يبدو حالات التوافق التام والذوبان فى الحضارة المتقدمة مع الاحتفاظ بقدر ضئيل للغاية من طابع المجتمع القديم . كذلك نجد أن عبارات ملانيزيا Melanesia تمثل تفكك مجتمع ما قبـل التحضر القديم تحت وطأة الاتصال « بالحضارة » فى الحرب العالمية الثانية وان كانت هى حضارة تمر بأقل مظاهرها المستحبة .

ومن جهة أخرى كانت هناك أيضا أسئلة عديدة قامت فيها المجتمعات البربرية أو مجتمعات ما قبل الحضارة باسقاط الحضارة والحاق الهزيمة بها . وقصة تدمير المدن والحضارات عن طريق الغزاة البرابرة هى قصة

قديمة طويلة . الا ان مجتمعات ما بعد التحضر ليست هي التى قضت على الحضارة وانما الذى تقضى على الحضارة هي مجتمعات شبه متحضرة كان لديها قدر كاف من فنون الحضارة مما أعانها على تحسين قواها التدميرية ولكن هذه الفنون لم تكن كافية على نحو يمكنها من أن تكون بناءة . ولذلك يمكن أن نقول : مثلما أن التفاعل ما بين المجتمعات المتحضرة ومجتمعات ما قبل التحضر يحمل فى طياته أخطارا هائلة على كل منهما وكثيرا ما يدمر كليهما ، فكذلك التفاعل ما بين مجتمعات ما بعد الحضارة والمجتمعات المتحضرة يحمل فى طياته اخطارا كبيرة وهى مخاطر تعمقها قوى التدمير الهائلة المتضمنة فى طرائق مجتمعات ما بعد الحضارة . ومن جهة اخرى فان ادخال اجراءات الصحة العامة — كما سبق أن اوضحنا — فى المجتمعات المتحضرة يعرض حتما تلك المجتمعات لانفجارات سكانية فى حجم الكارثة اذا لم يستتبع ذلك تغييرات جوهرية فى نموذج الحضارة على وجه السرعة . وحقيقة الامر أن هناك احتمال كبير فى أن تغوص تلك المجتمعات فى خلال الخمسين عاما القادمة فى اللامبالاة والتبلد اليائس بل والتردى الى فوضى عارمة كنتيجة لفشلها فى القيام بالتوافقات الديموجرافيــة اللازمة . ومن ناحيــة اخرى فانه ينبغى مواجهة كابوس تيمورلنك جديد أو جنكيزخان جديد مزود بأسلحة نووية . وحتى اذا توصلت الدول المتقدمة فى العالم الى حالة من التعايش السلمى ، وهو أمر غير مستحيل على ما يبدو — فان التاريخ السابق للعالم يوحى بامكانية ظهور شخص غازى منتصر لا رحمة فى قلبه فى دولة أقل تقدما — مقدونيا القرن الواحد والعشرين أو منغوليا القرن الواحد والعشرين تحصل على الاسلحة النووية او البيولوجية ولكنها لا تمتلك الحضارة الاساسية التى تنتجها — قد يبث الرعب والخوف من الدمار فى عالم ما بعد التحضر .

والنتيجة التى نخلص بها من هذه المناقشة هى انه من المحتمل أن يتم رفض ما بعد الحضارة وذلك تحت ظروف محدودة فقط وأن هذا الرفض لا يمكن أن يكون رفضا بسيطا من النوع الذى يرفض تحقيق اى توافق وانما

يجب ان يكون فى حد ذاته توافقا واعيا مع موقف العالم الجديد . الا انه من غير المحتمل ان يكون هذا الاختيار مفتوحا أمام كل شخص . فاثناء التنمية توجد نقطة اللاعودة التى تصبح بعدها اختيار البقاء فقط فى نطاق التحضر أمرا غير متاح . اذ يكون المجتمع سائرا فى تغير ديناميكى ولا يمكن لأية قوة ايقاف ذلك التغير . وهذا فى الحقيقة هو المعنى الذى قصده روستو Rostow (*) من تعبير « الانطلاق Takes off » . وهناك مجتمعات لا يمكنها البقاء فى عزلة وذلك بسبب ظروفها الجغرافية . وقد يتساءل المرء : هل يمكن لأى مجتمع الآن فى عصر النقل الجوى والصواريخ العابرة للقارات أن يكون له نفس الاختيار الذى كان لدى توكوجاوا اليابان فى القرن التاسع عشر . اذ كان باستطاعة اليابان أن تعزل نفسها عن عمليات التنمية او تعزل نفسها على الاقل عن الضغوط الخارجية لأنها كانت بعيدة من الناحية الجغرافية عن المراكز الاوروبية التى شقت طريقها نحو مرحلة ما بعد الحضارة . الا أن هذا الابتعاد انتهى بحلول منتصف القرن التاسع عشر حتى قبل ظهور عصر الطيران الجوى حيث فضلت اليابان اختيار طريق التنمية . اذ رأت اليابان انها لا يمكن لها أن تبقى على قيد الحياة اكتفت فقط ببقائها كدولة « متحضرة » . ولكن البعد انتهى تماما من على وجه الكرة الارضية ويبدو أن « الحل التوكوجاوانى «Tokugawa Solution » لم يعد أمرا متاحا بالنسبة لأى دولة اللهم الا اذا أمكن اقامة مسافة « اجتماعية » عن طريق تنمية اطار الامن العالمى .

وأصبح الاتجاه نحو الرفض الصريح للتحول العظيم أمرا نادرا . والشىء الأكثر شيوعا الآن هو الاتجاه نحو تقبل التحول العظيم على مضض . وقد ينطوى هذا الاتجاه على مخاطر أشد من المخاطر الناجمة عن الاتجاه نحو الرفض الصريح ، لأنه عادة ما يشتمل على الرغبة فى جنى ثمار التنمية

(*) Walt W. Rostow, The Stages of Economic Growth, Cambridge University Preshs 1960.

بدون الاستعداد لتحمل التكاليف ، وانفشل النسبى للتنمية فى هذه الايام فى الحزام الاستوائى ربما يرجع الى التقبل الفاتر لفكرة التنمية اكثر مما هو يرجع الى أى عامل بسيط آخر . وتحت هذه الظروف فان هذه المجتمعات قد تفشل فى تحقيق التوافق وبالتالى فانهـــا ستتردى الى اغوار سحيقة فى خلال العقود القليلة التالية . وهناك فرق شاسع بين الفقر Poverty وبين الاملاق destitution — مثال ذلك هناك فرق بين فقر جامايكا وبين املاق هايتى ، بين فقر الملايو وبين املاق بعض الاماكن بالهند . وتحت تأثير العزلة والانفجار السكانى وعدم المهارة السياسية نجد أن العديد من الدول التى تعتبر الآن فقيرة ستصبح دولا يسودها الاملاق مما يؤدى بالتالى الى تعذر تغييرها . ولذلك فان أخطر الاتجاهات التى تعوق التحول العظيم هو تقبل فكرة التنمية على مضض وبالتالى هو التقبل الفاشل لتلك الفكرة .

واذا انتقلنا الى النقيض من ذلك نجد فى بعض الحالات قبولا أعمى لدى تغير ولجميع حالات التغير طالما أن هذا التغير يتخذ بطابع التكنولوجى أو التقدمى أو التطويرى . وينتشر هذا الاتجاه بصفة خاصة بين الشيوعيين وله بعض التواجد أيضا فى الغرب . ومن المرجح الا يكون لهذا الاتجـــاه نفس خطورة التقبل على مضض أو الرفض بمعنى انه لا يؤدى عادة الى الفشل التام أو الكارثة الا انه مع ذلك اتجاه له مخاطره الخاصة به وخاصة اذا نظر صاحبته رؤية أيديولوجية صارمة عن كيفية تحقيق التحول . وتحت هذه الظروف فان مثل هذا الاتجـــاه يمكن أن يؤدى بســـهولة الى ما يسمى بالتنمية باهظة التكاليف . وقد يقول البعض أن التنمية باهظة التكاليف افضل على أية حال من عدم التنمية على الاطلاق وافضل بالتأكيد من التنمية التى تسير فى الاتجاه الخاطىء . ومع ذلك فهى أسوأ من التنمية المنخفضة التكاليف ومن ثم فان الامر يستلزم دراستها بكل دقة . وبالنسبة للحالات التى تحققت فيها التنمية بتكاليف عالية أكثر من اللازم — أى بتكاليف تصل الى درجة البؤس الانسانى أو الانحطاط البشرى أو عدم التنظيم الاجتماعى وفقدان

القيم التى يعتز بها الانسان — فانه يمكن ارجاع ذلك اما الى فشل التنظيم او الفشل فى اتخـاذ القرار بسبب الصور الذهنيـة الزائفة عن التنظيم كبير من البؤس البشرى المتمثل فى حالات الكساد الاقتصادى والبطـالة . الاجتماعى . ففى الغرب على سبيل المثال نجد أن التحول قد صاحبه قدر فكثيرا ما كانت هناك امدادات غير كافية من اجل التعليم والشيخوخة والمرض وامدادات غير كافية من أجل تلك البضائع الاجتماعية التى لا يمكن تزويدها عن طريق الاسواق . وتلك التكلفة قد ترجع جزئيا الى عدم توفير التنظيم السياسى وقد ترجع من ناحية أخرى الى التباطؤ فى نقل السلطة السياسية الى قاعدة أكثر اتساعا وقد ترجع اساسا الى عدم وجود الصورة الذهنية الواعية الملائمة عن طبيعة العملية التى كان يمر بها المجتمع ، بالاضـافة الى صدور قرارت سياسية قائمة على نظام للمعلومات غير ملائم بل وقائمة على اطار غير كاف . ومع كل ذلك فان الحماس للتنميـة فى الغرب ورغبة الثقافة فى الغرب فى استيعاب منتجات جديدة وطرائق جديدة وأفكار جديدة قد مكنه من التغلب على كثير من هذه الصعاب ، ورغم أن الكثير من التكاليف كانت عالية الا أن العائد قد فاق التكاليف بدون شك . واذا ما كان علينـا أن نفعـل ذلك مـرة أخرى فباستطاعتنا أن نفعـله بشكل أفضـل ما فى ذلك شك .

وكذلك كانت هناك تنمية باهظة التكاليف فى الدول الاشتراكية ، وهى تكلفة تفوق — من وجهة نظرى — التكلفة العالية للتنمية الغربية فى مراحلها الاولى . مثال ذلك أن أول زراعة مجاعية فى الاتحاد السوفيتى فى الفترة من عام ١٩٢٨ الى عام ١٩٣٢ كانت بمثابة كارثة بشرية أكبر حجما من الكساد الاقتصادى الكبير الذى حدث فى الغرب . ففى الغرب كانت هناك بطـالة على نطاق واسع وصافى استثمار يكاد ينحدر الى درجة الصفر بالاضـافة الى تزايد الفقر كما كانت عملية التنمية تتعرض للاعاقة ولكنها لم تسر الى الوراء على ما يبدو . وهبط معدل التنمية الى الصفر تقريبا ولكنه لم يصبح

سلبيا . أما فى الاتحاد السوفيتى فقد هلك ٦ مليون شخص جوعا وهلكت نصف المواشى والاغنام ومزقت الكراهية الطبقية المجتمع وتم القضاء على الحريات الشخصية وتدهورت الفنون وأصابها الركود . وصحيح أنه نجم عن ذلك ظهور الصناعة الثقيلة والاستثمار التعليمى الذى يمكن أن يقوم عليه النمو فى المستقبل ومن هنا يقول المواطنون السوفيت أن العائد أكبر بكثير من التكلفة . ومع ذلك فقد كانت التكلفة هائلة وكان من الممكن تجنب الكثير منها . وكذلك فى الصين الشيوعية تعتبر تكلفة التنمية هائلة للغاية ، بل هى تكلفة مرتفعة على نحو قد يهدد العملية بأكملها وقد يسفر عن ظهور أمة يسودها جنون الشك والريبة واليأس المرير . بل وفى كوبا يمكننا أن نلحظ وجود تنمية بالغة التكاليف للغاية تصل الى حد ظهور اللاجئين واضفاء الطابع العسكرى على كل شىء وتجريد الانسان من صفاته الانسانية بالاضافة الى حالات الفشل الاقتصادى التى كان من الممكن تجنبها بسهولة لو أن الثورة لم تقع فى أيدى أولئك الذين يلتزمون بأيديولوجية بطل استعمالها . ومن ناحية أخرى فانا نرى فى يوغوسلافيا وبولندا وربما فى رومانيا وبلغاريا تنميات اشتراكية بتكاليف أقل بكثير وان كنا نأمل فى أن تصبح التكلفة بتلك الدول أكثر انخفاضا مما هى عليه وخاصة فيما يتعلق بنواحى الحرية الشخصية .

ومن الواضح أن التباين بين التنمية العالية التكاليف والتنمية المنخفضة التكاليف هو أمر يختصر الطريق الى الحرب الباردة وتقسيم العالم الى شرق وغرب . وينبغى أن أشير الى أننى أعتقد أن النظرية الاشتراكية فى حد ذاتها تفرض حدا معينا بحيث لا يمكن تخفيض تكلفة التنمية الى ما هو أقل من هذا الحد ولكن هذا الحد قد يكون مقبولا بعض الشىء وقد تكون تكاليف التنمية الاشتراكية فى حدها الادنى أقل بكثير من تكاليف التنمية الرأسمالية فى حدها الاقصى . فعندما ننظر على سبيل المثال الى بعض الدول مثل البرازيل التى تمت التنمية بها بتكلفة اجتماعية عالية متمثلة فى التضخم

المالى وفى الفشل فى الامداد بالسلع الاجتماعية وفى بعض التفكك الاخلاقى فى المجتمع ، بل وعندما ننظر الى الدول العديدة المندرجة تحت اسم العالم الحر والتى كانت التنمية بها غير ناجحة فانه يتضح لنا اننـــا جميعا كبشر يعيش فى بيوت من الزجاج وان احدا منا لا يستطيع ان يقذف الحجارة . فنحن جميعا نواجه مشكلة تطوير الصور الذهنية الواقعيـــة عن الديناميكيـــات المتعلقة بانظمتنا الاجتماعية . ولذلك قد يكون من المفيد اجراء حوار بين الشرق والغرب ولكن المواجهة الدياليكتية بينهما ستكون لها أهمية قليلة . ومما لاشك فيه أن الغضب والكراهية والرعاية التى تنجم عن الحرب الباردة غير مفيدة على الاطلاق .

لذلك فانا أوصى بان يكون موقفنا من التحول العظيم من النوع الذى يتسم بالتقبل الانتقادى . وقد تجيىء علينا لحظات نتمنى فيها الا يكون التحول العظيم قد بدأ على الاطلاق بسبب الحنين للعهود الماضية . ولكن طالما أن التحول قد بدأ كشق طريقه فلا مجال للتراجع فيه . وينبغى علينا أن نعرف كيف نستخدم طاقاته الكامنة الهائلة فى مجال الخير وليس فى مجال الشر ، ويجب علينا أن نعرف كيف نقلل من — ونستأصل فى النهاية — الاخطار التى تصاحبه . واذا ما كان على أن الخص الموقف فى جملة فاننى اقول أن الموقف قد نشأ بسبب تطوير طرائق معينة لاختيار الحقيقة وتطبيقها على صورنا الذهنية عن الطبيعة . واذا كان علينا أن نجتاز التحول بنجاح فانه يجب علينا أن نطبق هذه الطرائق — او طرائق مماثلة — لاختيار الحقيقة على صورنا الذهنية عن الانسان وعن مجتمعه .

فى هذه الايام يوجد فى العالم « جامعة غير مرئيـــة » تضم النـــاس الموجودين فى العديد من الدول المختلفة المتباينة والمنتمين لثقافات عديدة متباينة وهؤلاء الناس لديهم هذه الرؤية عن طبيعة التحول الذى نمر به وهم مصممون على تكريس حياتهم من اجل تحقيق هذا التحول بنجاح . والعضوية فى هذه الجامعة تتوافق مع العديد من المواقف الفلسفية والدينية والسياسية

المتباينة . وهي جامعة لا مؤسس لها ولا رئيس لها ولا مباني ولا تنظيم لها . وربما كان من بين مؤسسيها يسوعي مثل بيير تيلهارد دي شاردن Pierre Teilhardde Chardin وانساني مثل اولدس هكسلي وكاتب قصص علمية مثل هـ . ج . ويلز ، وقد تكون هذه الجامعة قد اعطت الدكتوراة لكل من آدم سميث وكارل ماركس والبابا جون الثالث والعشرون وخرشتشوف وجون كنيدي . ومازال الممثلون الاحياء لهذه الجامعة صغيرى العدد نسبيا . ولكني أعتقد انهم هم الذين سيمسكون بزمام مستقبل العالم في أيديهم او على الاقل في عقولهم .

وأنا اعتبر نفسي داعية لهـذه الجامعة غير المرئية بل واعترف بكل صراحة أن هذا الكتاب بمثابة نبذة للدعاية لها . فكوكبنا الصغير العزيز علينا مهد الحياة الداكن الخضرة المحاط برداء وردى يمر بمرحلة حرجة للغاية قد تكون اشد المراحل الحرجة في تاريخ وجوده باكمله . فهو في موقف يتسم بالخطورة الجسيمة والقوى الكامنة الهائلة . ومما لا شك فيه ان هناك تجارب عديدة تطويرية تتم في اجزاء مختلفة من هذا الكون الكبير . ولكن هذا الكوكب هو كوكبي وانا مرتبط به تمام الارتباط ولذلك فانه يهمنى نجاح هذه التجربة بصفة خاصة . فاذا كان في هذا اعتزاز بالسلالة البشرية فليكن الامر كذلك . ولكنى متأكد ان هذا الامر لن يحوز النجاح ما لم يتخذ اى أجراء . وهنـاك أخطار تترتب على كل من التفجير النووى والانفجار السكانى وكلاهمـا سيقضيان على العملية التطويرية في الاماكن التى تشهدهما . وقد يواسى الانسـان نفسه من خلال فكرة العدالة الاولية . أى اذا قام الانسـان بتدمير نفسه فانه يستأهل ذلك لأن الغلطة هي غلطته هو . فهو قبطـان مركب رقيقة سهلة الانكسار واثناء تدميره لنفسه قد يدمر المركب بسهولة — أى يدمر الكوكب الذى يحمله بكل ثرواته الضخمة ومعـداته التطـويرية وطاقاته الكامنة التطويرية . وهذا يجعل الاخطـار المحيقة بالتحول امرا لا يطاق ومن ثم يتطلب الامر بذل الجهود المستميتة لازالة تلك الاخطار ...

ولكن ما ان ننضم الى هذه الجامعة غير المرئية فما هى الامور التى يجب ان نغفلهـــا ؟ هل ننضـــم الى ضرب سياسى ؟ هل نرابط امام البيت الابيض ؟ هل نمشى فى مسيرات احتجاج ؟ هل نكرس انفسنا من اجل البحوث والتعليم والدعاية ؟ او هل ننجز اعمالنا اليومية العادية على النحو الذى اعتدناه من قبل ولا توجد اجابة بسيطة على هذا التساؤل . والالتحـــاق بالجامعة غير المرئية الخاصة بالتحول — شأنه شأن اى ارتباط آخر — يعنى ضمنا التغير من الحياة التى لا ينظر اليها بعين الدقة والتمحيص الى الحياة التى تخضع للفحص والاختبار . ولكن من الصعب على اى شخص معين أن يتنبأ بالنتائج التى ستنجم عن هذا التمحيص بل ومن الصعب أن يتنبأ بالنتائج التى ستنجم عن هذا التمحيص بل ومن الصعب ان يتنبأ بالأمور التى تعتبر جيـــدة . والشىء المؤكد هو اننا سنرى وسنفعل نفس الاشياء القديمة ولكن فى ضوء جديد وعلى نحو اكثر تمحيصا ودقة .

وفى أحد الفصول السابقة حددنا المشكلة الاساسية على انها تلك التى تؤثر على التغير فى الـــ Noosphere عقب الكوارث . ومن المفيد لكل منا ان يتساءل : ما هى التغييرات التى تحدث فى الـــ Noosphere وما هو مجال المعرفة التى تكتنف الكرة الارضية كنتيجة لحياتنا الخاصة بنا ؟ نحن جميعا نؤثر على الـــ Noosphere بثلاث وسائل . فالمحتـــوى فى عقولنا هو جزء من الـــ Noosphere حتى أن ما يحدث للمعرفة عندنا وللصور الذهنية لدينا يعتبر هو ذلك الجزء من الـــ Noosphere الذى يمكن أن نؤثر فيه على الفور . ومن المفيد لنا جميعا أن نتوقف من وقت لآخر لنعرف الاتجاه الذى يسير فيه محتوى عقولنا اثنـــاء التغير ولنعرف تلك العمليات التى يحدث عن طريقها التغير . وينبغى علينا ان نتساءل ايضا عن تلك الوسائل التى نختبر بها المعرفة المفترضة لدينا — او هل نحن لا نهتم بعمل هذا ؟ هل نحن ننهمك فى اى نشاط قد يوصف بانه تنقيب وبحث — وذلك بتعريض انفسنا — على ذلك المثال لمصادر غير مألوفة للمعـــرفة ولوجهات نظر جديدة ؟

والنقطة الثانية التى نؤثر عندها فى الـــ Noosphere تكون عن طريق تدفق المعلومات التى نضعهـــا تجاه الآخرين . فنحن دائما نتصـــل بالآخرين عن طريق المحادثة والكتابة والنشاط العادى للحياة اليومية ونتيجة لهذه الاتصـــالات فان الصـــور الذهنية لدى الآخرين عن العـــالم تتغير . والمدرس بالطبع مرتبط مهنيا بمثل هذا النشاط الا اننا جميعا نعتبر مدرسين سواء أردنا ذلك أم لم نرد أو سواء أكنا مدركين لذلك عن وعى أم لا . أما العملية الثالثة فهى ربما تكون مجرد امتداد للعملية الاولى . وهى العملية التى يمكن لنا بواسطتها أن نحصل على معرفة جديدة لم يحصل احد عليها من قبل . وعادة ما ينظر الى هذه العملية على انها حق شخصى للعدد القليل المشتغلين بالبحوث المهنية . الا ان هذه العملية ليست منعـــزلة تماما من العمليـــة العـــامة لزيادة المعـــرفة فى أى عقل والعـــديد من الاكتشافات والاختراعات مازالت تتم عن طريق أناس من الهواة . وكلما كان هناك عدد كبير من الناس المهتمين ببحوث من نوع ما والذين يتطلعون دائما الى وسائل جديدة وجيدة لانجاز الامور ، كلما كان المعـــدل العام للتنمية أسرع . فربة البيت التى تفكر فى اعداد طبق جديد او طريقة جديدة لفض المنازعات فى الاسرة ، والعامل أو الصانع الذى يضع اقتراحا فى صندوق الاقتراحات ، ورجل الاعمال الذى يشق طريقا جديدا بالنسبة لانتاج جديد أو منهج جديد ، والموظف الحكومى او رجل السياسة الذى يضع خطا جديدا فى السياسة ، كل هؤلاء يعتبروا منهمكين فى خلق وابتكار معرفة جديدة شانهم فى ذلك شأن العلماء المرتدين للمعاطف البيضاء والذين يقدمون بتجاربهم فى المعـــامل . والاعمال غير المنجزة والخاصة بالتحول العظيم تعتبر كثيرة للغاية حتى انه من الصعب الا يجد اى شخص دورا ليقوم به فى العملية .

وفى كثير من مجالات الحياة فى هذه الايام يشهد المرء استقطابا معينـــا لدور الفرد . وصحيح ان قدرا كبيرا من هذا الاستقطاب قد يكون بدون

وعى تماما ولكنه مع ذلك — يعكس اتجـاهين متباينين تماما ازاء التحول العظيم . فمن ناحية يوجد هناك أولئك الذين يشعرون باليأس وأولئك الذين يفقدون الامل ويتقهقرون الى العدم او الى انجـاز الواجبـات الروتينية الشائعة . وهؤلاء هم الناس الذين يتعرضون بشدة لضغوط واخطار التحول العظيم والذين يحسون كثيرا بالاخطار ولا يدركون الطاقات الكامنة مما يؤدى بهم الى التخلى عن الكفاح والصراع . ومن ناحية أخرى يوجد هناك أولئك الذين مازال لديهم أمل فى الجنس البشرى ، الذين يرون الطاقات الكامنة الهائلة التي توجد امامنا على الرغم من الاخطار ومن ثم يسعون دائما الى البناء والتشييد وليس التحطيم والهدم ويسعون الى الخلق والابتكار وليس التدمير ويعملون على التقليل من المخاطر وترشيد وتوجيه المسار . وحتى الى الاهتمام بالقيام بدور كمواطنين ولكننا نجد بينهم ايضا آخرون يتقهقرون بين علماء الطبيعة نجد منهم من يهتم بتوجيه عملهم نحو قنوات هامة بالاضافة الى اذعان عقيم وسلوك روتيني . ومن بين العلماء الاجتماعيين يوجد اولئك الذين ينخرطون فى نشـاط حيوى فى كل من الميـادين المجردة والتطبيقية ويسيرون فى هدى الاحساس بأهمية يقومون به واهمية سعى الانسان الى المعرفة فى هذا المجال . ولكن هناك ايضا آخرون ممن يتقهقرون الى مناقشات ميثودولوجية عقيمة أو ممن يسعون الى القيام بالطقوس العلمية دون السعى الى الوقوف على الروح العلمية .

فى الفلسفة يوجد أولئك المهتمين بالابعاد الجديدة فى نظام الفكر لدى الانسان ، حتى اثناء كفاحه مع التساؤلات التى لا يعرف اجابة لها ، كما يوجد آخرون ممن يركنون فى استرخاء الى العلمية Scientism الضحلة . أو ممن يداومون على التقاليد العظمى التى تعين الانسان على ممارسة خياله الخاص به لكى يرتفع بنفسـه ويحقق ادراك الذات ومن بين هؤلاء ادباء القصص العلمى الخيالى ، بينما يوجد كتاب آخرون من يستخدمون البذاءة تحت اسم الواقعية ويسعون الى التقليل من شأن الانسان وتحقير صورته الذهنية

عن نفسه . وفى مجال الفن يوجد اولئك الذين يسعون لتحقيق الطشرانة والبدع المستحدثة مهما كلفهم الامر وفقدوا تماما الاهتمام بالجمال ، ولكن يوجد ايضا أولئك الذين يدخلون فى صراع مع المشكلة الكبرى الخاصة بالعثور على مستويات جمالية فى عصر التكنولوجيا ويسعون الى الربط بين الخطر الهائل وبين الطاقات الكامنة للاوضاع الحالية للانسان فى قالب جمالى .

وفى الدين يوجد أولئك الذين يحاولون ايقاظ الانسان وتنبيهه الى أوضاعه وبيئته الحديثة وتطوير المبادىء Phyla العظمى للدين فى اتجاهات تتلاءم مع احتياجات المجتمع المتطور . ولكن هناك آخرون ممن يستغلون بساطة الجهل سعيا وراء النفوذ والسلطة ويعملون على اعطاء السلطة للتحيزات الخاصة بهم عن طريق الابتهال للاسم المقدس . وفى مجال السياسة يوجد رجال يرون ضرورة التوصل الى مجتمع عالمى ويعملون فى نطاق الحدود التى تفرضها عليهم أدوارهم الوظيفية على زيادة احتمالات السلام وفرص التنمية . ولكن هناك آخرون ممن يستغلون التواترات الداخلية للجماهير فيعملون على تعميق الكراهية بالاضافة الى محاولتهم الوصول الى السلطة على حساب خلق الفوضى والتفرقة وعدم الاتحاد فى العالم . وهناك رجال الاعمال والمديرون والموظفون الذين يعملون على خلق منظمات انسانية ذات طابع عملى بالاضافة الى القيام بدور المنظم بطريقة رائعة وفنية ، وهناك آخرون ممن يهتمون فقط بالتقليل من المتاعب مع العمل على تحقيق اكبر استفادة لمصالحهم الشخصية . وهناك ربات البيوت والامهات اللائى ينشئن عائلات واطفال اصحاء وخلاقين وقادرين على الاسهام فى تطوير وتنمية العالم ، ولكن هناك اخريات يعملن على خلق اشخاص مصابين بامراض عصبية سيكون لهم دور سلبى فى المجتمع مستقبلا ، وهناك آخرون يستخدمون تلاميذهم كمنفذ لتوتراتهم الشخصية ويقتلون حب التعلم ويخنقون التلهف الخلاق .

وقد ينهى المرء هذه الابتهالات العديدة بهذه الترنيمة الانجيلية وبهذه الانشودة العمالية : « الى اى جانب تقف ؟ » ولكن هذا سؤال خطير وهام . فهو يؤدى الى الجدل الديالكتيكى وليس الى الحوار ويؤدى الى الوعظ وليس الى التعليم ويؤدى الى تبرير الذات وليس الى تفحص الذات ويؤدى الى مواجهة المرء لتحيزاته السابقة وليس الى تعلم الاشياء الجديدة . وحقيقة الامر أن كل فرد منا يقف عند كلا الجانبين . والمشكلة هى كيف نرفع احد الجانبين فينا جميعا وكيف نخفض الجانب الآخر . اننى اتمنى لو كنت اتمكن من تقديم اجابة سهلة على هذا التساؤل . ولكنى للأسف لا أقدم اجابة سهلة شافية . فهناك اجابات عديدة جزئية ولكنى لا أعرف اجابة شاملة عامة .

ان محاولة تقديم اجابة على السؤال السابق قد يؤدى الى تساؤل آخر . هل هناك نقطة ما فى التحول العظيم ينبغى ان تصبح عندها الجامعة غير المرئية مرئية ؟ هل نحن بحاجة الى تنظيم مرئى مثل طائفة اليسوعيين Jesuits أو الحزب الشيوعى يكون مكرسا لأيديولوجية التحول وملتزما بايصال الانسان لها ؟ هناك قدر كبير من الاغراء فى هذه الفكرة . اذ يمكن أن يقال أن فكرة التحول العظيم تشتمل على جميع العناصر اللازمة للأيديولوجية . فهى تشتمل على تفسير للتاريخ وعلى صورة ذهنية عن المستقبل وعلى نقد للسلوك الشخصى والسياسى كما تشتمل على دور لكل فرد يؤديه . وكل ما تحتاج اليه على ما يبدو هو رجال كهنوت مهنيين يعملون على تقديم الرموز للفكرة والترويج لها وتنظيمها وبذلك يرشدون البشرية الى الدخول الى حظيرة ما بعد الحضارة . وليس لدى أدنى شك فى امكان تنفيذ هذا « السناريو Scenario » على حد تعبير هيرمان كاهن * . ولكنى ليس لدى أدنى شك أيضا فى أن هذا السناريو ليس هو السناريو الوحيد

* Herman Kahn, Thinking about the Unhinkable, New York Harizon Press 1962.

وفى رأيى أن هذا السناريو ليس هو افضل السناريوهات . « فالجـامعة المرئية » المنظمة التى تضم علية لقوم من المفكرين تعتبر بمثابة طريق مختصر وجذاب نحو تحقيق أهداف الايديولوجية . ولكنى مع ذلك أعتقد انه طريق ادى على الاقل الى احداث شرور أكثر وخير أقل أو ادى على أحسن تقدير مختصر قد أدى فى الماضى على نحو يكاد يكون حتميا الى ما يشبه الكارثة أو الى فعل الخير بتكلفة عالية للغاية . وهذا تعميم تجريبى استقرائى ولذلك فهو يعود الى التعريف الذى اطلقته أنا على المعرفة لدى الجماهير اكثر مما هو يعود الى العلم ، وعلى ان أعترف أننى ليس لدى برهان منطقى على أن التنظيم الذى يضم علية القوم المكرس لغرض نبيل يؤدى الى قدر من الشر يفوق كمية الخير . وهنا نجد مجالا لم تتحقق فيه بعـد المعرفة العلميـة الخالصة . ولذلك فأنا لا أستبعد ان نعثر فى المستقبل على وسائل تنظيم مجتمع واعى من تلك الوسائل المكرسة للتحول الذى لن يكون خاضعـا لتلك الاغراءات والتدهورات والانحطاطات وسوء استخدام السلطة التى تميزت بها جميع مثل هذه المجتمعات فى الماضى . بل واعتقد أن مثـل هذه المجتمعات لن تكون مفيدة للغاية اذا كانت الايديولوجية التى تنشرها تحتوى على تناقضات قوية . فالمرء لا يحتاج لشخص يسوعى أو شيوعى للترويج لجدول الضرب . فأنا اتطلع الى ان يكون المفهوم الذهنى للتحول العظيم اقرب الى جدول الضرب منه الى الموقف الايديولوجى . وفى تلك الحالة فانه يحسن أن يتم الترويج للتحول العظيم عن طريق جامعة غير مرئية لأن الافكار ستنتشر بنفسها تلقائيا عن طريق فوائدها الواضحة الجلية . لن تحتـاج الا لقدر يسير للغاية من فنون الاقناع أو فنون الضغط والارغام . وتحت هذه الظروف فان تواجد مجتمع مرئى مكرس للترويج لهذه الحقيقة بصفة خاصة قد يصبح عقبة أكثر مما يصبح تسهيلات . ولهذا السبب فأنا لا أرغب فى زرع معيار بخلاف الحقيقة ذاتها . ومن هنا يجب أن يتعاون الامين والحكيم فى عمل مشترك .

الخاتمة

وبعد تلك الرحلة العامرة بالكلمات والآراء حول مغزى القرن العشرين يمكن أن يقال أن علاقات المجتمع البشرى يجب أن تقوم على أساس البناء والسلام وأن أى سلام يقوم على تجاهل الحقوق وقهر الشعوب يكون قابلا للكسر فى أى لحظة .

ووضح أن الحضارة تعتمد على الثقافة وأن ممارسة الثقافة تعنى ترجمة لسلوكيات المواطن واحساسه بأهمية الكلمة فى حياته ، فالقراءة بلاشك سواء اكانت عن طريق العين أو الاذن هى النافذة التى يطل منها الانسان على عالمه ليعلم ما يحيط حوله وليعرف حقائقه وهى الغذاء الضرورى للعقل حتى يحصل على المعرفة التى تنميه وتنير طريقه ، فكل ما فعلته البشرية أو فكرت فيه أو ربحته أو كانته يرقد ـ كما يقول المفكر الفرنسى الشهير « توماس كارليل » بين صفحات الكتب محافظا عليه كأنما بواسطة يد سحرية .

وتأكد لنا أن الحرب ليست هى تلك التى فى ميادين القتال تدور ولا فى التطاحن الهدام وانما هناك حروب أخرى نضالها مرير ، هناك صراعات مع الحياة بآلامها وشقائها وعذاباتها والجنود كثيرون ... جنود بواسل ... وصراعات دامية فى ميادين الحياة باصرار على بلوغ الغاية والهدف .

ومن خلال عرضنا تأكد لنا أن الحياة أخذ وعطاء وأن العمل عطاء وايجابية وتحقيق الذات وأن حرية الرأى وفتح الباب لتعدد الفكر هو المخرج وهو صمام الامان لكل أمة وكل شعب وكل مجتمع وكل نظام وأن قهر الحرية وبالذات حرية الفكر هى احدى المآسى الانسانية فى دنيا البشر وكلما انزلقت السلطة الى الاستبداد اكثر واكثر كلما عجل ذلك بها الى التداعى والانهيار .
وأنه ليس من تقاليد الطغاة يوما الرضوخ لارادة القضاء .

وان الثائر الحقيقى لا يكون عادة اول المندفعين ولا اجرأ المغامرين وحتى فى الكلام نجد الثائر دائما هو اقل الجميع واكثر تنظيما وتخطيطا فاذا اقدم كان اقوى الجميع تصميما واوفرهم حماسة واكثرهم شراسة ذلك هو الثائر الذى لا يتراجع ولا ينهـــزم ولا يقبـل التسليم وان الارادة الصلبة للشعوب لا تعرف المستحيل .

ويمكننا بعد فهم ما جاء به الكاتب ان نقول ان عالمنا الذى نعيش فيه يتميز بصفتين متمايزتين تعرف بين أعمال بني الانسان ، فطائفة تبنى وتعمل واخرى تهدم ، طائفة تكد وتعرق واخرى تأكل وتلعق المرق .

الاولى تبنى وتشيد لتصل للأفق والثانية تختار الطوابق ، احداهما سائرة وكلها آمال والاخرى تتربص كالثعلب المحتال .

الاولى لا تعرف غير الاعمال والثانية لا تملك غير اللسان .

ولعل التساؤل قد يدور فى الاذهان ما سبب تأخر عالمنا الثالث عن اللحاق بحضارة القرن العشرين اقول ان الوضع العربى المتردى هو نتيجة طبيعية لغياب الديموقراطية وانعدام سيادة القانون ، ذلك أنه عنـــدما تغيب الديموقراطية فان الحكم يستبيح لنفسه كل شيء وعندما تنعدم سيادة القانون لا يطمئن المواطن على نفسه وتفقد العدالة شرفها . . . واى بلد تفقد فيه العدالة شرفها تهون عليها كرامتها ويستذل مواطنوها ولا شك ان الديموقراطية ليست مجرد كلمات تقال وشعارات يهتف بها ونصوص تقرا وحقوق تتلى ، بل هى ممارسة عملية بالاسلوب الحر فى الحوار وفى اتخاذ القرارت والديموقراطية وهى ممارسة عملية لا تستقيم بمجرد اعطاء كل مواطن حرية ابداء الراى منفردا .

وانه فى عالمنا المعاصر — أى فى قرننا العشرين — مجموعة من المتغيرات

المتوالية والسريعة تسببت فى فجوات عميقة بين دول المجتمع الدولى مما نتج عنه انفصال شبكى أدى الى انعدام الرؤيا لحقيقة ما يجب ان تكون عليه العلاقات بين البشر ويتضح ذلك فى مسارات الفكر والحضارة فيما بين الدول النامية والدول المتقدمة وقد تمثل العنصر الخطير فى معطيات القرن العشرين فى سيادة وسيطرة المعايير المادية والتى اصبحت تحدد عبر قنواتها مسارات الانسان ومعطياته الفكرية والحضارية الامر الذى احدث تخلخلا فى قيم الانسان مما افقده التوازن الطبيعى فى الذات الانسانية حتى اصبح الانسان اسير المعايير الحدية لذاته ، وقد افقدته تلك الجبرية شمولية الهوية الانسانية ، فأصبح الانسان فى عالمنا المعاصر اسير ، الانماط الغير متوازنة لشخصيته والتى استهدفت تعرية الذات الانسانية من الكثير من العدل والحب والاخاء والمساواة وتعليبها فى قوالب الفردية والانتهازية والسلبية والجحود والحقد والكراهية وانا ومن بعدى الطوفان .

واخيرا وليس آخرا وضح من سياق الافكار والآراء التى وردت فى الكتاب انه فى حياة الشعوب أيام مضيئة تظل كالشمس ترسل خيوطا من النور تملأ بها جوانب الحياة وليس هناك اعظم عطاء مما تفرزه هذه الايام من عقول تبنى جيلا وراء جيل الى ان يظهر جيل العمالقة الذى يقود التطور ويقدم التكنولوجيا بما لديه من افكار وبما يمنحه من أبتكارات ومن المهم أن ندرك أن سباق التسلح واستهلاكه لامكانيات الشعوب وطاقاتها سينعكس على ما تحتاجه فى حقل التنمية ، وان اثر التدهور فى العلاقات الدولية على الدول النامية جعلها فى حالة انكماش اقتصادى خطير وابطات طريق التنمية فيها الى درجة التوقف فى بعض منها .

بقى ان اقول ان الكاتب لا يتفق مع النظرية المادية للتاريخ مؤكدا أن الماركسية تقتل المريض على امل ان تخلق انسانا جديدا بدلا منه ويموت المريض وتعجز ايديولوجية الماركسيين عن أن تخلق ذبابة وعادة ما يحمل

كل مجتمع ماركسي بذور هدامة — وذلك من منطلق تفسيرهم لتطور المجتمع وتنتهى هذه المجتمعات الى الدمار .

واذا كانت بلدانا اخرى سبقتنا فى مضمار التطور الحضارى فى القرن العشرين وازدادت الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية — المتخلفة — فان ذلك لا يجب ان يجعلنا نلهث وراء التطور بدون أن نستعد له ولا يجب ان يجعلنا نقف على الاطلاق وننعق نعيق البوم فى خرابات نفوسنا وان نجلس جنبا الى جنب نتحدث بلغة الاخوان لاننا خلقنا تعساء ولكن علينا ان نستوعب تعاستنا وآلامنا ونتجاوزها ونستعد للمستقبل فمهما كان الواقع الذى نعيش فيه اليما الا أنه يمكننا أن نعبر جسور المعاناة اذا ما شخصنا الداء وحددنا الدواء وعرفنا الطريق عندئذ يمكننا أن نقول اننا حقا نستحق الحياة ويمكننا ان ندخل باطمئنان الى قلعة التاريخ الحضارى للقرن العشرين .

محتويات الكتاب

	صفحة
اهداء	٣
مقدمة	٥
الفصل الأول	
التحول العظيم	١٤
الفصل الثانى	
العلم كاساس التحويل العظيم	٣٧
الفصل الثالث	
اهمية العلوم الاجتماعية	٦١
الفصل الرابع	
مصيدة الحرب المعوقة	٨٣
الفصل الخامس	
التنمية الاقتصادية والانطلاق الصعب	٩٩
الفصل السادس	
الانفجار السكانى	١٢٧

صفحة

الفصـــــل الســـابع

الطـــــاقة الكامنــــــة ١٤٣

الفصـــــل الثــــامن

دور الأيديولوجيـــة فى التحـــــول العظيم ١٦١

الفصـــــل التاســـــع

الاســــــتراتيجية اللازمة للتحــــــول ١٨٣

الخاتمــــــــة ١٩٧

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٥ / ٣٧٥٩

شركة مطـــابع الطنـــانى
٩ حمودة المقاول
تليفون ٩٠٢٧٧٤

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة